البخلاء

للجاحظ



ار الكتاب العربي ـ سورية

السلسلة الشعب

البخلاء للجاحظ

البُخَلاء

تاليــف

من اجمع الادباء المتقدمون والمتأخرون على تقليده
زعامــة الاجـادة في التحرير

ورئاسة الافادة في التسطير علامــة زمانــه ووحيد أوانه

ابو عثمان بن بحر الجاحظ

دار الكتاب العربي
ـ سوريا ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

(رب انعمت فزد)

تولاك الله بحفظه واعانك على شكره ، ووفقك لطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته . ذكرت حفظك الله انك قرات كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار ، وفي تفصيل حيل سراق الليل ، وانك سددت به كل خلل ، وحصنت به كل عورة ، وتقدمت بما افادك من لطائف الخدع ، ونبهك عليه من غرائب الحيل ، فيما عسى ان يبلغه كيد ، ولا يحوزه مكر .

ذكرت ان موقع نفعه عظيم وان التقدم في درسه واجب ، وقلت : اذكر لي نوادر البخلاء واحتجاج الاشحاء ، وما يجوز من ذلك في باب الهزل ، وما يجوز منه في باب الجد ، لاجعل من الجد مستراحا ، والراحة جماما ، فان للجد كدا ، يمنع من معاودته ، ولا بد لمن التمس نفعه من مراجعته .

وذكرت ملح الحزامي واحتجاج الكندي ، ورسالة سهل بن هارون ، وكلام ابن غزوان ، وخطبة الحارثي ، وكل ما حضرني من اعاجيبهم واعاجيب غيرهم ولم سموا البخل صلاحا ، والشح اقتصادا ، ولم حاموا على المنع ونسبوه الى الحزم ، ولم نصبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع ، ولم جعلوا الجود سرفا والاثرة جهلا ، ولم زهدوا في الحمد ، وقل احتفالهم في الذم ، ولم استضعفوا من هش للذكر ولم ارتاح للبذل ، ولم حكموا بالقوة لمن لا يميل الى الثناء ، ولا ينحرف عن هجاء ، ولم احتجوا بظلف العيش على لينه ، وبحلوه على مره ، ولم لم يستحيوا من رفض الطيبات في رحالهم ، مع استهتارهم بها في رحال غيرهم ، ولم اختاروا ما يوجب ذلك الاسم ، مع انفتهم من ذلك الاسم ، ولم رغبوا في الكسب ، مع زهدهم في الانفاق ، ولم عملوا في الغنى عمل الخائف من زوال الغنى ، ولم يفعلوا في الغنى عمل الراجي لدوام الغنى ، ولم وفروا نصيب الخوف ،

وبخسوا نصيب الرجاء مع طول السلامة وشمول العافية . والمعافى اكثر من المبتلي ، وليست الحوائج اقل من الفوائد .

بل كيف يدعو الى السعادة ، من خص نفسه بالشقوة ، فكيف ينتحل نصيحة العامة ، من بدأ بغش الخاصة ، ولم احتجوا مع شدة عقولهم ، بما اجمعت الامة على تقبيحه ، ولم فخروا مع اتساع معرفتهم ، بما اطبقوا على تهجينه ، وكيف يفطن عند الاعتلال له ، ويتغلغل عند الاحتجاج عنه ، الى الغايات البعيدة ، والمعاني اللطيفة ولا يفطن لظاهر قبحه ، وشناعة اسمه ، وخمول ذكره ، وسوء اثره على اهله .

وكيف وهو الذي يجمع له بين الكد وقلة المرفق ، وبين السهر وخشونة المضجع ، وبين طول الاغتراب وطول قلة الانتفاع ، ومع علمه بأن وارثه أعدى له من عدوه ، وانه احق بما له من وليه .

او ليس لو اظهر الجهل والغباوة ، وانتحل الغفلة والحماقة ، ثم احتج بتلك المعاني الشداد ، وبالالفاظ الحسان، وجودة الاختصار ، وبتقريب المعنى ، وبسهولة المخرج ، واصابة الموضع ، فكان ما ظهر من معانيه وبيانه ، مكذبا لما ظهر من جهله ونقصانه ، ولم جاز ان يبصر بعقله البعيد الغامض ، ويعيي عن القريب الجليل ؟

وقلت : فبين لي ما الشيء الذي خبل عقولهم ، وافسد اذهانهم ، واغشى تلك الابصار ونقض ذلك الاعتدال ؟ وما الشيء الذي له عاندوا الحق ، وخالفوا الامم ، وما هذا التركيب المتضاد !! والمزاج المتنافي ، وما هذا الغباء الشديد ، الذي الى جنبه فطنة عجيبة ، وما هذا السبب الذي خفي به الجليل الواضح وادرك به الدليل الغامض .

وقلت : وليس عجبي ممن خلع عذراه في البخل ، وابدى صفحته للذم ، ولم يرض من القول الا بمقارعة الخصم ، ولا من الاحتجاج الا بما رسم في الكتب ، ولا عجبي من مغلوب على عقله ، مسخر لاظهار عيبه ، كعجبي ممن قد فطن ، وعرف افراط شحه ، وهو في ذلك يجاهد نفسه ويغالب طبعه ، ولربما ظن ان قد فطن له وعرف ما عنده ، فموه شيئا لا يقبل التمويه ، ورقع خرقا لا يقبل الرقع ، فلو انه كما فطن لعيبه ، وفطن لمن فطن لعيبه ، فطن لضعفه عن علاج نفسه ، وعن تقويم اخلاطه وعن استرجاع ما سلف من عاداته وعن قلبه اخلاقه المدخولة الى ان تعود سليمة ، لترك تكلف ما لا يستطيعه ، ولرمح الانفاق على من يذمه ، ولما وضع على نفسه الرقباء ، ولا احضر مائدته الشعراء ، ولا خالط برد الافاق ، ولا لابس الموكلين بالاخبار ، ولا استراح من كد الكلفة ، ودخل في غمار الامة .

وبعد فما باله يفطن لعيوب الناس اذا اطعموه ، ولا يفطن لعيب نفسه اذ اطعمهم وان كان عيبه مكشوفا ، وعيب من اطعمهم مستورا !!

ولم سخت نفس احدهم بالكثير من التبر وشحت بالقليل من الطعم ، وقد علم ان الذي منع ، يسير في جنب ما بذل ، وانه لو شاء ان يحصل بالقليل مما جاد به اضعاف ما بخل به كان ذلك عتيدا او يسيرا موجودا !!

وقلت ولا بد من ان تعرفني الهنات التي نمت على المتكلفين ، ودلت على حقائق المتموهين ، وهتكت عن استار الادعياء وفرقت بين الحقيقة والرياء ، وفصلت بين المبهرج المتزخرف، والمطبوع المبتهل ، لتقف - زعمت - عندها، ولتعرض نفسك عليها ،ولتتوهم مواقعها ، فان نبهك التصفح لها ، على عيب قد اغفلته ، عرفت مكانه فاجتنبته ، فان كان عتيدا ظاهرا مطروفا عندك نظرت ، فان كان احتمالك فاضلا على بخلك ، دمت على اطعامهم وعلى اكتساب المحبة بمؤاكلتهم ، وان كان اكتراثك عامر الاجتهاد ، سترت نفسك وانفردت بطيب زادك ودخلت مع الغمار ، وعشت عيش المستورين ، وان كانت الحروب بينك وبين طباعك سجالا ، وكانت اسبابكما امتثالا واشكالا ، اجبت الحزم الى ترك التعرض ، واجبت الاحتياط الى رفض التكلف، ورايت ان من حصل السلامة من الذم ، فقد غنم ، وان من آثر الثقة على التغرير ، فقد حزم .

وذكرت انك الى معرفة هذا الباب احوج ، وان ذا المروءة الى هذا العلم افقر .

واني ان حصنت من الذم عرضك، بعد ان حصنت من اللصوص مالك، فقد بلغت لك ما لم يبلغه اب بار ، ولا أم رؤوم .

وسالت ان اكتب لك علة (خباب في نفي الغيرة ، وان بذ الزوجة داخل في باب المواساة والاثرة ، وان فرج الامة في العارية ، كحكم الخدمة وان الزوجة في كثير من معانيها كالامة ، وان الامة مال كالذهب والفضة) وان الرجل احق ببيته من الغريب ، واولى بأخيه من البعيد .

وان البعيد احق بالغيرة ، والقريب اولى بالانفة ، وان الاستزادة في النسل ، كالاستزادة في الحرث ، الا ان العادة هي التي اوحشت منه ، والديانة هي التي حرمته ، ولان الناس يتزيدون ايضا في استعظامه وينتحلون اكثر مما عندهم في استشناعه .

وعلة الجهجاه في تحسين الكذب ، بمرتبة الصدق في مواضع ، وفي تقبيح الصدق في مواضع ، وفي الحاق الكذب بمرتبة الصدق ، وفي حط الصدق الى موضع الكذب ، وان الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه : وبذكر مثالبه ، ويحابون الصدق بتذكر منافعه ، وبتناسي مضاره ، وانهم

لو وازنوا بين مرافقهما ، وعدلوا بين خصالهما . لما فرقوا بينهما هذا التفريق ، ولما رأوهما بهذه العيون .

ومذهب صحيح في تفضيل النسيان على كثير من الذكر ، وان الغباء في الجملة ، انفع من الفطنة في الجملة ، وان عيش البهائم احسن موقعا في النفوس من عيش العقلاء ، وانك لو اسمنت بهيمة ورجلا ذا مروءة ، او امراة ذات عقل وهمة ، واخرى ذات غباء وغفلة ، لكان الشحم الى البهيمة ولان الغباء مقرون بفراغ البال والامن ، فلذلك البهيمة تفنو شحما في الايام اليسيرة ولا تجد ذلك لذي الهمة البعيدة ، ومتوقع البلاء في البلاء ، وان سلم منه . والعاقل في الرجاء الى ان يدركه البلاء .

ولولا انك تجد هذه الابواب واكثر منها ، مصورة في كتابي ، الذي سمي اسرع ، وعن ذات العقل والهمة ابطأ ، ولان العقل مقرون بالحذر والاهتمام ، « كتاب المسائل » لاتيت على كثير منه في هذا الكتاب .

فأما ما سألت من احتجاج الاشحاء ، ونوادر احاديث البخلاء ، فسأوجدك ذلك في قصصهم ــ ان شاء الله تعالى ــ مفرقا ، وفي احتجاجاتهم مجملا ، « فهو اجمع لهذا الباب » من وصف ما عندي دون ما انتهى الي من اخبارهم على وجهها وعلى ان الكتاب ايضا يصير اقصر ، ويصير العار فيه اقل .

ونبتدىء برسالة سهل بن هارون ثم بطرف اهل خراسان ، لاكثار الناس في اهل خراسان ، ولك في هذا الكتاب ثلاثة اشياء تبين حجة طريفة ، او تعرف حيلة لطيفة ، او استفادة نادرة عجيبة ، وانت في ضحك منه اذا شئت ، وفي لهو اذا مللت الجد .

وانا ازعم ان البكاء صالح للطبائع ، ومحمود المغبة، اذا وافق الموضوع، ولم يجاوز المقدار ، ولم يعدل عن الجهة ، ودليل على الرقة ، والبعد عن القسوة . وربما عد من الوفاء ، وشدة الوجد على الاولياء . وهو من اعظم ما تقرب به العابدون واسترحم به الخائفون .

وقال بعض الحكماء لرجل اشتد جزعه من بكاء صبي له : لا تجزع فانه افتح لجرمه ، واصح لبصره .

وضرب عامر بن عبد قيس بيده على عينه فقال : جامدة شاخصة لا تندى وقيل لصفوان بن محرز عند طول بكائه وتذكر احزانه : ان اطول البكاء يورث العماء فقال : ذلك لها شهادة ، فبكي حتى عمي .

وقد مدح بالبكاء ناس كثير : منهم يحيي البكاء وهيثم البكاء .

واذا كان البكاء « الذي » ما دام صاحبه فيه ، فانه في بلاء، وربما اعمى البصر وافسد الدماغ ، ودل على السخف وقضى على صاحبه بالهلع وشبه

بالامة اللكعاء وبالحدث الضرع كذلك ، فما ظنك بالضحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السرور الى ان ينقطع عنه سببه .

ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك ، وقبيحا من المضحك لما قيل للزهرة والحبرة ، والحلي والقصر المبني : كانه يضحك ضحكا ، وقد قال الله جل ذكره : (وانه هو اضحك وابكي وانه هو امات واحيا) فوضع الضحك صنوان ابن محرز يسمى بالبكاء . بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت ، وانه لا يضيف الله الى نفسه القبيح ، ولا يمن على خلقه بالنقص .

وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ، ومن مصلحة الطباع كبيرا وهو شيء في اصل الطباع ، وفي اساس التركيب ، لان الضحك اول خير يظهر من الصبي ، وقد تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ، ومادة قوته . ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمي اولادها بالضحاك وببسام وبطلق وبطليق ، وقد ضحك النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفرح ، وضحك الصالحون ومزحوا واذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن ، وبسام العشيات ، وهش الى الضيف وذو اريحية واهتزاز .

واذا ذموا قالوا هو عبوس ، وهو كالح ، وهو قطوب ، وهو شتيم المحيا وهو مكفهر ابدا وهو كريه ومقبض الوجه وحامض الوجه وكانما وجهه بالخل منضوح .

« وللضحك موضع ، وله مقدار » ، وللمزح موضع وله مقدار ، متى جازهما احد ، وقصر عنهما احد ، صار الفاضل خطلا ، والتقصير نقصا ، فالناس لم يعيبوا الضحك الا بقدر ، ولم يعيبوا المزح الا بقدر ، ومتى اريد بالمزح النفع ، وبالمضحك الشيء الذي له جعل الضحك ، صار المزح جدا ، والضحك وقارا .

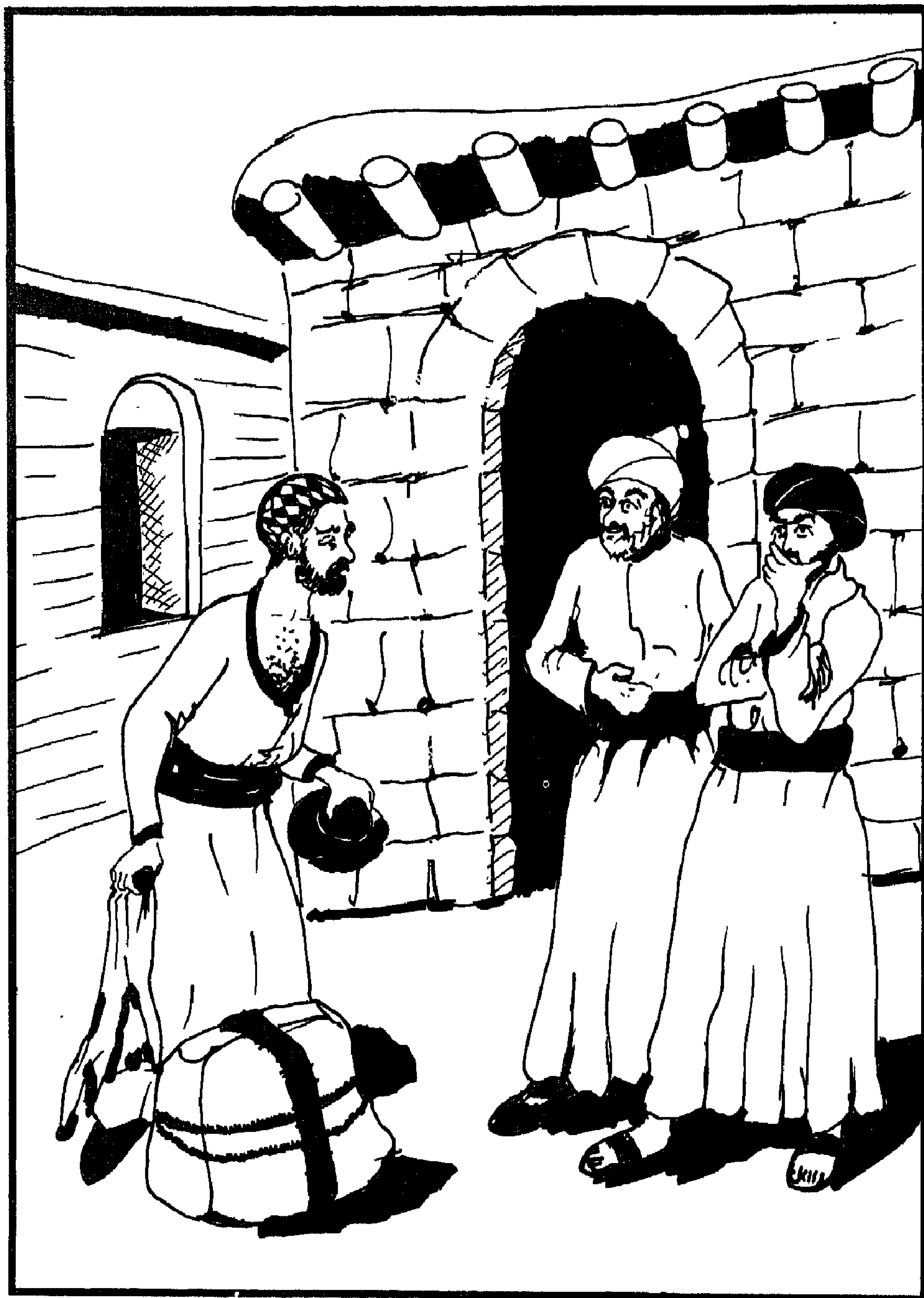
وهذا كتاب لا اغرك منه ، ولا استر عنك عيبه ، لانه لا يجوز ان يكمل لما تريده ، ولا يجوز ان توفي حقه كما ينبغي له ، لان ههنا احاديث كثيرة ، متى اطلعنا منها حرفا ، عرف اصحابها ، وان لم نسمهم ، ولم نرد ذلك بهم . وسواء سميناهم او ذكرنا ما يدل على اسمائهم . منهم الصديق والولي والمستور والمتجمل وليس يفي حسن الفائدة لكم ، بقبح الجناية عليهم ، فهذا باب يسقط البتة ، ويختل به الكتاب لا محالة ، وهو اكثرها بابا ، واعجبها منك موقعا .

واحاديث اخر ليس لها شهرة ولو شهرت لما كان فيها دليل على اربابها ، ولا هي مفيدة اصحابها ومعادنها واللائقين بها ، وفي قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها سقوط نصف الملحة ، وذهاب شطر النادرة .

ولو ان رجلا الزق نادرة بأبي الحارث جمين ، والهيثم بن مطهر وبمزيد وابن الاحمر ، ثم كانت باردة ، لجرت على احسن ما يكون ، ولو ولد نادرة حارة في نفسها ، مليحة في معناها ، ثم اضافها الى صالح بن حنين والى ابن النواء ، والى بعض البغضاء ، لعادة باردة ، ولصارت فاترة ، فان الفاتر شر من البارد .

وكما انك لو ولدت كلاما في الزهد : وموعظة للناس ، ثم قلت : هذا من كلام بكر بن عبدالله المزني ، وعامر بن عبد قيس العنبري ، ومورق العجلي ، ويزيد الرقاشي ، لتضاعف حسنه ، ولأحدث له ذلك النبْب نضار ورفعة لم تكن له . ولو قلت : قالها ابو كعب الصوفي ، او عبد المؤمن ، او ابو نواس الشاعر ، او حسين الخليع ، لما كان لها الا مالها في نفسها ، وبالحري ان تغلط في مقدارها ، فتبخس من حقها .

وقد كتبنا لك احاديث كثيرة مضافة الى اربابها ، واحاديث كثيرة غير مضافة الى اربابها ، اما بالخوف منهم ، واما بالاكرام لهم ، ولولا انك سألتني هذا الكتاب لما تكلفته ، ولما وضعت كلامي موضع الضيم والنقمة ، فان كانت لائمة او عجز فعليك ، وان كان عذر فلي دونك .



رسالة سهل بن هارون ابي محمد بن راهيون الى بني عمه من آل راهيون حين ذموا مذهبه في البخل وتتبعوا كلامه في الكتب .

بسم الله الرحمن الرحيم

اصلح الله امركم ، وجمع شملكم وعلمكم الخير ، وجعلكم من اهله . قال الاحنف بن قيس : يا معشر بني تميم لا تسرعوا الى الفتنة ، فان اسرع الناس الى القتال ، اقلهم حياء من الفرار ، وقد كانوا يقولون : اذا اردت ان ترى العيوب جمة ، فتأمل عيابا . فانه انما يعيب بفضل ما فيه من العيب . واول العيب ان تعيب ما ليس بعيب ، وقبيح ان تنهي عن مرشد او تغري بمشفق . وما اردنا بما قلنا الا هدايتكم وتقويمكم ، والا اصلاح فسادكم ، وابقاء النعمة عليكم ، ولئن اخطأنا سبيل ارشادكم ، فما اخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم .

ثم قد تعلمون انا ما اوصيناكم الا بما قد اخترناه لانفسنا قبلكم ، وشهرنا به في الآفاق دونكم ، فما كان احقكم في تقديم حرمتنا بكم ، ان ترعوا حق قصدنا بذلك اليكم ، وتنبيهنا على ما اغفلنا من واجب حقكم ! فلا العذر المبسوط بلغتم ، ولا بواجب الحرمة قمتم ، ولو كان ذكر العيوب برا وفضلا، لرأينا ان في انفسنا عن ذلك شغلا . وان من اعظم الشقوة ، وابعد من السعادة ، الا يزال تتذكر زلل المعلمين ، ويتناسى سوء استماع المتعلمين ويستعظم غلط العادلين ، ولا يحفل بتعمد المعذولين .

عبتموني بقولي لخادمي : اجيدي عجنه خميرا ، كما اجدته فطيرا ، ليكون اطيب لطعمه ، وازيد في ريعه ، وقد قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ورحمه ، لاهله (املكوا المجين فانه اريع الطحنين) وعبتم علي قولي : من لم يعرف مواقف السرف في الموجود الرخيص ، لم يعرف مواقع

الاقتصاد في الممتنع الغالي ، فلقد اتيت من ماء الوضوء بكيلة يدل حجمها على مبلغ الكفاية ، واشف من الكفاية ، فلما صرت الى تفريق اجزائه على الاعضاء ، والى التوفير عليها من وظيفة الماء ، وجدت في الاعضاء فضلا عن الماء ، فعلمت ان لو كنت مكنت الاقتصاد في أوائله ، لكان نصيب العضو الاول كنصيب الاخر . فعبتموني بذلك ، وشنعتموه بجهدكم ، وقبحتموه . وقال الحسن عند ذكر السرف ، انه ليكون في الماعونين الماء والكلام. فلم يرض بذلك الماء حتى اردفه بالكلاء .

وعبتموني حين ختمت على سد عظيم ، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة ، ومن رطبة غريبة على عبد نهم ، وصبي جشع ، وامة لكعاء ، وزوجة خرقاء ، وليس من اصل الادب ، ولا في ترتيب الحكم ، ولا في عادات القادة ، ولا في تدبير السادة ، ان يستوى في نفيس المأكول وغريب المشروب ، وثمين الملبوس ، وخطير المركوب ، والناعم من كل فن ، واللباب من كل شكل التابع ، والمتبوع والسيد والمسود ، كما لا تستوي مواضعهم في المجالس ، ومواقع اسمائهم في العنوانات ، وما يستقبلون به من التحيات ، وكيف هم لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر، ولا يكترثون له اكتراث العارف. من شاء اطعم كلبه الدجاج المسمن ، واعلف حماره السمسم المقشر .

فعبتموني بالختم ، وقد ختم بعض الائمة على مزود سويق ، وختم على كيس فارغ ، وقال طينة خير من طينة فأمسكتم عن ختم على لا شيء وعبتم من ختم على شيء .

وعبتموني حين قلت للغلام اذا زدت في المرق فزد في الانضاج ، لتجمع بين التأدم في اللحم ، والمرق ، ولتجمع مع الارتفاق بالمرق الطيب وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « اذا طبختم لحما فزيدوا في الماء ، فان لم يصب احدكم لحما اصاب مرقا » .

وعبتموني بخصف النعال ، وتصدير القميص ، وحين زعمت ان المخصوفة ابقى واوطأ واوقى ، وانفى للكبر ، واشبه بالنسك وان الترقيع من الحزم وان الاجتماع من الحفظ ، وان النفرق مع التضييع ، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويلطع اصبعه ويقول : لو اتيت بذراع لاكلت ولو دعيت الى كراع لاجبت ولقد لفقت سعدى بنت عوف ازار طلحة ، وهو جواد قريش ، وهو طلحة الفياض ، وكان في ثوب عمر رقاع ادم وقال من لم يستحي من الخلال خفت مؤنته وقل كبره ، وقالوا : لا جديد لمن لا يلبس الخلق .

وبعث زياد رجلا يرتاد له محدثا ، واشترط على الرائد ان يكون عاقلا مسددا ، فأتاه به موافقا فقال : اكنت ذا معرفة به ، قال : لا ولا رايته قبل

ساعته . قال : ابادلته الكلام وفاتحته الامور قبل ان توصله الي ؟ قال : لا قال : فلم اخترته على جميع من رايته ؟ قال : يومنا يوم قائظ ، ولم ازل اتعرف عقول الناس بطعامهم ولباسهم في مثل هذا اليوم. ورايت ثياب الناس جددا وثيابه لبسا فظننت به الحزم .

وقد علمنا ان الجدد في موضعه دون الخلق وقد جعل الله عز وجل لكل شيء قدرا ، وبوا له موضعا ، كما جعل لكل دهر رجالا ولكل مقام مقالا، وقد احيا بالسم وامات بالغذاء ، واغص بالماء وقتل بالدواء ، فترقيع الثوب يجمع مع الاصلاح التواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الاسراف التكبر ، وقد زعموا ان الاصلاح احد الكسبين ، كما زعموا ان قلة العيال احد اليسارتين ، وقد جبر الاحنف يد عنز ، وامر بذلك النعمان وقال عمر : من اكل بيضة فقد اكل دجاجة ، وقال رجل لبعض السادة اهدي اليك دجاجة ؟ فقال ان كان لا بد فاجعلها بياضة ، وعد ابو الدرداء العراق جزر البهيمة .

وعبتموني حين قلت : لا يغترن احد بطول عمره ، وتقوس ظهره ، ورقة عظمه ، ووهن قوته ، ان يرى اكرومته ، ولا يحرجه ذلك الى اخراج ماله من يديه ، وتحويله الى ملك غيره ، والى تحكيم السرف فيه ، وتسليط الشهوات عليه ، فلعله ان يكون معمرا وهو لا يدري ، وممدودا له في السن وهو لا يشعر ، ولعله ان يرزق الولد على الياس ، او يحدث عليه بعض مخبيات الدهر ، مما لا يخطر على البال ، ولا تدركه العقول ، فيسترد ممن لا يرده ويظهر الشكوى الى من يرحمه ، لضعف ما كان عن الطلب ، واقبح ما يكون به الكسب ، فعبتموني بذلك . وقد قال عمر بن العاص : « اعمل لدنياك عمل من يعيش ابدا ، واعمل لآخرتك عمل من يموت غدا » .

وعبتموني حين زعمت ان التبذير الى مال القمار ، ومال الميراث ، والى مال الالتقاط ، وحباء الملوك اسرع ، وان الحفظ الى المال المكتسب ، والغنى المجتلب ، والى ما يعرض فيه لذهاب الدين واهتضام العرض ، ونصب البدن ، واهتمام القلب اسرع ، وان من لم يحسب ذهاب نفقته ، لم يحسب دخله ، ومن لم يحسب الدخل فقد اضاع الاصل ، وان لم يعرف للغنى قدر ؟ فقد اذن بالفقر ، وطاب نفسا بالذل .

وزعمت ان كسب الحلال مضمن بالانفاق في الحلال ، وان الخبث ينزع الى الخبيث ، وان الطيب يدعو الى الطيب ، وان الانفاق في الهوى حجاب دون الحقوق ، وان الانفاق في الحقوق حجاز دون الهوى ، فعبتم علي هذا القول ، وقد قال معاوية : لم ار تبذيرا قط ، الا والى جانبه حق مضيع ، وقد قال الحسن : « اذا اردتم ان تعرفوا من اين اصاب ماله ، فانظروا في اي شيء ينفقه ، فان الخبيث ينفق في السرف » .

وقلت لكم عند اشفاقي عليكم : ان للغنى سكرا ، وان للمال لنزوة ، ولما يجب في جواركم ، وفي ممالحتكم وملابستكم : انتم في دار الآفات ، والحوائج غير مأمونات . فان احاطت بمال احدكم آفة لم يرجع الى بقية ، فاحرزوا النعمة باختلاف الامكنة ، فان البلية لا تجري في الجميع ، الا مع موت الجميع . وقد قال عمر رضي الله عنه في العبد والامة ، وفي ملك الشاة والبعير ، وفي الشيء الحقير اليسير ، « افرقوا بين المنايا » . وقال ابن سيرين لبعض البحريين : كيف تصنعون بأموالكم ، قال : نفرقها . السفن ، فان عطب بعض سلم بعض ، ولولا ان السلامة اكثر ، لما حملنا خزائننا في البحر . قال ابن سيرين : تحسبها خرقاء ، وهي صناع .

وقلت لكم عند اشفاقي عليكم . ان للغنى سكرا ، وان للعمال لنزودة ، فمن لم يحفظ الغنى من سكر الغنى ، فقد اضاعه ، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر ، فقد اهمله ، فعبتموني بذلك . وقال زيد بن جبلة : ليس احد افقر من غني امن الفقر . وسكر الغنى اشد من سكر الخمر ، وقلتم : قد لزم الحث على الحقوق ، والتزهيد في الفضول ، حتى صار يستعمل ذلك في اشعاره بعد رسائله ، وفي خطبه بعد سائر كلامه ، فمن ذلك قوله في يحيي بن خالد :

عدو تلاد المال فيما ينوبه منوع اذا ما منعه كان احزما

ومن ذلك قوله في محمد بن زياد :

وخليقتان تقى وفضل تحرم واهانة في حقه للمال

وعبتموني حين زعمت اني اقدم المال على العلم ، لان المال به يغاث العالم ، وبه تقوم النفوس قبل ان تعرف فضيلة العلم ، وان الاصل احق بالتفضيل من الفرع ، واني قلت : وان كنا نستبين الامور بالنفوس ، فانا بالكفاية نستبين وبالخلة نعمى .

وقلتم : كيف تقول هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء ، ومقدم الادباء ، العلماء افضل ام الاغنياء ؟ قال : بل العلماء ، قيل : فما بال العلماء يأتون ابواب الاغنياء بفضل العلم ؟ فقلت : حالهما هي القاضية بينهما ، وكيف يستوي شيء ترى حاجة الجميع اليه ، وشيء يغني بعضهم فيه عن بعض ؟

وعبتموني حين قلت : ان فضل الغني على القوت ، انما هو كفضل الآلة تكون في الدار ، ان احتيج اليها استعملت ، وان استغني عنها كانت عدة . وقد قال الحضين بن المنذر : وددت ان لي مثل احد ذهبا لا انتفع منه بشيء . قيل : فما ينفعك من ذلك ؟ قال لكثرة من يخدمني عليه ، وقال ايضا : عليك بطلب الغنى ، فلو لم يكن لك فيه الا انه عز في قلبك ، وشبهة في قلب غيرك ، لكان الحظ فيه جسيما ، والنفع فيه عظيما .

ولسنا ندع سيرة الانبياء ، وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لاصحاب الاهواء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الاغنياء باتخاذ الغنم ، والفقراء باتخاذ الدجاج ، وقال : (درهمك لمعاشك ودينك لمعادك) .

فقسموا الامور كلها على الدين والدنيا . ثم جعلوا احد قسمي الجميع الدرهم وقال ابو بكر الصديق ، رضي الله عنه : اني لابغض اهل البيت ينفقون رزق الايام في اليوم ، وكانوا يبغضون اهل البيت اللحمين .

وكان هشام يقول : ضع الدرهم على الدرهم يكون مالا . ونهي ابو الاسود الدئلي وكان حكيما اديبا ، داهيا اربا ، عن وجودكم هذا المولد كرمكم هذا المستحدث ، فقال لابنه : اذا بسط الله لك في الرزق فأبسط ، واذا قبض فاقبض . لا تجاود الله ، فان الله اجود منك . وقال : درهم من حل يخرج في حق ، خير من عشرة آلاف قبضا .

وتلقط عرندا بن بريم فقال : تضيعون مثل هذا وهو قوت امريء مسلم يوما الى الليل ! وتلقط ابو الدرداء حبات حنطة ، فنهاه بعض المسرفين فقال : ليهن ابن العبسية !! ان مرفقة المرء رفقه في معيشته ، فلستم علي تردون ولا رايي تفندون فقدموا النظر قبل العزم ، وتذكروا ما عليكم ، قبل ان تذكروا ما لكم والسلام .

نبدا بأهل خراسان لاكثار الناس في اهل خراسان ، ونخص بذلك اهل مرو ، بقدر ما خصوا به .

قال اصحابنا : يقول المروزي للزائر اذا اتاه، وللجليس اذا طال جلوسه تغديت اليوم ؟ فان قال : نعم : قال لولا انك تغديت لغديتك بغداء طيب ، وان قال : لا ، قال لو كنت تغديت لسقيتك خمسة اقداح ، فلا يصير في يده على الوجهين قليل ولا كثير .

وكنت في منزل ابن ابي كريمة ، واصله من مرو فرآني اتوضأ من كوز خزف ، فقال : سبحان الله تتوضأ بالعذب البئر لك معرضة ! قلت : ليس بعذب ، انما هو من ماء البئر ، قال : فتفسد علينا كوزنا بالملوحة ! فلم ادر كيف اتخلص منه !

وحدثني عمرو بن نهيوي ، قال : تغديت يوما عند الكندي . فدخل عليه رجل كان له جارا ، وكان له صديقا فلم يعرض عليه الطعام ونحن نأكل . وكان من ابخل خلق الله ، قال : فاستحييت منه فقلت : سبحان الله لو دنوت فأصبحت معنا مما نأكل ! فقال : والله فعلت فقال الكندي : ما بعد الله شيء ! قال عمرو : فكتفه والله كتفا لا يستطيع معه قبضا ولا بسطا ، وتركه . ولو مد يده لكان كافرا ، او لكان قد جعل مع الله جل ذكره شيئا ! وليس هذا الحديث لاهل مرو ، ولكنه من شكل الحديث الاول .

وقال ثمامة لم ار الديك في بلدة قط الا وهو لاقط ، يأخذ الحبة بمنقاره ثم يلفظها قدام الدجاجة الا ديكة مرو ، فاني رايت ديكة مرو ، تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب ! قال : فعلمت ان بخلهم شيء في طبع البلاد ، وفي جواهر الماء ، فمن ثم عم جميع حيوانهم .

فحدثت بهذا الحديث احمد بن رشيد، فقال : كنت عند شيخ من اهل مرو وصبي له صغير يلعب بين يديه ، فقلت ، له اما عابثا ، واما ممتحنا : اطعمني من خبزكم ، قال : لا تريده هو مر ! فاسقني من مائكم ، قال : لا تريده هو مالح ! قلت : هات من كذا وكذا . قال : لا تريده هو كذا وكذا ، الى ان عدد اصنافا كثيرة . كل ذلك يمنعه ويبغضه الي ! فضحك ابوه وقال : ما ذنبنا هذا من علمه ما تسمع ! يعني ان البخل طبع فيهم ، وفي اعراقهم وطينتهم .

وزعم اصحابنا ان خراسانية ترافقوا في منزل ، وصبروا عن الارتفاق بالمصباح ، ما امكن الصبر ، ثم انهم تناهدوا وتخارجوا . وابى واحد منهم ان يعينهم ، وان يدخل في الغرم معهم . فكانوا اذا جاء المصباح شدوا عينيه بمنديل ! ولا يزالون كذلك الى ان يناموا ويطفئوا المصباح ، فاذا اطفئوا اطلقوا عينيه .

ورايت انا حمار منهم ، زهاء خمسين رجلا يتغذون على مباقل : بحضرة قرية الاعراب ، في طريق الكوفة ، وهم حجاج ، فلم من جميع الخمسين رجلين يأكلان معا ، وهم في ذلك متقاربون ، يحدث بعضهم بعضا ، وهذا الذي رأيته منهم من غريب ما يتفق للناس .

حدثني مويس بن عمران قال : قال رجل منهم لصاحبه، وكانا متزاملين واما مترافقين : لم لا نتطاعم ، فان يد الله مع الجماعة ، وفي الاجتماع البركة . وما زالوا يقولون : طعام الاثنين يكفي لثلاثة ، وطعام الثلاثة يكفي الاربعة ، فقال له صاحبه : لولا اعلم انك آكل مني ، لادخلت لك هذا الكلام في باب النصيحة .

وقال خاقان بن صبيح دخلت على رجل من اهل خراسان ليلا ، ومعي رغيف : ولولا انك تريد اكثر ، ما كان حرصك على مؤاكلتي ! تريد الحديث والمؤانسة ؟ اجعل الطبق واحدا ويكون رغيف كل منا قلم صاحبه . وما اشك انك اذا اكلت رغيفك ونصف رغيفي ستجده مباركا ! انما كان ينبغي ان اكون اجده انا ، لا انت .

وقال خاقان بن صبيح دخلت على رجل من اهل خراسان ليلا ، واذا هو قد اتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الدقة ، واذا قد القى في لاهن المسرجة شيئا من ملح ، وقد علق على عمود المنارة عودا بخيط ، وقد حز فيه ، حتى

صار مكان الرباط ، فكان المصباح اذا كان ينطفي ، اشخص راس الفتيلة بذلك ، قال له : ما بال العود مربوطا ؟ قال : هذا عود قد تشرب الدهن ، فان ضاع ولم يحفظ احتجنا الى واحد عطشان ، فاذا كان هذا دابنا ودابه ، ضاع من دهننا في الشهر ، بقدر كفاية ليلة !

قال : فبينا انا اتعجب في نفسي ، واسأل الله ــ جل ذكره ــ العافية والستر ، اذ دخل شيخ من اهل مرو ، فنظر الى العود فقال : يابا فلان فررت من شيء ووقعت في شبيه به ، اما تعلم ان الريح والشمس تأخذان من سائر الاشياء ؟ او ليس قد كان البارحة عند اطفاء لسراج روي ، وهو اسراجك الليلة اعطش ؟ فقد كنت انا جاهلا مثلك ، حتى وفقني الله الى ما هو ارشد اربط عافاك الله بدل العود ابرة او مسلة صغيرة ، وعلى ان العود والخلال والقصبة ، وربما تعلقت بها الشعرة من قطن الفتيلة اذ سويناها بها ، فتشخص معها ، وربما كان ذلك سببا لانطفاء السراج ، والحديد املس ، وهو مع ذلك غير نشاف .

قال خاقان : في تلك الليلة عرفت فضل اهل خراسان على سائر الناس ، وفضل اهل مرو على سائر اهل خراسان !

قال مثنى بن بشير ، دخل ابو عبدالله المروزي ، على شيخ من اهل خراسان ، واذ هو قد استصبح في مسرجة خزف من هذه الخزفية الخضر ، فقال له الشيخ ، لا يجيء ، والله منك امر صالح ابدا ! عاتبتك في مسارج الحجارة فأعتبتني بالخزف ، او ما علمت ان الخزف والحجارة يحسوان الدهن حسوا ؟ قال : جعلت فداك دفعتها الى صديق لي دهان ، فالقاها في المصفاة شهرا ، حتى رويت من الدهن ريا لا تحتاج معه ابدا الى شيء ، قال : ليس هذا اريد هذا دواؤه يسير ، وقد وقعت عليه ولكن ما علمت ان موضع النار من المسرجة في طرف الفتيلة لا ينفك من احراق النار ، وتجفيفه وتنشيف ما فيه ؟ ومتى ابتل بالدهن وتسقاه ، عادت النار عليه فأكلته . هذا دابهما ، فلو قست ما يشرب ذلك المكان من الدهن ، بما يستمده طرف الفتيلة منه ، لعلمت ان ذلك اكثر .

وبعد هذا فان ذلك الموضع من الفتيلة والمسرجة لا يزال سائلا جاريا ، ويقال انك متى وضعت مسرجة فيها مصباح ، واخرى لا مصباح فيها ، لم تلبث الا ليلة او ليلتين حتى ترى السفلى ملآنة دهنا ، واعتبر ذلك بالملح الذي يوضع تحت المسرجة والنخالة التي توضع هناك لتسويتها وتصويبها ، فكيف تجدهما ينعصران دهنا . وهذا كله خسران وغبن ، لا يتهاون به الا اصحاب الفساد . على ان المفسدين ، انما يطعمون الناس ، ويسقون الناس ، وهم على حال لا يستخلفون شيئا ، وان كانت روثا ، وانت تطعم

النار وتسقي النار ، ومن اطعم النار جعله الله يوم القيامة طعاما للنار .

قال الشيخ : فكيف اصنع جعلت فداك ! قال : تتخذ قنديلا ، فان الزجاج احفظ من غيره ، والزجاج لا يعرف الرشح ولا النشف ، ولا يقبل الاوساخ التي لا تزول الا بالدلك الشديد ، او باحراق النار . وايهما كان فانه يعيد المسرجة الى العطش الاول ، والزجاج ابقى على الماء والتراب من الذهب الابريز ، وهو مع ذلك مصنوع ، والذهب مخلوق ، فان فضلت الذهب بالصلابة ، فضلت الزجاج بالصفاء .

والزجاج مجل والذهب ستار ، ولان الفتيلة انما تكون في وسطه ، فلا تحمي جوانبه بوهج المصباح ، كما يحمي بموضع النار من المسرجة ، واذا وقع شعاع النار على جوهر الزجاج ، صار المصباح والقنديل مصباحا واحدا ، ورد الضياء كل واحد منهما على صاحبه .

واعتبر ذلك ، بالشعاع الذي يسقط على وجه المرآة ، او على وجه الماء او على الزجاجة ، ثم انظر كيف يتضاعف نوره وان كان سقوطه على عين انسان اغشاه ، وربما اعماه .

وقال جل ذكره (الله نور السموات والارض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كانها كوكب درى ، يوخذ من شجرة مباركة زيتونة ، لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء) والزيت في الزجاجة نور على نور وضوء على ضوء مضاعف ، هذا مع فضل حسن القنديل على حسن مسارج الحجارة والخزف .

وابو عبدالله هذا كان من اطيب الخلق واملحهم بخلا ، واشدهم ادبا ، دخل على ذي اليمينين طاهر بن الحسين ، وقد كان يعرفه بخراسان بسبب الكلام . فقال له : منذ كم انت مقيم بالعراق يا أبا عبدالله ؟ فقال : انا بالعراق منذ عشرين سنة ، وانا اصوم الدهر منذ اربعين سنة . قال فضحك طاهر وقال : سألنا أبا عبدالله عن مسئلة واجبتنا عن مسئلتين .

ومن اعاجيب اهل مرو ما سمعناه من مشائخنا على وجه الدهر ، وذلك ان رجلا من اهل مرو كان لا يزال يحج ويتجر ، وينزل على رجل من أهل العراق ، فيكرمه ويكفيه مؤونته . ثم كان كثيرا ما يقول لذلك العراقي : ليت انى قد رايتك بمرو ، حتى اكافيك لقديم احسانك ، وما تجدد لي من البر في كل قدمة ، فاما ههنا فقد اغناك الله عني .

قال : فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل في حاجة في تلك الناحية ، فكان مما هون عليه مكابدة السفر ، ووحشة الاغتراب ، مكان المروزي هناك . فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره ، وفي عمامته وقلنسوته وكسائه ، ليحط

رجله عنده ، كما يصنع الرجل بثقته ، وموضع انسه ، فلما وجده قاعدا في اصحابه اكب عليه وعانقه فلم يره اثبته ، ولا سأل به سؤال من رآه قط ، قال في نفسه : لعل انكاره اياي لمكان القناع ، فرمى بقناعه وابتدا مسألته ، فكان له انكر ، فقال : لعله ان يكون انما اوتي من قبل العامة ، فنزعها . ثم انتسب وجدد مسألته ، فوجده اشد ما كان انكارا ، قال : فلعله انما اوتي من قبل القلنسوة ، وعلم المروزي ، انه لم يبقى شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل ، فقال لو خرجت من جلدك لم اعرفك !

وزعموا انهم ترافقوا وتزاملوا ، فتناهدوا وتلازقوا في شراء اللحم ، فاذا اشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ ، واخذ كل انسان منهم نصيبه فشكه بخوصة او بخيط ، ثم ارسله في خل القدر والتوابل ، فاذا طبخوا تناول كل انسان خيطه ، وقد علمه بعلامة ، ثم اقتسموا المرق ، ثم لا يزال احدهم يسل من الخيط القطعة بعد القطعة ، حتى يبقى الحبل لا شيء فيه ثم يجمعون خيوطهم ، فان اعادوا الملازقة اعادوا تلك الخيوط لانها قد تشربت الدسم ورويت .

وليس تناهدهم من طريق الرغبة في المشاركة ، ولكن لان بضاعة كل واحد منهم ، لا يبلغ مقدار الذي يحتمل ان يطبخ وحده ، ولان المؤونة تخف ايضا في الحطب والخل والثوم والتوابل ، ولان القدر الواحدة امكن من ان يقدر كل واحد منهم على قدر ، ويختارون السكباج لانه ابقى على الايام وابعد من الفساد .

حدثني ابو اسحاق ابراهيم بن السيار النظام ، قال : قلت مرة لجار كان لي من اهل خراسان ، اعرني مقلاكم ، فاني احتاج اليه ، قال : قد كان لنا مقلى ولكنه سرق ، فاستعرت من جار لي اخر ، فلم يلبث الخراساني ان سمع نشيش اللحم في المقلى ، وشم الطباهج ، فقال لي كالغضب : ما في الارض اعجب منك ، لو كنت خبرتني انك تريده للحم او لشحم ، لوجدتني اسرع ، انما خشيتك تريده للباقلي ، وحديد المقلى يحترق ، اذا كان الذي يقلى فيه ليس بدسم ، وكيف لا اعيرك اذا اردت الطباهج . والمقلي بعد الرد من الطباهج احسن حالا منه ، وهو في البيت .

وقال ابو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام ، دعانا جار لنا فاطعمنا تمرا وسمنا سلاء ، ونحن على خوان ليس عليه الا ما ذكرتم . والخراساني معنا يأكل فرأيته يقطر السمن على الخوان ، حتى اكثر من ذلك فقلت لرجل الى جنبي : ما لابي فلان يضع سمن القوم ، ويسيء المؤاكلة ، ويغرف فوق الحق ، قال : وما عرفت علته ؟ قلت لا والله ، قال : الخوان خوانه فهو يريد ان يدسمه ليكون كالدبغ له ولقد طلق امراته وهي ام اولاده ، لانه رآها غسلت خوانا له بماء حار ، فقال لها هل مسحته !؟

وقال ابو نواس : كان معنا في السفينة ونحن نريد بغداد ، رجل من اهل خراسان ، وكان من عقلائهم وفهمائهم ، وكان يأكل وحده ، فقلت له : لم تأكل وحدك ؟ قال ليس علي في هذا الموضع مسألة ، انما المسألة على من اكل من الجماعة ، لان ذلك هو التكلف ، واكلي وحدي هو الاصل . واكلي مع غيري زيادة في الاصل .

وحدثني ابراهيم بن السندي ، قال : كان على ربع الشاذروان شيخ لنا من اهل خراسان ، وكان مصحححا بعيدا من الفساد ومن الرشاء ، ومن الحكم بالهوى ، وكان حفيا جدا ، وكذلك كان في امساكه ، وفي بخله وتدنيقه في نفقاته وكان لا يأكل الا ما لا بد له منه ، ولا يشرب الا ما لا بد له منه .

غير انه كان في غداة كل جمعة يحمل معه منديلا فيه جرذقتان وقطع لحم سكباج مبرد ، وقطع جبن ، وزيتونات ، وصرة فيها ملح ، واخرى فيها اشنان ، واربع بيضات ليس منها بد ، ومعه خلال ، ويمضي وحده حتى يدخل بعض بساتين الكرخ ، ويطلب موضعا تحت شجرة وسط خضرة ، وعلى ماء جار ، فاذا وجد ذلك جلس وبسط بين يديه المنديل ، واكل من هذا مرة ومن هذا مرة ، فان وجد قيّم ذلك البستان ، رمى اليه بدرهم ، ثم قال : اشتر لي بهذا او اعطني بهذا رطبا ، ان كان في زمان الرطب ، او عنبا ان كان في زمان العنب ، ويقول له اياك اياك ان تحابيني ، ولكني تجود لي ، فانك ان فعلت لم آكله ولم اعد اليك ، واحذر الغبن ، فان المغبون لا محمود ولا مأجور .

. فان اتاه به أكل كل شيء معه ، وكل شيء اتى به ، ثم تخلل وغسل يديه ، ثم يمشي مقدار مائة خطوة ، ثم يضع جنبه فينام الى وقت الجمعة ، ثم ينتبه فيغتسل ويمضي الى المسجد ، هذا كان دابه كل جمعة .

قال ابراهيم : فبينما هو يوما من ايامه ، يأكل في بعض المواضع ، اذ مر به رجل فسلم عليه فرد السلام ، ثم قال : هلم عافاك الله ، فلما نظر الى الرجل قد انثنى راجعا يريد ان يطفر الجدول ، او يعدي النهر قال له : مكانك فان العجلة من عمل الشيطان فوقف الرجل ، فأقبل عليه الخراساني وقال : تريد ماذا ؟ قال : اريد ان اتغدى . قال : ولم ذلك ؟ وكيف طمعت في هذا ومن اباح لك مالي ، قال الرجل : اوليس قد دعوتني قال : ويلك ! لو ظننت انك هكذا احمق ما رددت عليك السلام . الآيين فيما نحن فيه ، ان تكون اذا كنت انا الجالس وانت المار ، تبدأ انت فتسلم ، فأقول انا حينئذ مجيبا لك : وعليكم السلام فان كنت لا آكل شيئا سكت انا ، وسكت انت ، ومضيت انت ، وقعدت انا على حالي !

وان كنت آكل فهاهنا بيان اخر : وهو ان ابدأ انا فأقول : هلم وتجيب

انت فتقول : هنيا فيكون كلام بكلام ، فأما كلام بفسال ، وقول بأكل ، فهذا ليس من الانصاف ، وهذا يخرج علينا فضلا كثيرا .

قال : فورد على الرجل شيء لم يكن في حسابه ، فشهر بذلك في تلك الناحية ، وقيل له قد اعفيناك من السلام ومن تكلف الرد ، قال : قال ما بي الى ذلك حاجة ، وانما هو ان اعفي انا بنفسي من سلم وقد استقام الامر.

ومثل هذا الحديث ما حدثني به محمد بن بشير، عن وال كان بفارس، اما ان يكون خالد اخو مهرويه او غيره ، قال :

بينما هو يوما في مجلس ، وهو مشغول بحسابه وامره ، وقد احتجب جهده ، اذ نجم شاعر من بين يديه ، فأنشده شعرا مدحه فيه ، وقرظه ومجده ، فلما فرغ قال : قد احسنت ثم اقبل كاتبه ، فقال اعطه عشرة الاف درهم ، ففرح الشاعر فرحا قد يستطار له ، فلما رأى حاله قال : واني لارى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع ، اجعلها عشرين الف درهم ، وكاد الشاعر يخرج من جلده فلما رأى فرحه قد تضاعف ، قال وان فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول ، اعطه يا فلان اربعين الفا فكاد الفرح يقتله ، فلما رجعت اليه نفسه ، قال له :

انت (جعلت فداك) رجل كريم ، وانا اعلم انك كلما رايتني قد ازددت فرحا ، زدتني في الجائزة ، وقبول هذا منك ، لا يكون الا من قلة الشكر له ، ثم دعا له وخرج .

قال فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله هذا كان يرضى منك بأربعين درهما ، تأمر له بأربعين الف درهم ! قال ويلك ! وتريد ان تعطيه شيئا ، قال : ومن انفاذ امرك بد ؟ قال أيا احمق انما هذا رجل سرنا بكلام وسررناه بكلام ، هو حين زعم اني احسن من القمر ، واشد من الاسد ، وان لساني اقطع من السيف ، وان امري انفذ من السنان ، جعل في يدي من هذا شيئا ؟ ارجع به الى شيء ، الستا نعلم انه قد كذب ؟ ولكنه قد سرنا حين كذب لنا ، فنحن ايضا نسره بالقول ، ونأمر له بالجوائز ، وان كان كذبا ، فيكون كذب بكذب وقول بقول ، فأما ان يكون كذب بصدق ، وقول بفعل فهذا هو الخسران الذي ما سمعت به !!

ويقال ان هذا المثل الذي قد جرى على السنة العوام من قولهم : ينظر الي شزرا ، كأني اكلت اثنين واطعمته واحدا ، انما هو لاهل مرو .

قال : وقلت لاحمد بن هشام ، وهو يبني داره ببغداد : اذا اراد الله ذهاب مال رجل جعله يرجو الخلف ! والله ما اهلك الناس ولا اقفر بيوتهم ولا ترك دورهم بلاقع الا الايمان بالخلف ! وما رايت جنة قط اوقى من اليأس !

قال : وسمع رجل من المراوزة الحسن وهو يحث الناس على المعروف، ويأمر بالصدقة ، ويقول : ما نقص مال قط من زكاة، ويعدهم سرعة الخلف، فتصدق بماله كله فافتقر ، فانتظر سنة وسنة فلما لم ير شيئا بكر على الحسن فقال : حسن ما صنعت بي ! ضمنت لي الخلف ، فأنفقت على عدتك وانا اليوم مذ كذا وكذا سنة انتظر ما وعدت لا ارى منه قليلا ولا كثيرا ، هذا يحل لك ؟ ان اللص كان يصنع بي اكثر من هذا ؟

والخلف يكون معجلا ومؤجلا ومن تصدق وتشرط الشروط استحق الحرمان ، ولو كان هذا على ما توهمه المروزي لكانت المحنة فيه ساقطة ، ولترك الناس التجارة ، ولما بقي فقير ، ولذهبت العبادة .

اصبح ثمامة شديد الغم حين احترقت داره ، وكان كلما دخل عليه انسان قال : الحريق سريع الخلف ! فلما كثر ذلك القول منهم قال : فلنستحرق الله ! اللهم اني استحرقك فأحرق كل شيء لنا ! وليس هذا الحديث من حديث المراوزة ، ولكنا ضمناه الى ما يشاكله .

قال سجادة وهو ابو سعيد سجادة : ان اناسا من المراوزة ، اذا لبسوا الخفاف في الستة اشهر التي لا ينزعون فيها خفافهم ، يمشون على صدور اقدامهم ثلاثة اشهر ، وعلى اعقاب ارجلهم ثلاثة اشهر حتى يكون كأنهم لم يلبسوا خفافهم الا ثلاثة اشهر ، مخافة ان تنجرد نعال خفافهم او تنقب !

وحكى ابو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام ، عن جاره المروزي ، انه كان لا يلبس خفا ولا نعلا ، الى ان يذهب النبق اليابس ، لكثرة النوى في الطريق والاسواق ، قال : ورآني مرة مصصت قصب سكر ، فجمعت ما مصصت ماءه ، لارمي به ، فقال : ان كنت لا تنور لك ولا عيال ، فهبه لمن له تنور ، وعليه عيال ، واياك ان تعود نفسك هذه العادة ، في أيام خفة ظهرك فانك لا تدري ما يأتيك من العيال !

قصة أهل البصرة من المسجديين

قال اصحابنا من المسجديين : اجتمع ناس في المسجد ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة ، والتنمية للمال ، من اصحاب الجمع والمنع ، وقد كان هذا المذهب ، صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب ، وكالحلف الذي يجمع على التناصر ، وكانوا اذا التقوا في حلقهم ، تذاكروا هذا الباب ، وتطارحوه وتدارسوه ، « التماسا للفائدة واستمتاعا بذكره » .

فقال شيخ منهم : ماء بئرنا « كما قد علمتم » ملح اجاج ، لا يقربه الحمار ، ولا تسيغه الابل ، وتموت عليه النخل ، والنهر منا بعيد ، وفي تكلف العذب علينا مؤنة فكنا نمزج منه للحمار فاغتسل معه وانتفض علينا من اجله ، فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفا ، وكنت انا والنعجة كثيرا ما نغتسل بالعذب ، مخافة ان يعتري جلودنا منه مثل ما اعترى جوف الحمار ، فكان ذلك الماء العذب الصافي ، يذهب باطلا !

ثم انفتح لي فيه باب من الاصلاح ، فعمدت ، الى ذلك المتوضأ ، فجعلت في ناحية منه حفرة وصهرجتها وملستها ، حتى صارت كأنها صخرة منقورة . وصوبت اليها المسيل ، فنحن الان اذا اغتسلنا صار الماء اليها صافيا ، لم يخالطه شيء ، والحمار ايضا لا تقزز له من ماء الجنابة وليس علينا حرج في سقيه مثله ، وما علمنا ان كتابا حرمه ولا سنة نهت عنه ، فربحنا هذه منذ ايام ، واسقطنا مؤنة على النفس والمال ، مال القوم وهذا بتوفيق الله ومنه .

فاقبل عليهم شيخ فقال : هل شعرتم بموت مريم الصناع ؟ فانها كانت من ذوات الاقتصاد ، وصاحبة اصلاح ، قالوا فحدثنا عنها . قال : نوادرها كثيرة وحديثها ويل ، ولكني اخبركم عن واحدة فيها كفاية . قالوا: وما هي ؟ قال : زوجت ابنتها وهي بنت اثني عشرة ، فحلتها الذهب والفضة ، وكستها المروي والوشي والقز والخز ، وعلقت المعصفر ، ودقت الطيب ، وعظمت امرها في عين الختن ، ورفعت من قدرها عند الاحماء .

فقال لها زوجها : انى هذا يا مريم ؟ قالت : هو من عند الله ، قال دعي عنك الجملة وهاتي التفسير ، والله ما كنت ذا مال قديما ، ولا ورثته حديثا ، وما انت بخائنة في نفسك ، ولا في مال بعلك ، الا ان تكوني قد وقعت على كنز ، وكيف قد وقعت على كنز ؟ وكيف دار الامر ، فقد اسقطت عني مؤنة ، وكفيتني هذه النائبة .

قال : اعلم اني منذ يوم ولدتها ، الى ان زوجتها ، كنت ارفع من دقيق كل عجنة حفنة ، وكنا كما قد علمت ، نخبز في كل يوم مرة ، فاذا اجتمع من ذلك مكوك بعته ، قال زوجها : ثبت الله رايك ، وارشدك ولقد اسعد الله من كنت له سكنا ، وبارك لمن جعلت له الفا ! ولهذا وشبهه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من « الذود الى الذود ابل » واني لارجو ان يخرج ولدك ، على عرقك الصالح وعلى مذهبك المحمود .

وما فرحي بهذا منك بأشد من فرحي بما يثبت الله بك في عقبي من هذه الطريقة المرضية . فنهض القوم بأجمعهم الى جنازتها ، وصلوا عليها ، ثم انكفأوا الى زوجها فعزوه على مصيبته وشاركوه في حزنه .

ثم اندفع شيخ منهم فقال : يا قوم لا تحقروا صغار الامور ، فان اول كل كبير صغير ، ومتى شاء الله ان يعظم صغيرا عظمه ، وان يكثر قليلا كثره ، وهل بيوت الاموال الا درهم الى درهم ؟ وهل الذهب الا قيراط الى جنب قيراط ، او ليس كذلك رمل عالج ، وماء البحر ، وهل اجتمعت اموال بيوت الاموال ، الا بدرهم من ههنا ودرهم من ههنا .

فقد رايت صاحب سقط قد اعتقد مائة جريب في ارض العرب ولربما رايته يبيع الفلفل بقيراط ، والحمص بقيراط ، فأعلم انه لا يربح في ذلك الفلفل الا الحبة والحبتين من خشب الفلفل ، فلم يزل يجمع من الصغار الكبار ، حتى اجتمع ما اشترى به مائة جريب .

ثم قال : اشتكيت اياما صدري من سعال كان اصابني ، فأمرني قوم بالفانيذ السكري واشار علي اخرون ، بالحريرة تتخذ من الشاهنج والسكر ودهن اللوز ، واشباه ذلك فاستثقلت المؤنة ، وكرهت الكلفة ، ورجوت العافية ، فبينما انا ادافع الايام اذ قال لي بعض الموفقين : عليك بماء النخالة ، فأحسه حارا ، فحسوت . فاذا هو طيب جدا ، واذا هو يعصم ، فما جعت ولا اشتهيت الغداء في ذلك اليوم الى الظهر ، ثم ما فرغت من غدائي وغسل يدي ، حتى قاربت العصر . فلما قرب وقت غدائي من وقت عشائي ، طويت العشاء وعرفت قصدي .

فقلت للعجوز : لم لا تطبخين لعيالنا كل غداة نخالة فان ماءها جلاء للصدر ، وقوتها غذاء وعصمة ، ثم تجففين بعد النخالة ، فتعود كما كانت .

فتبيعين اذا الجميع بمثل الثمن الاول ، ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين . قالت : ارجو ان يكون الله قد جمع بهذا السعال مصالح كثيرة لما فتح الله لك بهذه النخالة التي فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك ، وما اشك ان تلك المشورة ، كانت من التوفيق .

قال القوم صدقت مثل هذا لا يكتسب بالراي ، ولا يكون الا سماويا ، ثم اقبل عليهم شيخ فقال : كنا نلقي من الحراق والقداحة جهدا ، لان الحجارة كانت اذا انكسرت حروفها ، واستدارت ، كلت ، ولم تقدح قدح خير ، واصلدت فلم تور وربما اعجلنا المطر والوكف ، وقد كان الحجر ايضا ياخذ من حروف القداحة ، حتى يدعها كالقوس ، فكنت اشتري المرقشيتا بالغلاء ، والقداحة الغليظة بالثمن الموجع .

وكان علينا ايضا في صنعة الحراق ، وفي معالجة القطنة مؤنة ، وله ريح كريهة ، والحراق لا يجيء من الخرق المصبوغة ، ولا من الخرق الوسخة ، ولا من الكتان ، ولا من الخلقان فكنا نشتريه بأغلى الثمن ، فتذاكرنا منذ ايام ، اهل البدو والاعراب ، وقدحهم النار بالمرخ والعفار . فزعم لنا صديقنا الثوري ، وهو ما علمت ، احد المرشدين ان عراجين الاعذاق ، تنوب عن ذلك اجمع ، وعلمني كيف تعالج ، ونحن نؤتي بها من ارضنا بلا كلفة ، فالخادم اليوم لا تقدح ولا توري ، الا بالعرجون .

قال القوم : قد مرت بنا اليوم فوائد كثيرة ، ولهذا قال الاول : « مذاكرة الرجال تلقح الالباب » ثم اندفع شيخ منهم ، فقال : لم ار في وضع الامور مواضعها ، وفي توفيتها غاية حقوقها ، كمعاذة العنبرية ، قالوا : وما شأن معاذة هذه ؟ قال : اهدى اليها العام ، ابن عم لها اضحية ، فرايتها كئيبة حزينة ، مفكرة مطرقة ، فقلت لها : مالك يا معاذة ؟ قالت : انا امراة ارملة وليس لي قيم ، ولا عهد لي بتدبير لحم الاضاحي ، وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ، ويقومون بحقه ، وقد خفت ان يضيع بعض هذه الشاة ، ولست اعرف وضع جميع اجزائها في اماكنها ، وقد علمت ان الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئا لا منفعة فيه ، ولكن المرء يعجز لا محالة ، ولست اخاف من تضييع القليل ، الا انه يجر تضييع الكثير .

اما القرن فالوجه فيه معروف ، وهو ان يجعل فيه كالخطاف ويسمر في جذع من جذوع السقف ، فيعلق عليه الزبل والكيزان ، وكل ما خيف عليه من الفار والنمل والسنانير ، وبنات وردان والحيات ، وغير ذلك . واما المصران فانه لاوتار المندفة وبنا الى ذلك اعظم الحاجة : واما قحف الراس واللحيان وسائر العظام ، فسبيله ان يكسر بعد أن يعرق ثم يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللادام ، وللعصيدة ، ولغير ذلك ، ثم تؤخذ

تلك العظام فيوقد بها ، فلم ير الناس وقودا قط اصفى ولا احسن لهبا منه ، واذا كانت كذلك فهي اسرع في القدر ، لقلة ما يخالطها من الدخان ، واما الاهاب فالجلد نفسه جراب ، وللصوف وجوه لا تدفع ، واما الفرث والبعر فحطب اذا جفف عجيب .

ثم قالت : بقي علينا الانتفاع بالدم ، وقد علمت ان الله عز وجل لم يحرم من الدم المسفوح ، الا اكله وشربه ، وان له مواضع يجوز فيها ولا يمنع منها ، وان انا لم اقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به ، صار كية في قلبي وقذى في عيني ، وهما لا يزال يعاودني ، فلم البث ان رايتها قد تطلقت وتبسمت ، فقلت : ينبغي ان يكون قد انفتح لك باب الراي في الدم ، قالت : اجل ذكرت ان عندي قدورا شامية جددا ، وقد زعموا انه ليس شيء ادبغ ولا ازيد في قوتها من التلطيخ بالدم انحار الدسم ، وقد استرحت الان اذ وقع كل شيء موقعه .

قال : ثم لقيتها بعد ستة اشهر فقلت لها : كيف كان قديد تلك الشاة؟ قالت : بأبي انت ، لم يجيء وقت القديد بعد ، لنا في الشحم والالية والجنوب والعظم المعرق وغير ذلك معاش ، ولكل شيء ابان .

فقبض صاحب الحمار والماء العذب قبضة من حصى ، ثم ضرب بها الارض ، ثم قال : لا تعلم انك من المسرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين .



قصة زبيدة بن حميد

واما زبيدة بن حميد الصيرفي فانه استلف من بقـال كان على بـاب داره درهمين وقيراطا ، فلما قضاه بعد ستة اشهر ، قضاه درهمين وثلاث حبات شعير ، فاغتاظ البقال فقال : سبحان الله انت رب مائة الف دينار، وانا بقال لا املك مائة فلس ، وانمـا اعيش بكدي ، وباستفضال الحبـة والحبتين ، صاح على بابك حمال والمال لم يحضرك،وغاب وكيلك، فنقدت عنك درهمين واربع شعيرات، فقضيتني بعد ستة اشهر درهمـين وثلاث شعيرات ؟ فقال زبيدة : يا مجنون اسلفتني في الصيف فقضيتك في الشتاء، وثلاث شعيرات شتوية ندية ، ارزن من اربع شعيرات يابسة صيفية ، وما اشك ان معك فضلا !

وحدثني ابو الاصبغ بن ربعي قال دخلت عليه بعد ان ضرب غلمانـه بيوم ، فقلت له : ما هذا الضرب المبرح ؟ وهذا الخلق السيء ، هؤلاء غلمان، ولهم حرمة وكفاية وتربية ، وانما هم ولد : هؤلاء كانوا الى غير هذا احوج ، قال : انك لست تدري انهم اكلوا كل جوارشن كان عندي ! قال ابو الاصبغ : فخرجت الى رئيس غلمانه فقلت : ويلك ما لك وللجوارشن ؟ وما رغبتـك فيه ؟ قال جعلت فداك ! ما اقدر ان اكلمك من الجوع ، الا وانا متكـىء ! الجوارشن ما اصنع به ؟ هو نفسـه ليس بشبع ، ولا نحتاج الىالجوارشن؟

واشتد على غلمانه في تصفية الماء وتبريده وتزميله لاصحابه وزواره ، فقال له غازي ابو مجاهد : جعلت فداك من بتزميل الخبز وتكثيره فـان الطعام قبل الشراب .

وقال مرة يا غلام هات خوان النرد وهو يريد تخت النرد ، فقال لـه غازي : نحن الى خوان الخبز احوج ..

وسكر زبيدة ليلة فكسى صديقا له قميصا ، فلما صار القميص على النديم خاف البدوات ، وعلم ان ذلك من هفوات السكر ، فمضى من ساعته الى منزله فجعله برشكانا لامرأته ، فلما اصبح سأل عن القميص وتفقده ،

فقيل له : انك قد كسوته فلانا ! فبعث اليه ثم اقبل عليه فقال : اما علمت ان هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز ؟

وبعد فاني اكره ان لا يكون لي حمد ، وان يوجه الناس هذا مني على السكر ، فرده علي حتى اهبه لك صاحيا ، عن طيب نفس ، فأني اكره ان يذهب شيء من بالي باطلا .

فلما رآه قد صمم ، اقبل عليه فقال : يا هناه ان الناس يمزحـون ويلعبون ولا يؤاخذون بشيء من ذلك ، فرد القميص عافاك الله ، قال لـه الرجل : اني والله قد خفت هذا بعينه ، فلم اضع جنبي الى الارض حتى جيبته لامراتي ، وقد زدت في الكمين وحذفت المقاديم ، فان اردت بعد هذا كله ان تأخذه فخذه ، فقال نعم آخذه لانه يصلح لامراتي كما يصلح لامراتك، قال : فانه عند الصباغ ، فهاته قال : ليس انا اسلمته اليه .

فلما علم انه قد وقع قال : بأبي وامي صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول : (جمع الشر كله في بيت واغلق عليه فكان مفتاحه السكر) .



قصة ليلى الناعطية

واما ليلى الناعطية ، صاحبة الغالية من الشيعة ، فانها ما زالت ترقع قميصا لها وتلبسه حتى صار القميص الرقاع ، وذهب القميص الاول ، ورفت كساءها ولبسته ، حتى صارت لا تلبس الا الرفو ، وذهب جميع الكساء وسمعت قول الشاعر :

البس قميصك ما اهتديت لجيبه فاذا اضلك جيبه فاستبدل

فقالت : اني اذا لخرقاء ، انا والله احوص الفتق ، وفتق الفتق ، وارقع الخرق وخرق الخرق .

ومضيت انا وابو اسحق النظام ، وعمرو بن نهيوي نريد الحديث في الجفاف ولنتناظر في شيء من الكلام ، فمررنا بمجلس وليد القرشي ، وكان على طريقنا ، فلما رآنا تمشي معنا ، فلما جاوزنا الخندق ، وجلسنا في فناء حائطه ، وله ظل شديد السواد، بارد ناعم ، وذلك لثخن الساتر واكتناز الاجزاء ، ولبعد مسقط الشمس من اصل حائطه ، فطال بنا الحديث فجرينا في ضروب من الكلام ، فما شعرنا الا والنهار قد انتصف ، ونحن في يوم قائظ . .

فلما صرنا في الرجوع ، ووجدت مس الشمس ووقعها على الراس ، ايقنت بالبرسام ، فقلت لابي اسحاق . والوليد الى جنبي يسمع كلامي ، الباطنة منا بعيدة ، وهذا يوم منكر ، ونحن في ساعة تذيب كل شيء، والراي ان نميل الى منزل الوليد فنقيل فيه ، ونأكل ما حضر ، فانه يوم تخفيف ، فاذا ابردنا تفرقنا ، والا فهو الموت ليس دونه شيء .

قال الوليد رافعا صوته : اما على هذا الوجه فلا يكون ، والله ابدا ، فضعه في سويداء قلبك ، فقلت له : ما هذا الوجه الذي انكرته علينا رحمك الله ، هل ههنا الا الحاجة والضرورة ، قال : انك اخرجته مخرج الهزء ، وقلت : وكيف إخرجه مخرج الهزء وحياتي في يدك مع معرفتي بك ؟ فغضب ونتر يده من ايدينا وفارقنا . ولا والله ما اعتذر الينا مما ركبنا به الى

الساعة ، ولم ار من يجعل الاسى حجة في المنع الا هو ، والا ما كان من ابي مازن الى جبل الغمر .

وكان جبل خرج ليلا من موضع كان فيه ، فخاف الطائف ولم يأمن المستقفى . فقال : لو دققت الباب على ابي مازن . فبت عنده في ادنى بيت ، او في دهليزه ، ولم الزمه من مؤنتي شيئا ، حتى اذا انصدع عمود الصبح ، خرجت في اوائل المدلجين . فدق عليه الباب دق واثق ودق مدل ودق من يخاف ان يدركه الطائف . او يقفوه المستقفي . وفي قلبه عز الكفاية والثقة باسقاط المؤنة .

فلم يشك ابو مازن انه دق صاحب هدية . فنزل سريعا . فلما فتح الباب وبصر بجبل بصر بملك الموت . فلما رآه جبل واجما لا يحير كلمة . قال له : اني خفت معرة الطائف . وعجلة المستقفي . فملت اليك لابيت عندك . فتساكن ابو مازن وأراه ان وجومه انما كان بسبب السكر . فخلع جواربه وخبل لسانه وقال : سكران والله انا سكران . قال له جبل : كن كيف شئت نحن في ايام الفصل . لا شتاء ولا صيف . ولست احتاج الى سطح . فأغم عيالك بالحر . ولست احتاج الى لحاف فاكلفك ان تؤثرني بالدثار . وانا كما ترى ثمل من الشراب . شبعان من الطعام ومن منزل فلان خرجت . وهو اخصب الناس دخلا . وانما اريد ان تدعني اغفى في دهليزك اغفاءة واحدة ثم اقوم في اوائل المبكرين .

قال ابو مازن وارخى عينيه . وفكيه ولسانه . ثم قال : سكران والله انا سكران لا والله ما اعقل اين انا . والله ان افهم ما تقول . ثم اغلق الباب في وجهه ودخل لا يشك ان عذره قد وضح . وانه قد الطف النظر . حتى وقع هذه الحيلة .

وان وجدتم في هذا الكتاب لحنا . او كلاما غير معرب . ولفظا مدلولا عن جهته . فأعلموا انما تركنا ذلك. لان الاعزاب يبغض هذا الباب. ويخرجه من حده . الا ان احكي كلاما متعاقلي البخلاء . واشحاء العلماء . كسهل بن هارون واشباهه .

ومن طياب البخلاء . احمد بن خلف اليزيدي .

ترك ابوه في منزله يوم مات الفي درهم . وستمائة الف درهم. واربعين ومائة الف دينار . فاقتسمها هو واخوه حاتم قبل دفنه . واخذ احمد وحده الف وثلاثمائة الف درهم وسبعين الف دينار ذهبا عينا . مثاقيل وازنة جيادا . سوى العروض فقلت له : وقد ورث هذا المال كله : ما ابطاك الليلة ؟ قال : لا والله اني تعشيت البارحة . في البيت ! فقلت لاصحابنا : لولا انه بعيد العهد بالاكل في بيته ، وان ذلك غريب منه ، لما احتاج الى هذا

الاستثناء . والى هذه الشريطة . واين يتعشى الناس الا في منازلهم . وانما يقول الرجل عند مثل هذه المسئلة : لا والله الا ان فلانا حبسني . ولا والله الا ان فلانا عزم علي . فاما ما يستثني ويشترط . فهذا ما لا يكون الا على ما ذكرناه قبل .

وقال لي مبتدئا مرة من غير مشورة . وغير سبب جرى : انظر ان تتخذ لعيالك في الشتاء من هذه المثلثة . فانها عظيمة مبركة كثيرة النزل. وهي تنوب عن الغداء ، ولها نفخة تغني عن العشاء ، وكل شيء من الاحساء فهو يغني عن طلب النبيذ ، وشرب الماء ، ومن تحسى الحار عرق ، والعرق يبيض الجلد ، ويخرج من الجوف وهي تملأ النفس وتمنع من التشهي ، وهي ايضا تدفيء فتقوم لك في اجوافهم مقام فحم الكانون ، من خارج ؛ وحسو طاريء يغني عن الوقود وعن لبس الحشو .

الوقود يسود كل شيء وييبسه ، وهو سريع في الهضم ، وصاحبه لم يدفئه شيء ، فعليك يا ابا عثمان بالمثلثة ! واعلم انها لا تكون الا في معرض الحريق ويذهب في ثمنه المال العظيم ، وشر شيء فيه ، ان من تعوده منازل المشيخة ، واصحاب التجربة فخذها من حكيم مجرب، ومن ناصح مشفق.

وكان لا يفارق منازل اخوانه ، واخوانه مخاصيب مناويب اصحاب نفح وترف ، وكانوا يتحفونه ويدللونه ويفكهونه ويحكمونه ، ولم يشكوا انه سيدعوهم مرة ، وان يجعلوا بيته نزهة ونشوة ، فلما طال تغافله وطالت مدافعته ، وعرضوا له بذلك فتغافل ، صرحوا له ، فلما امتنع قالوا : اجعلها دعوة ليس لها اخت .

فلما بلغ منه ومنهم المجهود ، اتخذ لهم طعيما خفيفا شهيا مليحا ، لا ثمن له ولا مؤونة فيه ، فلما اكلوا وغسلوا ايديهم ، اقبل عليهم فقال : اسئلكما بالله الذي لا شيء اعظم منه ، انا الساعة ايسر واغنى او قبل ان تأكلوا طعامي قالوا : ما نشك انك حين كنت والطعام في ملكك اغنى وايسر ، قال : فأنا الساعة اقرب الى الفقر ام تلك الساعة ، قالوا : بل انت الساعة اقرب الى الفقر ، قال : فمن يلومني على ترك دعوة قوم قربوني من الفقر ، وباعدوني من الغنى ، وكلما دعوتهم اكثر ، كنت من الفقر اقرب ، ومن الغنى ابعد .

وفي قياسه هذا ، ان من رايه ان يهجر كل من إستسقاه شربة ماء ، او تناول من حائط لبنة ، ومن خليط دابته عودا .

ومر بأصحاب الجداء وذلك في زمان التوليد ، فأطعمه الزمان في الرخص ، وتحركت شهوته على قدر امكانه عنده ، فبعث غلاما يقال له : ثقف وهو معروف ليشتري له جديا ، فوقف غير بعيد ؛ فلم يلبث ان رجع

الغلام يحصر ، وهو يشير بيده ، ويومي براسه ، ان اذهب ولا تقف ، فلم يبرح ، فلما دنا منه ، قال : ويلك تهزا بي كأني مطلوب ! قال : هذا اطرفه الجدي بعشرة ! آلنت . . من ذي البابة ؟ مر الان مر مر .

فاذا غلامه يرى ان من المنكر ، ان يشتري جديا بعشرة دراهم . والجدي بعشرة انما ينكر عندنا بالبصرة ، لكثرة الخير ورخص السعر ، فاما في العساكر فان انكره ذلك منكر ، فانما ينكره من طريق رخصه وقلة ثمنه ، لا لغير ذلك .

ولا تقولوا الان : قد والله اساء ابو عثمان الى صديقه ، بل ما تناوله بالسوء حتى بدا بنفسه ، ومن كانت هذه صفته ، وهذا مذهبه، فغير مأمون على جليسه واي الرجال المهذب ؟ هذا والله الشيوع والنبوع ، والبذاء وقلة الوفاء .

واعلموا اني لم التمس بهذه الاحاديث عنه ، الا موافقته ، وطلب رضاه ومحبته ولقد خفت ان اكون عند كثير من الناس دسيسا من قبله ، وكمينا من كمنائه ، وذلك ان احب الاصحاب اليه ، ابلغهم قولا في أيأس الناس من قبله ، واجودهم حسما لاسباب الطمع في ماله .

على اني احسنت بجهدي ، فسيجعل شكري موقوفا ، وان جاوز كتابي هذا حدود العراق شكر ، والا امسك ، لان شهرته بالقبيح عند نفسه في هذا الاقليم ، فقد اغناه عن التنويه والتنبيه على مذهبه ، وكيف وهو يرى ان سهل بن هارون واسماعيل بن غزوان ، كانا من المسرفين ، وان الثوري والكندي يستوجبان الحجر .

وابلغني انه قال : لو لم تعرفوا من كرامة الملائكة على الله ، الا انه لم يبتلهم بالنفقة ، ولا بقول العيال هات ، لعرفتهم حالهم ومنزلهم .

وحدثني صاحب لي قال : دخلت على فلان بن فلان ، واذا المائدة موضوعة ، بعد ، واذا القوم قد اكلوا ورفعوا ايديهم ، فمددت يدي لآكل ، فقال : اجهز على الجرحى ولا تتعرض للاصحاء ، يقول : اعرض للدجاجة التي قد نيل منها ، وللفرخ المنزوع الفخذ ، فأما الصحيح فلا تتعرض له ، ولك الرغيف الذي قد نيل منه واصابه بعض المرق .

وقال لي هذا الرجل : اكلنا عنده يوما وابوه حاضرا ، وبني له يجيء ويذهب ،فاختلف مرارا . كل ذلك يرانا نأكل ، فقال الصبي : كم تأكلون ؟ لا اطعم الله بطونكم ، فقال ابوه وهو جد الصبي : ابني ورب الكعبة !

وحدثني صاحب مسلحة باب الكرخ ، فقال لي صاحب الحمام ، الا اعجبك بن صالح بن عفان ، كان يجيء كل سحر فيدخل الحمام ، فاذا غبت عن اجانة النورة مسح به عانته وارفاغه ، ثم يتستر بالمئزر ، ثم يقوم فيغسله

في غمار الناس ، ثم يجيء بعد في مثل تلك الساعة ، فيطلي ساقيه وبعض فخذيه ، ثم يجلس ويتزر بالمئزر ، فاذا وجد غفلة اغسله ، ثم يعود في مثل ذلك الوقت فيمسح قطعة اخرى من جسده ، فلا يزال يطلي في كل سحر ، حتى ذهب مني بطلية ، قال : ولقد رايته وان في زيق سراويله نورة ! وكان لا يرى الطبخ في القدور الشامية ، ولا تبريد الماء في الجرار المذارية ، لان هذه ترشح وتلك تنشف .

حدثني ابو الجهجاه النوشرواني ، قال حدثني ابو الاحوص الشاعر ، قال : كنا نفطر عند الباساني فكان يرفع يديه قبلنا ، ويستلقي على فراشه ويقول : (انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) .



حديث خالد بن يزيد

وهذا خالد بن يزيد مولى المهالبة هو خالوية المكدي وكان قد بلغ في البخل والتكدية ، وفي كثرة المال التي لم يبلغها احد ، وكان ينزل في شق بني تميم فلم يعرفوه ، فوقف عليه ذات يوم سائل ، وهو في مجلس من مجالسهم ، فأدخل يده في الكيس ليخرج فلسا ، وفلوس البصرة كبار ، فغلط بدرهم بغلي فلم يفطن حتى وضعه في يد السائل ، فلما فطن استرده واعطاه الفلس ، فقيل له : هذا لا نظنه يحل ، وهو بعد قبيح عند من ؟ اني لم اجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم ، ليس هذا من مساكين الدراهم ، هذا من مساكين الفلوس ، والله ما اعرفه الا بالفراسة .

قالوا : وانك لتعرف المكدين ؟ قال وكيف لا اعرفهم ، وانا كنت كأخان في حداثة سني ، ثم لم يبق في الارض مخطراني ، ولا مستعرض الاقفية ، ولا شحاذ ولا كاغاني ، ولا بانوان ولا قرسي ، ولا عواء ولا مشعب ولا فلور ولا مزيدي ، ولا اسطيل الا وقد كان تحت يدي ، ولقد أكلت الزكوري ثلاثين سنة ولم يبق في الارض كعبي ولا مكد الا وقد اخذت العرافة عليه . وانما اراد بهذا يؤسيهم من ماله ، حين غرف حرصهم وجشعهم وسوء جوارهم ، وكان قاصا متكلما ، بليغا داهيا ، وكان ابو سليمان الاعور وابو سعيد المدائني القاصان من غلمانه .

وهو الذي قال لابنه عند موته : اني قد تركت لك ما تاكله ان حفظته ، وما لا تاكله ان ضيعته ، ولما ورثتك من العرف الصالح ، واشهدتك من صواب التدبير ، وعودتك من عيش المقتصدين ، خير لك من هذا المال ، وقد دفعت اليك آلة لحفظ المال عليك ، بكل حيلة ، ثم ان لم يكن لك معين من نفسك ، لما انتفعت بشيء من ذلك ، بل يعود ذلك النهي كله اعتزالا لك وذلك المنع تهجينا لطاعتك .

قد بلغت في البر منقطع التراب ، وفي البحر اقصى مبلغ السفن . فلا عليك الا ترى ذا القرنين ، ودع عنك مذاهب ابن شريه فانه لا يعرف الا ظاهر

الخبر ، ولو رآني تميم الداري لاخذ عني صفة الروم . ولانا اهدى من القطا ، ومن دعميص ومن رافع المخش .

اني قد بت بالقفر مع الغول ، وتزوجت السعلاة ، وجاوبت الهاتف ، ورغب عن الجن الى الجن ، واصطدت الشق وجاوبت النسناس وصحبني الرئي وعرفت خدع الكاهن وندسيس العراف ، والى ما يذهب الخطاط والعياف ، وما يقول اصحاب الاكتاف ، وعرفت التنجيم والزجر والطرق والفكر . ان هذا المال لم اجمعه من القصص والتكدية من احتيال النهار ومكايدة الليل . ولا يجمع مثله ابدا الا من معاناة ركوب البحر ، ومن عمل السلطان ان من كيمياء الذهب والفضة . قد عرفت الراس حق معرفته وفهمت كسر الاكسير على حقيقته .

ولولا علمي بضيق صدرك ، ولولا ان اكون سببا لتلف نفسك، لعاملتك الساعة التسيء الذي بلغ بقارون ، وبه تبنكت خاتون . والله ما يتسع صدرك عندي لسر صديق ، كيف ما لا يحتمله عزم ولا يتسع له صدر . وحرز سر الحديث وحبس كنوز الجواهر اهون من خزن العلم .

ولو كنت عندي مأمونا على نفسك ، لاجريت الارواح في الاجساد ، وانت تبصر ما كنت لا تفهمه بالوصف ، ولا تحققه بالذكر ، ولكني سألقي عليك علم الادراك ، وسبك الرخام ، وصنعة الفسيفساء واسرار السيوف القلعية ، وعقاقير السيوف اليمانية ، وعمل الفرعوني وصنعة التلطيف على وجهه ، ان اقامني الله من صرعتي هذه .

ولست ارضاك وان كنت فوق البنين ، ولا اثق بك وان كنت لاحقا بالاباء ، لاني لم ابالغ في محبتك .

اني قد لابست السلاطين والمساكين ، وخدمت الخلفاء والمكدين . وخالطت النساك والفتاك . وعمرت السجون كما عمرت مجالس الذكر . وحلبت الدهر اشطره . وصادفت دهرا كثير الاعاجيب .

فلولا انني دخلت من كل باب . وجريت مع كل ريح . وعرضت السراء والضراء . حتى مثلت لي التجارب عواقب الامر . وقربتني من غوامض التدبير . لما امكنني جمع ما اخلفه لك . ولا حفظ ما حبسته عليك. ولم احمد نفسي على جمعه . كما حمدتها على حفظه . لان بعض هذا المال لم انله بالحزم والكيس .

قد حفظته عليك من فتنة الابناء . ومن فتنة النساء . ومن فتنة البناء . ومن فتنة الرياء . ومن ايدي الوكلاء فانهم الداء العياء .

ولست اوصيك بحفظي لفضل حبي لك. ولكن لفضل بغضي للقاضي. ان الله جل ذكره لم يسلط القضاة على اموال الاولاد . الا عقوبة للاولاد .

لان اباه ان كان غنيا قادرا احب ان يريه غناه وقدرته . وان كـان فقـيرا عاجزا احب ان يستريح من شينه . ومن حمل مؤنته . وان كان خارجا من الحالين احب ان يستريح من مداراته .

فلا هم شكورا من جمع لهم وكفاهم ووقاهم وغرسهم. ولا هم صبروا على من اوجب الله حقه عليهم . والحق لا يوصف عاجله بالحلاوة . كما لا يوصف عاجل الباطل بالمرارة . فان كنت منهم فالقاضي لك . وان لم تكن منهم فالله لك .

فان سلكت سبيلي . صار مال غيرك وديعة عندك . وصرت الحافظ على غيرك . وان خالفت سبيلي صار مالك وديعة عند غيرك . وصار غيرك الحافظ عليك . وانك يوم تطمع ان تضيع مالك ويحفظه غـيرك . لجشع الطمع مخذول الامل .

احتال الآباء في حبس الاموال على اولادهم بالوقف ، فاحتالت القضاة على اولادهم بالاستحجار . ما اسرعهم الى اطلاق الحجر . والـى ايـنـاس الرشد . ارادوا الشراء منهم . وابطأهم عنهم اذا ارادوا ان تكون اموالهـم جائزة لصنائعهم .

يا ابن الخبيثة ! انك وان كنت فوق ابناء هذا الزمن . فان الكفايـــة قد مسختك ومعرفتك بكثرة ما اخلف قد افسدتك . وزاد في ذلك ان كنت بكري وعجزت امك .

انا لو ذهب مالي لجلست قاصا . او طفت في الآفاق ــ كما كنت ــ مكديا . واقع . ان سألت عيني الدمع اجابت . والقليل من رحمة الناس . خير من اللحية وافرة بيضاء . والحلق جهير طل . والسمت حسن. والقبول على المال الكثيرة . وصرت محتالا بالنهار . واستعملت صناعـة الليـل . واخرجت قاطع طريق . صرت للقوم عينا . ولهم مجهرا !

سل عني صعاليك الجبل . وزواقيل الشام . وزط الآجام . ورؤوس الاكراد . ومردة الإعراب . وفتاك نهر ولصوص القفص .

وسل عني القيقانية والقطرية وسل عني المتشبهة وذباجي الجزيـرة كيف بطشي ساعة البطش . وكيف حيلي ساعة الحيلة . وكيف انا عنـد الجولة . وكيف ثبات جناني عند رؤية الطليعة . وكيف يقظتي اذا كنـت رتيئة . وكيف كلامي عند السلطان اذا اخذت . وكيف صبري اذا جلدت . وكيف قلة ضجري اذا حبست . وكيف رسفاني في القيد اذا اثقلت !

فكم من ديماس قد نقبته .. وكم من مطبق قد افضيته . وكم مـن سجن قد كابدته .

وانت غلام لسانك فوق عقلك . وذكاؤك فوق حزمك . لـم تعجمـك

الضراء . ولم تزل في السراء . والمال واسع . وذرعك ضيق . وليس شيء اخوف عليك عندي . من حسن الظن بالناس . فانهم شمالك على يمينك . وسمعك على بصرك . وخف عباد الله . على حسب ما ترجو الله . فاقول ما زقع . في روعي . ان مالي محفوظ علي . وان النماء لازم لي . وان الله سيحفظ عقبي من بعدي .

اني لما غلبتني يوما شهوتي . واخرجت يوما درهما لقضاء وطري ، ووقعت عيني على سكته وعلى اسم الله المكتوب عليه . قلت في نفسي : اني اذا لمن الخاسرين الضالين، لئن انا اخرجت من يدي ومن جيبي . شيئا عليه لا اله الا الله ، اخذت بدله شيئا ليس عليه شيء ، والله ان المؤمن لينزع خاتمه لامر يريده ، وعليه « حسبي الله » او « توكلت على الله » فيظن انه قد خرج من كنف الله جل ذكره ، حتى يرد الخاتم في موضعه وانما هو خاتم واحد . وانا اريد ان اخرج في كل يوم درهما عليه الاسلام كما هو ! ان هذا لعظيم !

ومات من ساعته وكفنه ابنه ببعض خلقانه ، وغسله بماء البئر ، ودفنه من غير ان يضرح له او يلحد له ، ورجع .

فلما صار في المنزل ، نظر الى جرة خضراء معلقة ، قال : اي شيء في هذه الجرة ؟ قالوا : ليس اليوم فيها شيء ، قال : فأي شيء كان فيها قبل اليوم ؟ قالوا : سمن قال : وما كان يصنع به ؟ قالوا : كنا في الشتاء نلقي له في البرمة شيئا من دقيق نعمله له ، فكان ربما برقه بشيء من سمن ، قال : تقولون ولا تفعلون ! السمن اخو العسل ، وهل افسد الناس اموالهم الا في السمن والعسل ؟ والله لولا ان للجرة ثمنا لما كسرتها الا على قبره ! قالوا : فخرج فوق ابيه وما كنا نظن ان فوقه مزيدا !!

المخطراني الذي يأتيك في زي ناسك ، ويريك ان بابك : قد قور لسانه من اصله . لانه كان مؤذيا هناك ، ثم يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب، فلا ترى له لسانا البتة ، ولسانه في الحقيقة كلسان الثور ، وانا احد من خدع بذلك. ولا بد للمخطراني ، ان يكون معه واحد يعبر عنه ، ولوح او قرطاس ، قد كتب فيه شأنه وقصته .

والكاغاني الذي يتجنن ويتصارع ويزبد ، حتى لا يشك انه مجنون لا دواء له : لشدة ما ينزل بنفسه ، وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علته، والبانوان الذي يقف على الباب ويسل الغلق ، ويقول : بانوا وتفسير ذلك بالعربية يا مولاي !

والقرسي الذي يعصب ساقه وذراعه عصبا شديدا ، ويبيت على ذلك ليلة ، فاذا تورم واختنق الدم ، مسحه بشيء من صابون ودم الآخرين ،

وقطر عليه شيئا من سمن ، واطبق عليه خرقة ، وكشف بعضه ، فلا يشك من رآه ان به الآكلة او بلية شبه الآكلة .

والمشعب الذي يحتال للصبي حين يولد . بأن يعميه او يجعله اعشم او اعضد ، ليسأل الناس به اهله ، وربما جاءت به امه وابوه . ليتولى ذلك منه بالغرم الثقيل . لانه يصير حينئذ عقدة وغلة . فاما ان يكتسبا به . واما ان يكرياه بكراء معلوم . وربما اكروا اولادهم ممن يمضي الى افريقية . فيسأل بهم الطريق أجمع بالمال العظيم . فان كان ثقة مليئا . والا اقام بالاولاد والاجرة كفيلا .

والعواء الذي يسأل بين المغرب والعشاء ، وربما طرب ان كان له صوت حسن ، وحلق شجي ، والاسطيل هو المتعامي ، ان شاء اراك انه منخسف العينين ، وان شاء اراك بهما ماء . وان شاء اراك انه لا يبصر للخسف ولريح السبل .

والمزيدي الذي يدور . ومعه الدريهمات . ويقول : هذه دراهم قد جمعت لي في ثمن قطيفة فزيدوني فيها يرحمكم الله ، وربما احتل صبيا على انه لقيط ، وربما طلب في الكفن . والمستعرض الذي يستعرضك وهو ذو هيئة وفي ثياب صالحة وكأنه قد هاب من الحياء . ويخاف ان يراه معرفة ثم يعترضك اعتراضا ويكلمك خفيا .

والمقدس الذي يقف على الميت . يسأل في كنفه . ويقف في طريق مكة على الحمار الميت . والبعير الميت . يدعي انه كان له . ويزعم انه قد احصر وقد تعلم لغة الخراسانية. واليمانية والافريقية، وتعرف تلك المدن والسكك والرجال وهو متى شاء كان من افريقيا . ومتى شاء كان من اهل فرغانة ، ومتى شاء كان من اي مخاليف اليمن شاء !

والمكدي صاحب الكداء . والكعبي اضيف الى ابي كعب الموصلي وكان عريفهم بعد خالويه سنة على ماء . والزكورى هو خبز الصدقة كان على سجني او على سائل .

هذا تفسير ما ذكر خالويه فقط . وهم اضعاف ما ذكرنا في العدد. ولم يكن يجوز ان نتكلف شيئا ، ليس من الكتاب في شيء .

رفع يحيى بن عبدالله بن خالد بن امية بن عبدالله بن خالد بن اسيد رغيفا من خوانه بيده ، ثم رطله والقوم ياكلون . ثم قال : يزعمون ان خبزي صغار اي ابن .. ياكل من هذا الخبز رغيفين ؟

وكنت انا وابو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام . وقطرب النحوي ، وابو الفتح مؤدب منصور بن زياد ، على خوان فلان بن فلان ، وان من جزعه . والغضار اصيني ملمع او خلنجية كيمائية . والالوان طيبة شهية .

وغذية قدية ؟ وكل رغيف في بياض الفضة . كأنه البدر . وكأنه مرآة مجلوة. ولكنه على قدر عدد الرؤوس .

فأكل كل انسان رغيفه الا كسرة . ولم يشبعوا فيرفعوا ايديهم . ولم يفذوا بشيء فيتموا اكلهم . والايدي معلقة ، وانما هم في تنقير وتنتيف .. فلما طال ذلك عليهم ، اقبل الرجل على ابي الفتح ، وتحت القصعة رقاقة ، فقال : يا ابا الفتح خذ ذلك الرغيف فقطعه وقسمه على اصحابنا ، فتغافل ابو الفتح ، ثم اعاد عليه القول فتغافل ، فلما اعاد عليه القول الرابعة ، قال : مالك ويلك لا تقطعه بينهم ؟ قطع الله اوصالك ، قال : نبتلي على يدين غيري اصلحك الله ، فخجلناه مرة وضحكنا مرة وما اضحكنا صاحبنا ولا خجل .

وزرته انا والمكي وكنت انا على حمار مكاري ، والمكي على حمار مستمار فصار الحمار الى اسوا من حال المذود فكلم المكي غلمانه ، فقال : لا اريد منكم التبن فما فوقه ، اسقوه ماء فقط ، فسقوه ماء فقط ، فسقوه ماء بئر فلم يشربه الحمار ، وقد مات عطشا .

فأقبل المكي عليه فقال : اصلحك الله انهم يسقون حماري ماء بئر ، ومنزل صاحب الحمار على شارع دجلة ، فهو لا يعرف الا العذب ، فقال : فأمزجوه له يا غلام ، فمزجوه فلم يشربه ، فأعاد المسألة ، فأمكنه من اذن من لا يسمع الا ما يشتهي .

وقال لي مرة : يا اخي ان ناسا من الناس يغمسون اللقمة الى اصبارها في المرى فأقول : هؤلاء قوم يحبون الملوحة ولا يحبون الحامض ، فما البث ان ارى احدهم يأخذ حرف الحزذقة ، فيغمسها في الخل الحاذق ، ويغرقها فيه ، وربما رأيت احدهم يمسكها في الخل بعد التسرق ساعة ، فأقول هؤلاء قوم يجمعون حب الحموضة الى حب الملوحة ، ثم لا البث ان اراهم يصنعون مثل ذلك بالخردل ، والخردل لا يرام ، قل لي : اي شيء طبائع هؤلاء ، واي ضرب هم ، وما دواءهم ؟ واي شيء علاجهم ؟

فلما رايت مذهبه وحمقه ، وغلبة البخل عليه ، وقهره له ، قلت : ما لهم عندي علاج هو انجح فيهم من ان يمنعوا الصباغ كله قال : لا والله ان هو غيره ؟

وصديق لنا اخر كنا قد ابتلينا بمؤاكلته ، وقد كان ظن انا قد عرفناه بالبخل على الطعام ، وهجس ذلك في نفسه وتوهم انا قد تذاكرنا امره ، فكان يتزيد في تكثير الطعام ، في اظهار الحرص . على ان يؤكل . حتى قال : من رفع يده قبل القوم غرمناه دينارا ، وظاهر لائمته ، محتمل في رضا قلبه وما رجو من نفع ذلك له . ولقد خبرني خباز لبعض اصحابنا ، انه جلده على نضاج الخبز ، وانه قال له : انضج خبزي الذي وضع بين يدي ، واجعل

خبز من يأكل معي ، على مقدار بين المقدارين ، واما خبز العيال والضيف فلا تقربنه من النار ، الا بقدر ما يصير العجين رغيفا ، وبقدر ما يتماسك فقط ! فكلفه العويص ، فلما اعجزه ذلك جلده جلد الزاني الحر !

فحدثت بهذا الحديث عبدالله العروضي ، فقال : الم تعرف شأن الجدي ؟ ضرب الشواء ثمانين سوطا لمكان الانضاج ! وذلك انه قال له : ضع الجدي في التنور حين تضع الخوان، حتى استبطئك انا في انضاجه، وتقول انت : بقي قليل ! ثم تجيئنا به وكأني قد اعجلتك ! فاذا وضع بين ايديهم غير منضج ، احتسبت عليهم باحضار الجدي . فاذا لم يأكلوه ، اعدته الى التنور ، ثم احضرتناه الغد باردا . فيقوم الجدي الواحد مقام جديين ! فجاء به الشواء يوما نضيجا . فعمل فيه القوم . فجلده ثمانين جلدة القاذفُ الحر !

حدثني احمد بن المثني عن صديق لي وله . ضخم البدن ، كثير العلم فاشي الغلة . عظيم الولايات . انه اذا دعي على مائدته بفضل دجاجة او بفضل رقاق او غير ذلك رد الخادم مع الخباز الى القهرمان حتى يصك له بذلك الى صاحب المطبخ .

ولقد رايته مرة وقد تناول دجاجة فشقها نصفين . فألقى نصفها الى الذي عن يمينه . ونصفها الى الذي عن شماله ثم قال : يا غلام جئني بواحدة رخصة . فان هذه كانت عضلة جدا ، فحسبت ان اقل ما عند الرجلين . ان لا يعود الى مائدته ابدا فوجدتهما قد فخرا علي بما حباهما به من ذلك دوني .

وكانوا ربما خصوه . فوضعوا بين يديه الدراجة السمينة . والدراجة الرخصة فانطفت الشمعة في ليلة من تلك الليالي فأغار علي الاسواري على بعض ما بين يديه . واغتنم الظلمة وعمل على ان الليل اخفى للويل ! نفطن له وما هو بالفطن . الا في هذا الباب . وقال : كذلك الملوك كانت لا تأكل مع السوقة .

وحدثني احمد بن المثني انهم كانوا يعمدون الى الجراذق التي ترفع عن مائدته فما كان منها ملطخا دلك دلكا شديدا . وما كان منها قد ذهب جانب منه . قطع بسكين من ترابيع الرغيف مثل ذلك . لئلا يشك من رآه انهم قد تعمدوا ذلك . وما كان من الانصاف والارباع . جعل بعضه للثريد وقطع بعضه كالاصابع وجعل مع بعض القلايا .

ولقد رايت رجلا ضخما . فخم اللفظ . فخم المعاني . تربية في ظل ملك مع علوهم . ولسان غضب ومعرفة بالغامض من العيوب . والدقيق من المحاسن مع شدة تسرع الى اعراض الناس . وضيق بما تعرف من عيوبهم ،

وان ثريدته لبلقاء ، الا ان بياضها ناصع ، ولونها الاخر اصهب ، ما رايت ذلك مرة ولا مرتين .

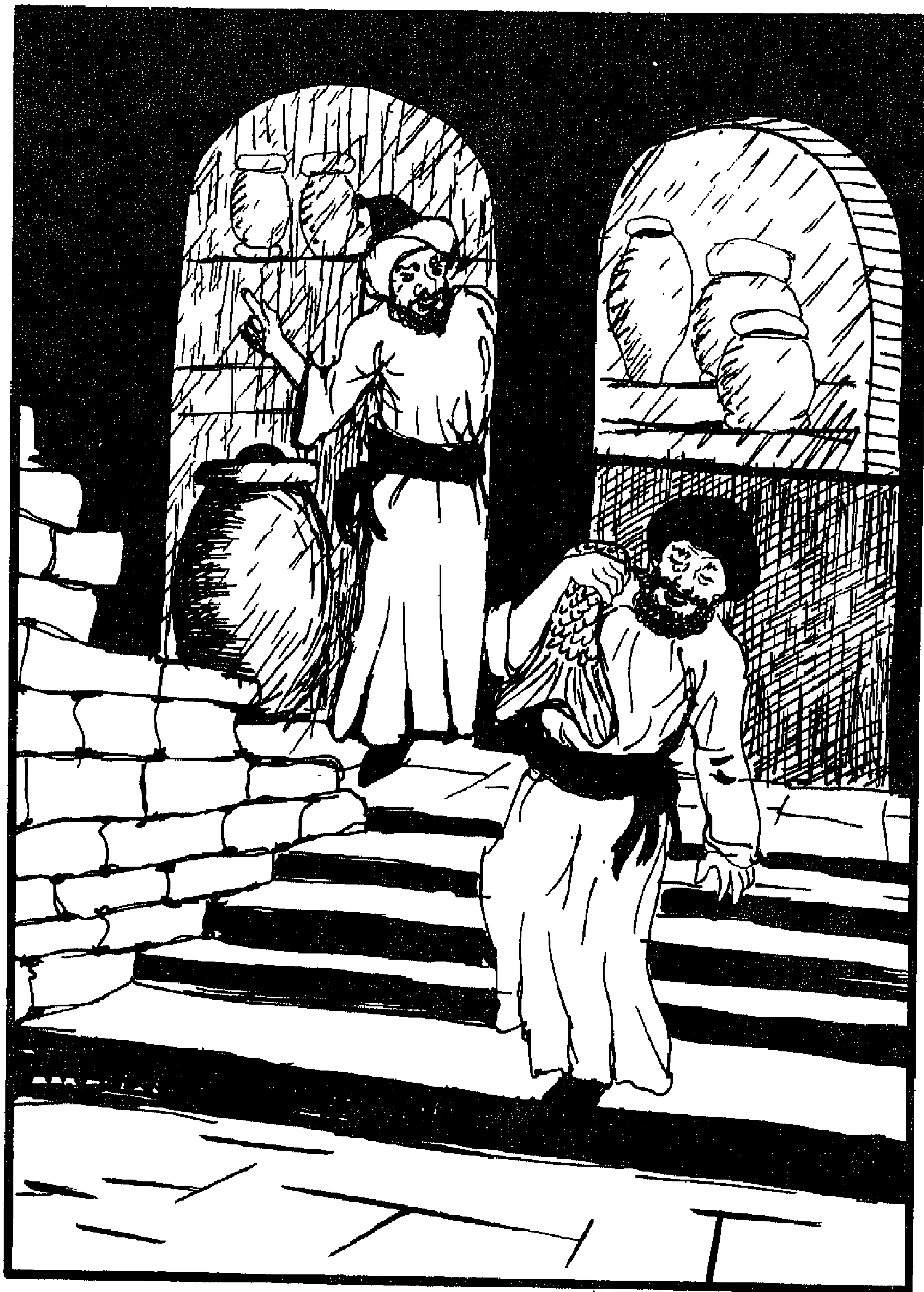
وكنت قد هممت قبل ذلك . ان اعاتبه على الشيء يستأثر به. ويخص به وان احتمل ثقل تلك النصيحة وبشاعتها في حظه . وفي النظر له . ورايت ان ذلك لا يكون الا من حاق الاخلاص . ومن فرط الاخاء بين الاخوان . فلما رايت البلقة هان على الحجيل والغرة . ورايت ان ترك الكلام افضل . وان الموعظة لغو .

وقد زعم ابو الحسن المدائني . ان ثريدة مالك بن المنذر . كانت بلقاء. ولعل ذلك ان يكون باطلا . واما انا . فقد رايت بعيني من هذا الرجل ما اخبرك به وهو شيء لم اره الا فيه . ولا سمعت به في غيره .

ولسنا من تسمية الاصحاب المتهتكين . ولا غيرهم من المستورين في شيء . اما الصاحب فانا لا نسميه لحرمته. وواجب حقه. والاخر لا نسميه ليستر الله عليه . ولما يجب لمن كان في مثل حاله . وانما نسمي من خرج من هاتين الحالين ولربما سمينا الصاحب اذا كان ممن يمازح بهذا كثيرا ورايناه يتظرف . ويجعل ذلك الظرف سلما الى منع شينه .

قصة أبي جعفر

ولم ار مثل ابي جعفر الطرطوسي : زار قوما فأكرموه وطيبوه . وجعلوا في شاربه وسبلته غاليه فحلك بها شفته العليا . فأدخل اصبعه . فحكها من باطن الشفة مخافة ان يأخذ اصبعه من الغالية شيئا اذا حكها من فوق . وهذا وشبهه انما يطيب جدا اذا رأيت الحكاية بعينك . لان الكتاب لا يصور لك كل شيء ولا يأتي لك على كنهه وعلى حدوده وحقائقه .



قصة الخزامي

واما ابو محمد الخزامي . عبدالله بن كاسب ، كاتب مؤنس ، وكاتب داود بن ابي داود ، فانه كان ابخل من برا الله ، واطيب من برا الله ، وكان له في البخل كلام ، وهو احد من يبصره ويفضله ويحتج له ، وانه رآني مرة في تشرين الاول وقد بكر البرد شيئا ، فلبست كساءا لي قومسيا خفيفا ، قد نيل منه ، فقال لي ما اقبح السرف بالعاقل ، واسمج الجهل بالحكيم . ما ظننت ان اهمال النفس وسوء السياسة ، بلغ بك ما ارى ، قلت : واي شيء انكرت منا مذ اليوم ؟ وما كان هذا قولك فينا بالامس ، فقال : لبسك هذا الكساء قبل اوانه ، قلت : وقد حدث من البرد بمقداره ، ولو كان هذا البرد الحادث في تموز وآب لكان اباننا هذا الكساء. قال : ان كان ذلك كذلك فاجعل بدل هذه المبطنة جبة محشوة ، فانها تقوم هذا المقام ، تكون قد خرجت من الخطأ فاما لبس الصوف اليوم فهو اليوم غير جائز .

قلت : ولم ؟ قال : غبار اخر الصيف يتداخله ، ويسكن في خلله ، فاذا امطر الناس وندى الهواء ، وابتل كل شيء ، ابتل ذلك الغبار ، وانما الغبار تراب ، الا انه لباب التراب ، وهو مالح يتقبض عند ذلك عليه الكساء ويتكرش لانه صوف فينضم اجزاؤه عليه فيأكله اكل القادح ، ويعمل فيه عمل السوس ، ولهو اسرع فيه من الارضة ، في الجزوع النجرانية ، ولكن اخر لبسه ، حتى اذا امطر الناس ، وسكن الغبار وتلبد التراب ، وحط المطر ما كان في الهواء من الغبار وغسله وصفاه ، فألبسه حينئذ على بركة الله .

وكان يقع الى عياله بالكوفة كل سنة مرة ، فيشتري لهم من الحب مقدار طبيخهم ، وقوت سنتهم ، فاذا نظر الى حب هذا والى حب هذا ، وقام على سعر ، اكتال من كل واحد منها كيلة معلومة الميزان ، واشترى اثقلها وزنا ، وكان لا يختار على البلدي والمصلي شيئا ، الا ان يتقارب السعر ، وكان على كل حال ، يفر من الميساني الا ان يضطر اليه . ويقول : هو ناعم ضعيف ونار المعدة شيطان فانما ينبغي لنا ان نطعم الحجر وما اشبه الحجر !

وقلت له مرة : علمت ان خبز البلدي ينبت عليه شبيه بالطين والتراب والغبار المتراكم ؟ قال : حبذا ذلك من خبز ، وليته قد أشبه الارض بأكثر من هذا المقدار ! وكان اذا كان جديد القميص ومغسولة ، ثم اتوه بكل بخور في الارض ، يتبخر ! مخافة ان يسود دخان العود بياض قميصه . فان اتسخ فأتى بالبخور ، ولم يرض بالتبخر واستقصاء ما في العود من القتار . حتى بدعو بدهن فيمسح به صدره وبطنه ، وداخله ازاره ، ثم يتبخر ليكون اعلق للبخور ! وكان يقول : حبذا الشتاء فانه يحفظ عليك رائحة البخور ، ولا يحمص في النبيذ ان ترك مفتوحا ، ولا يفسد فيه مرق ان بقي اياما ، وكان لا يتبخر الا في منازل اصحابه ، فاذا كان في الصيف دعا بثيابه فلبسها على قميصه ، لكيلا يضيع من البخور شيء .

وقال مرة ان للشيب سهكة وبياض الشعر هو موته ، وسواده حياته، الا ان موضع دبره الحمار الاسود لا ينبت الا ابيض ، والناس لا يرضون منا في هذا العسكر الا بالعناق واللثام ، والطيب غال وعادته رديئة ، وينبغي لمن كان ايضا عنده ان يحرسه ويحفظ من عياله . وان العطار ليختمه على اخص غلمانه .

فاست اري شيئا هو خير من اتخاذ مشط صندل ، فان ريحه طيبة ، والشعر سريع القبول منه ، واقل ما يصنع ان ينفي سهك الشيب ، فصرنا في حال لنا ولا علينا ، فكان عطر الحزامي الى ان فارق الدنيا مشط صندل ، الا ان يطيبه صديق !

واستسلفت من علي الاسواري مائة درهم ، فجاءني وهو حزين منكسر . فقلت له . انما يحزن من لا يجد بدا من اسلاف الصديق ، مخافة الا يرجع اليه ماله ، ولا يعد ذلك هبة منه ، او رجل يخاف الشكية ، فهو ان لم يسلف كرما أسلف خوفا ، وهذا باب الشهرة فيه هي قرة عينك . وانا واثق باعتزامك وتصميمك . وبقلة المبالاة بتبخيل الناس لك . فما وجه انكسارك واغتمامك ؟

قال اللهم غفرا ! ليس ذاك بي . انما في اني قد كنت اظن ان اطماع الناس قد صارت بمعزل عني . وآيسة مني . واني قد احكمت هذا الباب واتقنته واودعت قلوبهم اليأس . وقطعت اسباب الخواطر . فأراني واحد منهم . ان من اسباب افلاس المرء . طمع الناس فيه . لانهم اذا طمعوا فيه احتالوا له الحيل ونصبوا له الشرك. واذا يئسوا منه فقد أمن وهذا المذهب من علي استضعاف شديد . وما اشك انى عنده عمر . واني كبعض من ياكل ماله . وهو مع هذا خليط وعشير . واذا كان مثله لم يعرفني . ولم يتقرر عنده مذهبي . فما ظنك بالجيران ؟ بل ما ظنك بالمعارف . اراني انفخ

في غير فحم . واقدح برند مصلد ما اخوفني ان اكون قد قصد الي بقول . ما اخوفني ان يكون الله في سمائه قد قصد الي ان يفقرني !

قال : ويقولون ثوبك على صاحبك احسن منه عليك ، فما يقولون ان كان اقصر مني اليس يتخبل في قميصي، وان كان طويلا جدا وانا قصير جدا فلبسه اليس يصير آية السابلين ، فمن اسوا اثر على صديقه ، ممن جعله ضحكة للناس ، ما ينبغي لي ان اكسوه ، حتى اعلم انه فيه مثلي ، ومتى يتفق هذا ؟ والى ذلك محيا وممات !

وكان يقول اشتهي اللحم الذي قد تهرأ ، واشتهي ايضا الذي فيه بعض الصلابة، وقلت له مرة : ما اشبهك بالذي قال : اشتهي لحم دجاجتين، قال : وما تصنع بذلك القائل : هو انا اشتهي لحم دجاجتين ، واحدة خلاسة سمنة ، واخرى خوامزكه رخصه .

وقلت له مرة : قد رضيت بأن يقال : عبدالله بخيل قال : لا اعدمني الله هذا الاسم ، قلت : وكيف ؟ قال : لا يقال فلان بخيل ، الا وهو ذو مال ، فسلم الي المال وادعني بأي اسم شئت ، قلت : ولا يقال ايضا فلان سخي ، الا وهو ذو مال ، فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال ، واسم البخل يجمع المال والذم ، فقد اخترت اخسهما واوضعهما ، قال : وبينهما فرق ، قلت فهاته ؛ قال : في قولهم بخيل تثبيت لاقامة المال في ملكه ، وفي قولهم سخي اخبار عن خروج المال من ملكه ، واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم ، واسم السخي اسم فيه تضييع وحمد . والمال زاهر نافع مكرم لاهله معز ، والحمد ريح وسخرية . واستماعك له ضعف وفسولة ما اقل عناء الحمد والله عنه ، اذا جاع بطنه ، وعري جلده . وضاع عياله ، وشمت به كل من كان بحسده !

وكنا عند داوود بن ابى داوود بواسط ، ايام ولايته كسكر فأتته من البصرة هدايا فيها زقاق دبس ، فقسمها بيننا ، فكل ما اخذ منها الحزامي اعطى غيره . فانكرت ذلك من مذهبه. ولم اعرف جهة تدبيره . فقلت للمكي : قد علمت ان الحزامي يجزع من الاعطاء وهو عدوه ، فاما الاخذ فهو ضالته وامنيته ، وانه لو اعطي افاعي سجستان ، وتعابين مصر ، وحيات الاهواز ، لاخذها اذا كان اسم الآخذ واقعا عليها . فعساه اراد التفضيل في القسمة . قال : انا كاتبه وصداقتي اقدم ، وما ذلك به ثم باح بسره، قال : وضيعته اضعاف ربحه ، واخذ عندي من اسباب الادبار قلت اول وضائعه احتمال الشكر . قال : هذا لم يخطر لي قط على بال ، قلت : فهات اذا ما عندك .

قال اول ذلك كراء الحمال ، ثم هو على خطر حتى يصير الى المنزل ، فاذا صار الى المنزل ، صار سببا لطلب العصيدة والارز، والبستندود فان بعته فرارا من هذا صيرتموني شهرة ، وتركتوني عنده آية ، وان انا حبسته

في العصائد واشباه العصائد ، وجذب ذلك شراء السمن ، ثم جذب السمن غيره ، وصار هذا الدبس اضر علينا من العيال .

وان انا جملته نبيذا احتجت الى كراء القدور ، والى شراء الحب والى شراء الماء والى كراء من يوقد تحته ، والى التفرغ له فان وليت ذلك الخادم اسود ثوبها وغرمنا ثمن الاشنان والصابون ، وازداد في الطمع على قدر الزيادة في العمل ، فان فسد ذهبت النفقة باطلا ، ولم نستخلف منها عوضا، بوجه من جميع الوجوه لان خل الداذي يخضب اللحم ، ويغير الطعم ويسود المرق ، ولا يصلح الا للاصطباغ ، وهذا اذا استحال خلا واكثر ذلك ان يحول عن النبيذ ولا يصير الى الخل ، وان سلم .

فان قعدت في البيت اشرب منه لم يكن الا يترك سلاف الفارسي المعسل ، والدجاج المسمن ، وجداء كسكر ، وفاكهة الجبل ، والنقل الهش، والريحان الغض ، عند من لا يغيض ماله ، ولا تنقطع مادته ، وعند من لا ابالي على اي قطريه سقط ، مع فوت الحديث المؤنس ، والسماع الحسن .

وعلى اني ان جلست في البيت اشربه ، لم يكن لي بد من واحد، وذلك الواحد لا بد له من دربيهم لحم ، من طسوج نقل ، وقيراط ريحان ، ومن ابزار للقدر ، ومن حطب للوقود ، وهذا كله غرم ، وهو بعد هذا شؤم وحرقة ، وخروج من العادة الحسنة .

فان كان ذلك النديم غير موافق ، فأهل الحبس الحسن حالا مني ، وان كان « واعوذ بالله » ! موافقا فقد فتح له على مالي بابا من التلف، لانه حينئذ يسير في مالي كسيري في مال من هو فوقي .

واذا علم الصديق ان عندي داذيا او نبيذا دق الباب دق المدل ، فان حجبناه فبلاء ، وان ادخلناه فشقاء ، وان بدا لي في استحسان حديث الناس ، كما يستحسنه مني من اكون عنده ، فقد شاركت المسرفين ، وفارقت اخواني من المصلحين ، وصرت من اخوان الشياطين .

فاذا صرت كذلك ، فقد ذهب كسبي من غيري ، وصار غيري يكتسب مني ، وانا لو ابتليت باحدهما ، لم اقم له فكيف اذا ابتليت بان اعطي ولا آخذ اعوذ بالله من الخذلان بعد العصمة ، ومن الحور بعد الكور ، ولو كان هذا في الحداثة كان اهون ! هذا الدوشاب ، دسيس من الحرفة ، وكيد من الشيطان ، او خدعة من الحسود ، وهو الحلاوة التي تعقب المرارة ما اخوفني ان يكون ابو سليمان ، قد مل منادمتي ، فهو يحتال الى الحيل .

وكنا مرة في موضع حشمة ، وفي جماعة كثيرة ، والقوم سكوت والمجلس كبير وهو بعيد المكان مني ، واقبل علي المكي والقوم يسمعون فقال.

يا ابا عثمان ، من ابخل اصحابنا ؟ قلت : ابو الهذيل قال : ثم من ؟ قلت : صاحب لنا لا اسميه ، فقال الحزامي من بعيد : انما يعنيني .

ثم قال حسدتم للمقصدين تدبيرهم ، ونماء اموالهم ، ودوام نعمتهم، فالتمستم تهجينهم بهذا اللقب ، وادخلتم المكر عليهم بهذا النبز ، تظلمون المتلف لماله ، باسم الجود ، ادارة له عن شينه ، وتظلمون المصلح لماله باسم البخل ، حسدا منكم لنعمته ، فلا المفسد ينجو ، ولا المصلح يسلم .

قال ابو عبيدة : بلغ خالد بن عبدالله القسري ، ان الناس يرمونه بالبخل على الطعام ، فتكلم يوما ، فما زال يدخل كلاما في كلام ، حتى ادخل الاعتذار من ذلك في عرض كلامه ، فكان مما احتج به في شدة رؤية الاكليل عليه ، وفي نفوره منه ان قال : نظر خالد المهزول في الجاهلية يوما ، الى ناس ياكلون والى ابل تجتر ، فقال لاصحابه : اتروني بمثل هذه العين التي ارى بها الناس والابل ؟، قالوا : نعم فحلف بالهه ان لا ياكل بقلا ، وان مات هزالا ، وكان يغتذي اللبن ويصيب من الشراب ، فاضمره ذلك وايبسه ، فلما دق جسمه ، واشتد هزاله ، يسمي المهزول ، ثم قال خالد : ها اناذا مبتلي بالمضلغ ومحمول على تحريك اللحيين ومضطر الى مناسبة البهائم ، ومحتمل ما في ذلك من السخف والعجز ، ما ابالي احتملته فيمن لي منه بد ، ولي عنه مذهب ، لياكل كل أمرىء في منزله ، وفي موضع امنه وانسه، ودون ستره وبابه .

هذا ما بلغنا عن خالد بن عبدالله القسري واحتجاجه .

فاما خالد المهزول فهو احد الخالدين ، وهما سيدا بني اسد وفيه وفي خالد بن نضله يقول : الاسود بن يعفر :

وقبلك مات الخالدان كلاهما   عميد بني جحوان وابن المضلل



قصة الحارثي

وقيل للحارثي بالامس ، والله انك لتصنع الطعام فتجيده ، وتعظم عليك النفقة وتكثر منه ، وأنك لتغالي بالخباز والطباخ والشواء والخباص، ثم انت مع هذا كله لا تشهده عدوا لنعمه ، ولا وليا فتسره ، ولا جاهلا لتعرفه ، ولا زائرا لتعظمه ولا شاكرا لتثبته ، وانت تعلم حين يتنحى من بين يديك ، ويغيب عن عينيك فقد صار نهبا مقسما ، ومتوزعا مستهلكا ، فلو احضرته من ينفع شكره ، ويبقي على الايام ذكره ، ومن يمتعك بالحديث الحسن والاستمتاع ، ومن يمتد به الاكل ويقصر به الدهر ، لكان ذلك اولى بك ، واشبه بالذي قدمته يدك . وبعد ، فلم تبيح مصون الطعام لمن لا يحمدك ، ومن ان احمدك لم يحسن ان يحمدك ؟ ومن لا يفصل بين الشهي الغذي ، وبين الغليظ الزهم .

قال يمنعني من ذلك ما قال ابو الفاتك قالوا : ومن ابو الفاتك ؟ قال قاضي الفتيان ، واني لم آكل مع احد قط الا رأيت منه بعض ما ذمه ، وبعض ما شنعه وقبحه ، فشيء يقبح بالشطار ، فما ظنك به اذا كان في اصحاب المروءات واهل البيوتات ؟

قال : فما قال ابو الفاتك ؟ الفتى لا يكون نشافا ولا نشالا ولا مرسالا ولا لكاما ولا مصاصا ولا نفاضا ولا دلاكا ولا مقورا ولا مغربلا ولا محلقا ولا مسوغا ولا مبلغا ولا مخضرا .

فكيف لو راى ابو الفاتك اللطاع والقطاع والنهاش والمداد والدفاع والمحول ؟

والله اني لافضل الدهاقين حين عابوا الحسو ، وتقززوا من التمرق ، وبهرجوا صاحب التمشيش ، وحين اكلوا بالبارجين وقطعوا بالسكين ولزموا عند الطعام السكتة ، وتركوا الخوض ، واختاروا الزمزمة .

انا والله احتمل الضيف والضيفن ، ولا احتمل اللعموظ ، ولا

الجردبيل والواغل اهون علي من الراشن ومن يشك ان الوحدة خير من جليس السوء ، وان جليس السوء خير من اكيل السوء ، لان كل اكيل جليس ، وليس كل جليس اكيلا . فان كان لا بد من المؤاكلة ، ولا بد من المشاركة ، فمع من لا يستأثر علي بالمخ ولا ينتهز بيضة البقيلة ولا يلتهم كبد الدجاجة ، ولا يبادر الى دماغ راس السلافة ، ولا يختطف كلية الجدي ، ولا نزدرد قانصة الكركي ، ولا ينتزع شاكلة الحمل ، ولا يقمع سرة الشصر ، ولا نعرض لعيون الرؤوس ولا يستولي على صدور الدجاج ، ولا يسابق الى اسماط الفراخ ، ولا يتناول الا ما بين يديه ، ولا يلاحظ ما بين يدي غيره ، ولا يشتهي الغرائب ، ولا يمتحن الاخوان بالامور الثمينة ، ولا يهتك استار الناس ، بان يشتهي ما عسى الا يكون موجودا .

وكيف تصلح الدنيا ، وكيف يطيب العيش ؟ مع من اذا راى جزورية التقط الاكباد والاسمنة ، واذا عاين بقرية استولى على المرق والقطنة ، وان اتو بجنب شواء ، اكتسح كل شيء عليه ، لا يرحم ذا سن لضعفه ، ولا يرق على حدث لحدة شهوته ، ولا ينظر للعيال ، ولا يبالي كيف دارت بهم الحال ، وان كان لا بد من ذلك ، فمع من لا يجعل نصيبه في مالي اكثر من نصيبي .

واشد من كل ما وصفنا واخبث ، من كل ما عددنا ، ان الطباخ ربما اتى باللون الطريف ، وربما قدم الشيء الغريب ، والعادة في مثل ذلك اللون ، وان يكون لطيف الشخص ، صغير الحجم ، وليس كالطفشيلية ولا كالهريسة ، ولا كالفجيلة ولا كالرنبية ، وربما عجل عليه فقدمه حارا ممتنعا ، وربما كان من جوهر بطيء الفتور ، واصحابي في سهولة ازدياد الحار عليهم في طباع النعام ، وانا في شدة الحار علي في طباع واردت ان اشاركهم في بعضه ، لم آمن من ضرره والحار ربما قتل ، وربما اعقم ، وربما ابال الدم .

ثم قال هذا علي الاسواري ، اكل مع عيسى بن سليمان بن علي ، فوضعت قدامهم سمكة عجيبة ، فائقة السمن ، فحاط بطنها لحظة ، فاذا هو يكتنز شحما ، وقد كان غص بلقمة ، وهو لمستسق ، ففرغ من الشراب وقد غرف من بطنها كل انسان منهم بلقمته غرفة ، وكان عيسى ينتخب الاكلة ، ويختار منهم كل مفهوم فيه ، ومفتون به .

فاما على الاسواري الاخفاق ، واشفق من الفوت ، وكان اقربهم اليه عيسى ، استلب من يده اللقمة باسرع من خطفة البازي ، وانحدار العقاب ، من غير ان يكون اكل عنده قبل مرة ، فقيل له : ويحك استلبت لقمة الامير من يده ، وقد رفعها اليه ، وشحا لها فاه ، من غير مؤانسة ولا ممازحة سالفة .

قال : لم يكن الامر كذلك ، وكذب من قال ذلك ، ولكننا اهوينا ايدينا معا فوقعت يدي في مقدم الشحمة ، ووقعت يده في مؤخر الشحمة معـا ، والشحم ملتبس بالامعاء ، فلما رفعنا ايدينا معا ، كنت انا اسرع حركـة ، وكانت الامعاء متصلة غير متباينة ، فتحول كل شيء كان في لقمتـه بتلك الجذبة الى لقمتي . لاتصال الجنس بالجنس ، والجوهر بالجوهر ، وانـا كيف أؤاكل اقواما يصنعون هذا الصنيع ، ثم يحتجون له بمثل هذه الحجج؟

ثم قال : انكم تشيرون علي بملابسة شرار الخلق ، وانذال الناس ، وبكل عياب متعتب ، ووثاب على اعراض الناس متسرع ، وهؤلاء لم يرضوا الا ان يدعوهم الناس ولا يدعوا الناس ، يأكلوا ولا يطعموا ، وان يتحدثوا عن غيرهم ، ولا يبالون ان يتحدث عنهم ، وهم شرار الناس .

افلم يدرس الناس أي امرىء معاوية كان احسن واجمل ، تغافلـه عنه ام شفقته عليه ، فكان هذا جزاؤه منه وشكره له .

هم قال : وكيف اطعم من ان رايته يقصر في الاكل . فقلت له كل ولا تقصر في الاكل فقال : يفطن لفضل ما بين التقصير وغيره ، وان قصر فلـم انشطه ولم احثه ، قال : لولا إنه وافق هواه (لما سكت) .

ثم قال : وكيف اطعم من ان رايته يقصر في الاكل ، فقلت له كل ولا وهو علي خوان المهلب ، فلم يره الساقي ، فلم يفطن له . ففعل ذلك مرارا، والمهلب يراه ، وقد امسك عن الاكل الى ان يسيغ لقمته بالشراب ، فلمـا طال ذلك على المهلب ، قال : اسقه يا غلام ما احب من الشراب ، فلما سقاه استقله وطلب الزيادة منه ، وكان المهلب اوصاهم بالاقلال من الماء، والاكثار من الخبز ، قال التميمي : انك لسريع الى السقي سريع الى الزيادة ، وحبس يده عن الطعام ، فقال المهلب : اله عن هذا ايها الرجل فان هذا لا ينفعك ، ولا يضرنا ، اردنا امرا واردت خلافه .

وقد علمت اني دون معاوية ودون المهلب بن ابي صفرة ، وانهم الي اسرع ، وفي لحمي ارتع ، ثم قال : وفي الجارود بن ابي سبرة لكم واعظ ، وفي ابي الحارث جمين زاجر ، فقـد كانا يدعيان الى الطعـام والى الاكرام لظرفهما ، وحلاوتهما ، وحسن حديثهما ، وقصر يومهما ، وكانا يتشهيان الغرائب ، ويقترحان الطرائف ، ويكلفان الناس المؤن الثقال ، ويمتحنان ما عندهم بالكلف الشداد ، فكان جزاؤهم من احسانهم ما قد علمتم .

قال ومن ذلك ان بلال بن بردة ، كان رجلا عيابا ، وكان الى اعراض الاشراف متسرعا ، فقال للجارود : كيف طعام عبدالله بن ابي عثمان ؟ قال : يعرف وينكر ، قال : كيف هو عليه ؟ قال : يلاحظ اللقم وينتهز السائل . قال : فكيف طعام سلم بن قتيبة ؟ قال : طعام ثلاثة وان كانوا اربعة جاعوا

قال : فكيف طعام تسنيم بن الحواري ؟ قال : نقط العروس . قال : فكيف طعام المنجاب بن ابي عينة ؟ قال : يقول لا خير في ثلاث اصابع في صفحة ، حتى اتى على عامة اهل البصرة ، وعلى كل من كان يبعده . كما لم يبتل به الا من كان يقربه !!

وهذا ابو شعيب التلال . في تقريب مويس له ، وانسه به ، وفي احسانه اليه مع سخائه على المأكول ، غض طرفه عن الاكيل . وقلة مبالاته بالحفظ وقلة احتفاله بجمع الكثير . سأل عنه ابو شعيب ، فزعم انه لم ير قط اشح منه على الطعام ، قيل : وكيف ؟ قال : يدلك على ذلك انه يصنعه ، صنعة ، ويهيئه تهيئة من لا يريد ان يمس ! فضلا على غير ذلك ! وكيف يجترىء الضرس على افساد ذلك الحسن ، ونقض ذلك النظم ، وعلى تفريق ذلك التأليف ، وقد علم ان حسنه يحشم ، وان جماله يهيب منه ، فلو كان سخيا لم يمنع منه بهذا السلاح ، ولم يجعل دونه الجنن ، فحول احسانه اساءة ، وبذله منعا واستدعائه اليه نهيا

قال : ثم قيل لابي الحارث جمين : كيف وجه محمد بن يحيي على غدائه ، قال : اما عيناه فعينا مجنون ! وقال فيه ايضا : لو كان في كفه كسر خردل ، ثم لعب به لعب الابلي بالكرة ، لما سقطت من بين اصابعه حبة واحدة .

وقيل له ايضا : فكيف سخاؤه على الخبز خاصة ؟ قال والله لو القي اليه من الطعام بقدر ما حبس نزف السحاب لما تجلى عن رغيف . وكان ابو نواس يرتعي علي خوان اسماعيل بن نيبخت ، كما ترتعي الابل في الحمض بعد طول الخلة ، ثم كان جزاؤه منه انه قال :

خبز اسماعيل كالوشي   اذا ما شق يرفا

وقال :

وما خبزه الا كليب بن وائل   ليالي يحمي عزه منبت البقل

وكان ابو الشمقمق يعيب في طعام جعفر بن ابي زهير ، وكان له ضيفا وهو مع ذلك يقول :

رايت الخبز عز لديك حتى   حسبت الخبز في جو السحاب
وما روحتنا لتذب عنا   ولكن خفت مرزئة الذباب

وقيل للجمار : رايناك في دهليز فلان . وبين يديك قصعة ، وانت تأكل . فمن اي شيء كانت القصعة ؟ واي شي كان فيها ؟ قال : في كلب ، في قحف خنزير !!

وقيل لرجل من العرب : قد نزلت بجميع القبائل فكيف رايت خزاعة؟ قال : جوع واحاديث ! ونزل عمرو بن معدي كرب برجل من بني المغيرة ، وهم اكثر قريش طعاما ، فاتاه بما حضر ، وقد كان فيما اتاه به فضل ، فقال : لعمر بن الخطاب وهم اخواله : لئام بني المغيرة يا امير المؤمنين ! قال: وكيف ؟ قال : نزلت بهم فما قروني قرنين وكعب ثور . قال عمر : ان ذلك لشبعة .

وكم قد راينا من الاعراب من نزل برب صرمة ، فأتاه بلبن وتمر وحيس وخبز وسمن سلاء ، فبات ليلته ثم اصبح يهجوه ، كيف لم ينجر له ! وهو لا يعرف بعيرا من ذوده ، او من صرمته ، ولو نحر هذا البائس لكل كلب مر به بعيرا ، من مخافة لسانه ، لما دار الاسبوع ، الا وهو يتعرض للسابلة ، يتكفف الناس ويسالهم العلق !!

وسأل زياد عن رجل من اصحابه ؟ فقيل : انه لملازم ، وما يغيب غداء الامير ، فقال زياد : فليغبه فان ذلك مما يضر بالعيال . فالزموه الغب . فعابوا زيادا بذلك . وزعموا انه استثقل حضوره في كل يوم ، واراد ان يزجر به غيره . فيسقط عن نفسه وعن ماله مؤنة عظيمة .

وانما كان ذلك من زياد ، على جهة النظر للعيالات ، وكما ينظر الراعي للرعية . وعلى مذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه (وقد قال الحسن : تشبه زياد بعمر فافرط ، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس) فجعلتم عنتا منه .

وقال يوسف بن عمر لقوام موائده ، اعظموا الثريدة فانها لقمة الدرداء فقد يحضر طعامكم الشيخ الذي قد ذهب فمه ، والصبي الذي لم ينبت فمه . واطعموه ما تعرفون فانه انجح واشفى للقرم .

فقلتم انما اراد العجلة والراحة بسرعة الفراغ وان يكيدهم بالثريد ويملأ صدورهم بالعراق . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سيد الطعام الثريد ، ومثل عائشة في النساء مثل الثريد في الطعام) ولعظم صنعة الثريد في اعين قريش ، سموا عمرو بن عبد مناف بهاشم ، حين هشم الخبز ، واتخذ منه الثريد ، حتى غلب عليه الاسم المشتق له من ذلك . وقال عوف بن القعقاع لمولاه : اتخذ لنا طعاما يشبع فضله اهل الموسم .

قلتم فلما راى الخبز الرقاق ، والفلاظ والشواء ، والالوان ، واستطراف الناس اللون بعد اللون ، ودوام اكلهم لدوام الطرف ، وان ذلك لو كان لونا واحدا فكان اقل اكلهم ، قال : فهلا فعلته ، طعام يد ولم تجعله طعام يدين .

فقلتم التسع ثم ضاق ، حين اراد اطعامهم الثريد والحيس ، وكل ما يؤكل بيد دون يدين .

والقعقاع عربي ، كره لمولاه ان يرغب من طعام العرب . الى طعام العجم واراد دوام قومه ، على مثل ما كانوا عليه . وعلى ان الثروة تفتحهم وتفسدهم وان الذي فتح عليهم من باب الترفه ، اشد عليهم مما غلق عليهم من باب فضول اللذة .

وقد فعل عمر من جهة التأديب اكثر من ذلك ، حين دعي الى عرس فراى قدرا صفراء ، واخرى حمراء ، واحدة مرة ، واخرى حلوة ، وواحدة محمضة . فكازها كلها في قدر عظيمة . وقال : ان العرب اذا اكلت هذا قتل بعضها بعضا .



تفسير كلام أبي فاتك

اما قوله : الفتى لا يكون نشالا ، « فالنشال » عنده الذي يتناول من القدر ويأكل قبل النضج ، وقبل ان تنزل القدر ويتتام القوم . «والنشال» الذي يأخذ حرف الجرذقة فيفتحه ، ثم يغمسه في راس القدر ، ويشر به الدسم ، ويستاثر بذلك دون اصحابه ، « والمرسال » رجلان ، احدهما اذا وضع في فمه لقمة هريسة او ثريدة او حيسة او ارزة ، ارسلها في جوف حلقه ارسالا ، والوجه الاخر ، هو الذي اذا مشى في اشب من فسيل او شجر ، قبض على راس السعفة ، او على راس الغصن ، لينتحيها عن وجهه ، واذا قضى وطره ارسلها من يده ، فهي لا محالة تصك وجه صاحبه الذي يتلوه لا يحفل بذلك ولا يعرف ما فيه !!

واما « اللكام » فالذي في فيه اللقمة ، ثم يلكمها باخرى قبل اجادة مضغها او ابتلاعها ! « والمصاص » الذي يمص جوف قصبة العظم ، بعد ان استخرج مخه واستاثر به دون اصحابه ، واما « النفاض » فالذي اذا فرغ من غسل يده في الطشت نفض يديه من الماء ، فنضح على اصحابه ، واما « الدلاك » فالذي لا يجيد تنقية يديه بالاشنان ، ويجيد دلكها بالمنديل وله ايضا تفسير اخر ، وليس هو الذي نظنه وهو مليح وسيقع في موضعه ان شاء الله .

والمقور الذي يقور الجراذق (ويستأثر بالاوساط ويدع لاصحابه الحروف و « المغربل » الذي يأخذ وعاء الملح فيديره ادارة الغربال، يستأثر ليجمع ابازيره به دون اصحابه لا يبالي ان يدع ملحهم بلا ابزار «و المحلقم» الذي يتكلم واللقمة قد بلغت حلقومه تقول لهذا : قبيح ! دع الكلام الى وقت امكانه ، « والمسوغ » الذي يعظم اللقم فلا يزال قد غص ، ولا يزال يسيغه بالماء ، « والمبلعم » الذي اخذ حروف الرغيف ، او يغمز ظهر التمرة بابهامه، ليحملان له من الزبد والسمن ، ومن اللباء واللبن، ومن البيض النيمبرشت اكثر « والمخضر » الذي يلك يده بالاشنان من الغمر والودك حتى اذا اخضر واسود من الدرن ، دلك به شفته .

هذا تفسير ما ذكر الحارثي من كلام ابي فاتك ، فاما ما ذكره هو ، فان « اللطاع » معروف وهو الذي يلطع اصبعه ، ثم يعيدها في مرق القوم او لبنهم او سويقهم . وما اشبه ذلك « والقطاع الذي يعض على اللقمة فيقطع نصفها ، ثم يغمس النصف الاخر في الصباغ . « والنهاش » وهو معروف ، وهو الذي ينهش اللحم كما ينهش السبع « والمداد » الذي ربما عض على العصب التي لم تنضج ، وهو يمدها بفمه ويده توترها له ، فربما قطعها بنتره فيكون لها انتضاح على ثوب المؤاكل . وهو الذي اذا اكل مع اصحابه الرطب او التمر او الهريسة او الارزة ، فاتى على ما بين يديه مد ما بين ايديهم اليه . « والدفاع » الذي اذا وقع في القصعة عظم فصار مما يليه ، نحاه بلقمته من الخبز ، حتى تصير مكانه قطعة من لحم . وهو في ذلك كأنه يطلب بلقمته تشريب المرق دون اراغة اللحم . « المحول » هو الذي اذا راى كثرة النوى بين يديه احتال له حتى يخلطه بنوى صاحبه .

واما ما ذكره من « الضيف » و « الضيفن » فان الضيفن ضيف الضيف وانشد ابو زيد :

اذا جاء ضيف جاء الضيف ضيفن
فأودى بما يقري الضيوف الضيافن

واما قوله (الواغل) اهون علي من (الراشن) فأنه يزعم ان طفيلي الشراب ، اهون من طفيلي الطعام ، وقول الناس : فلان طفيلي ، ليس له من اصول كلام العرب ، ليس كالراشن واللعموظ ، واهل مكة يسمونه البرقي .

وكان بالكوفة رجل من بني عبدالله بن غطفان ، يسمى طفيلا وكان ابعد الناس نجعة في طلب الولائم والاعراس ، فقيل له لذلك : طفيل العرائس ، وصار ذلك نبزا له ولقبا ، ولا يعرف بغيره ، فصار كل من كانت تلك طعمته ، يقال له : طفيلي :

هذا من قول ابي اليقظان . ثم قال الحارثي : واعجب من كل عجب ، واطرف من كل طريف ، انكم تشيرون علي باطعام الاكلة ، ودفعي الى الناس مالي وانتم اترك لهذا مني . فان زعمتم اني اكثر مالا ، واعد عدة ، فليس من حالي وحالكم في التقارب . ان اطعم ابدا وانتم تأكلون ابدا ، فاذا اتيتم في اموالكم من البذل والاطعام ، على قدر احتمالكم ، عرفت بذلك ان الخير اردتم ، والى تربيتي ذهبتم ، والا فانكم انما تحلبون حلبا لكم شطره ، بل انتم كما قال الشاعر :

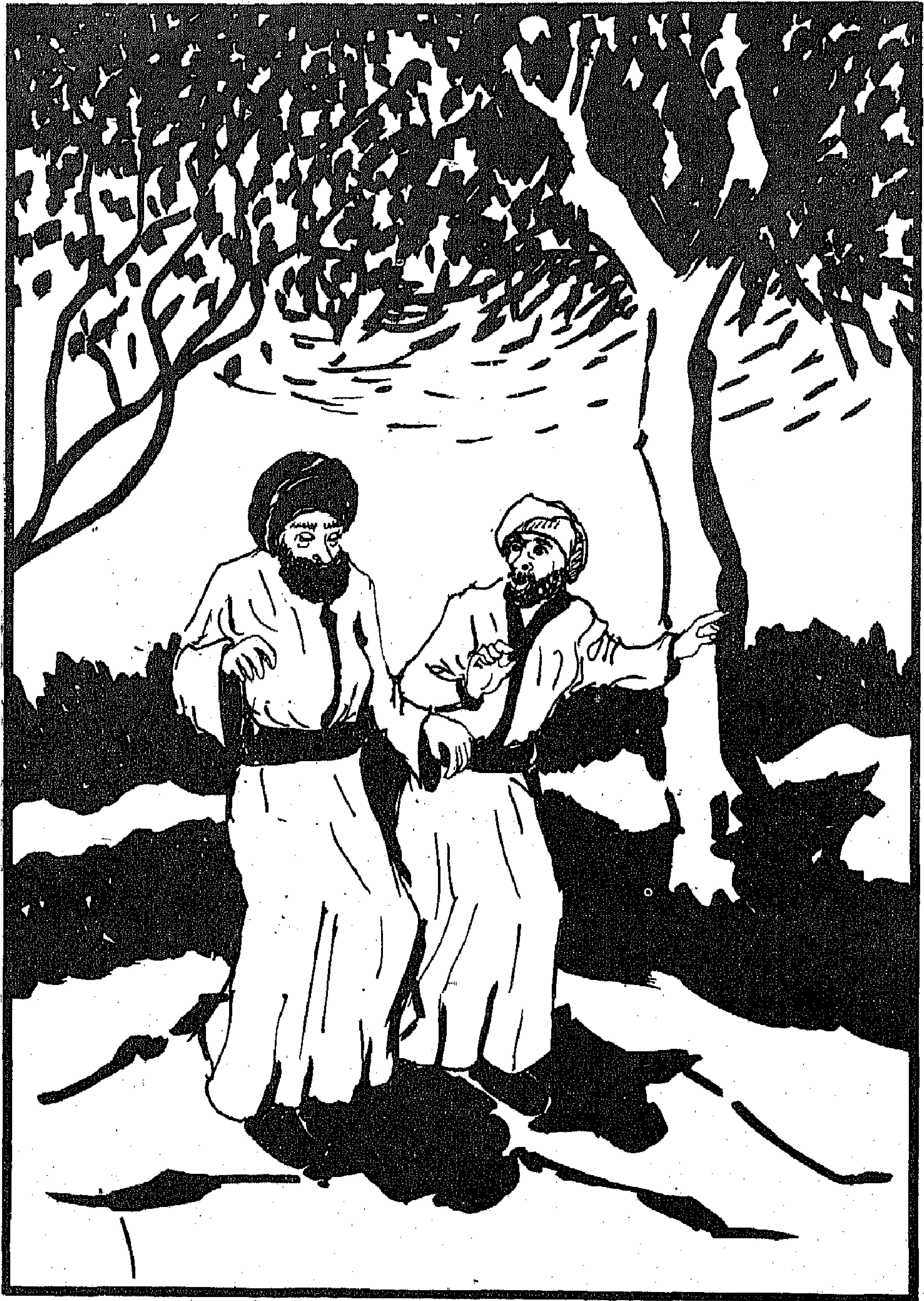
يحب الخمر من مال الندامى ويكره ان يفارقه الفلوس

قال : والله اني لو لم اترك مؤاكلة الناس واطعامهم، الا لسوء رعة علي الاسواري ، لتركته ، وما ظنكم برجل نهش بضعة لحم تعرقا فبلع ضرسه وهو لا يعلم ! فعل ذلك عند ابراهيم بن الخطاب مولى سليمان .

وكان اذا اكل ذهب عقله ، وجحظت عينه ، وسكر ، وسدر ، وانبهر ، وتزبد وجهه ، وعصب ولم يسمع ، ولم يبصر ، فلما رايت ما يعتريه ، وما يعتري الطعام منه ، صرت لا آذن له ، الا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلي، ولم يفاجاني قط وانا آكل تمرا الا استفه سفا ، وحساه حسوا ، وذرا به ذروا ، ولا وجده كثيرا الا تناول القصعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ بحضنيها ويقلها من الارض ، ثم لا يزال ينهشها طولا وعرضا ورفعا وخفضا ، حتى يأتي عليها جميعا ، ثم لا يقع غضبه الا على الانصاف والاتلاف !

ولم يفصل تمرة قط من تمرة ، وكان صاحب جمل ولم يكن يرضى بالتفاريق ، ولا رمى بنواة قط ، ولا نزع قمعا ، ولا نفى عنه قشر ، ولا فتشه مخافة السوس والدود !! ثم رايته قط ، الا وكانه طالب ثأر ، وشحشان صاحب طائلة ! وكانه عاشق مغتلم او جائع مقرور !

والله يا اخوتي لو رأيت رجلا يفسد طين الردغة ، ويضيع ماء البحر، لصرفت عنه وجهي ! فاذا كان اصحاب النظر واهل الديانة والفلسفة هذه سيرتهم ، وهكذا ادبهم ، فما ظنكم بمن لا يعد ما يعدون ، ولا يبلغ من الادب حيث يبلغون !!



قصة الكندي

حدثني عمرو بن نهيوي ، قال : كان الكندي لا يزال يقول للساكن ، وربما قال للجار : ان في الدار امرأة بها حمل ، والوحمى ربما اسقطت من ريح القدر الطيبة ! .فاذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة او لعقة ! فان النفس يردها اليسير ، فان لم تفعل ذلك بعد اعلامي اياك ، فكفارتك ان اسقطت غرة عبد او امة . الزمت ذلك نفسك ام ابيت !! قال : فكان ربما يوافي الى منزله من قصاع السكان والجيران ، ما يكفيه الايام ، وان كان اكثرهم يفطن ويتغافل .

وكان الكندي يقول لعياله انتم احسن حالا من ارباب هذه الضياع وانما بكل بيت منهم لون واحد وعندكم الوان .

قال : وكنت اتغدى عنده يوما ، اذ دخل عليه جار له ، وكان الجار لي صديقا ، فلم يعرض عليه الغداء ، فاستحييت انا منه ، فقلت : لو اصبت معنا مما نأكل ، قال : قد والله فعلت ، قال الكندي : ما بعد الله شيء ، قال : فكتفه والله يا ابا عثمان كتفا ، لا يستطيع معه قبضا ولا بسطا، وتركه ولو اكل لشهد عليه بالكفر ، ولكان عنده قد جعل مع الله شيئا .

قال عمرو : بينما انا ذات يوم عنده ، اذ سمع صوت انقلاب جرة من الدار الاخرى ، فصاح اي قصاف ، فقالت مجيبة له : بئر وحياتك ، فكانت الجارية في الذكاء اكثر منه في الاستقصاء .

قال سعيد : نزلنا دار الكندي اكثر من سنة ، نروج له الكراء ونقضي له الحوائج ونفي له بالشرط ، قلت : قد فهمت ترويج الكراء وقضاء الحوائج فما معنى الوفاء بالشرط ، قال : في شرط على السكان ان يكون له روث الدابة وبعر الشاة ونشوار العلوفة ، وان لا يخرجوا عظما ولا يخرجوا كساحة . وان يكون له نوى التمر ، وقشور الرمان والغرفة من كل قدر تطبخ للحبلى في بيته ! وكان في ذلك يتنزل عليهم ، فكانوا لطيبه وافراط بخله ، وحسن حديثه يتحملون ذلك !

قال معبد : فبينما انا كذلك ، اذ قدم ابن عم لي ومعه ابن له، اذا رقعة

منه قد جاءتني ، (ان كان مقام هذين القادمين ليلة او ليلتين احتملنا ذلك ، وان كان اطماع السكان في الليلة الواحدة ، يجر علينا الطمع في الليالي الكثيرة فكتبت اليه ليس (مقامهما عندنا الا شهرا او نحوه) فكتب الي (ان دارك بثلاثين درهما ، وانتم ستة ، لكل رأس خمسة ، فاذا قد زدت رجلين ، فلا بد من زيادة خمستين ، فالدار عليك من يومك هذا بأربعين) فكتبت اليه (وما يضرك من مقامهما ، وثقل ابدانهما على الارض ، التي تحمل الجبال ، وثقل مؤنتهما على دونك ، فاكتب الي بعذرك لاعرفه) .

ولم ادر اني اهجم على ما هجمت ، واني اقع منه فيما وقعت ، فكتب الي الخصال التي تدعو الى ذلك كثيرة ، وهي قائمة معروفة ، من ذلك سرعة امتلاء البالوعة ، وما في تنقيتها من شدة المؤنة ، ومن ذلك ، ان الاقدام اذا كثرت ، كثر المشي على ظهور السطوح المطينة ، وعلى ارض البيوت المجصصة ، والصعود على الدرج الكثيرة . فينقشر لذلك الطين ، وينفلسخ الجص ، وينكسر العتب ، مع انثناء الاجذاع لكثرة الوطيء ، وتكسرها لفرط الثقل .

واذا كثر الدخول والخروج ، والفتح والاغلاق ، والاقفال وجذب الاقفال ، تهشمت الابواب ، وتقلعت الرزات ، واذا كثر الصبيان وتضاعف البؤس ، نزعت مسامير الابواب ، وقلعت كل ضبة ، ونزعت كل رزة ، وكسرت كل حوزه ، وحفر معها آبار الددن وهشموا بلاطها بالمداحى ، هذا مع تخريب الحيطان بأوتاد ، وخشب الرفوف .

واذا كثر العيال والزوار والضيفان والندماء ، احتيج من صب الماء واتخاذ الحببة القاطرة ، والجرار الراشحة ، الى اضعاف ما كانوا عليه ، فكم من حائط قد تآكل اسفله ، وتناثر اعلاه ، واسترخى اساسه ، وتداعى بنيانه ، من قطر حب ورشح جر ، ومن فضل ماء البئر ومن سوء التدبير .

وعلى قدر كثرتهم ، يحتاجون من الخبيز والطبيخ ، ومن الوقود والتسخين ، والنار لا تبقى ولا تذر ، وانما الدور حطب لها ، وكل شيء فيها من متاع فهو اكل لها فكم من حريق قد اتى على اصل الغلة ، فكلفتم اهلها اغلظ النفقة . وربما كان ذلك عند غاية المسرة ، وشدة الحال ، وربما تعدت تلك الجناية الى دور الجيران ، والى مجاورة الابدان والاموال .

فلو ترك الناس حينئذ رب الدار ، وقدر بليته ، ومقدار مصيبته ، لكان عسى ذلك ان يكون محتملا ، ولكنهم يتشاءمون به ، ولا يزالون يستثقلون ذكره ، ويكثرون من لائمته وتعنيفه .

نعم ، ثم يتخذون المطابخ في العلالي على ظهور السطوح ، وان كان في ارض الدار فضل ، وفي صحنها متسع ، مع ما في ذلك من الخطار بالانس

والتغرير بالاموال ، وتعرض الحرم ليلة الحريق ، لاهل الفساد ، وهجومهم مع ذلك على سر مكتوم ، وخبي مستور ، من ضيف مستخف ، ورب دار متوار ، ومن شراب مكروه ، ومن كتاب متهم ، ومن مال جم اريد دفنه ، فاعجل الحريق اهله عن ذلك فيه ، ومن حالات كثيرة ، وامور لا يحب الناس ان يعرفوا بها .

ثم لا ينصبون التنانير ، ولا يمكنون للقدور ، الا على متن السطوح ، حيث ليس بينها وبين القصب والخشب الا الطين الرقيق ، والشيء الذي لا يقي ، هذا مع خفة المؤنة في احكامها ، وامن القلوب من المتالف بسببها .

فان كنتم تقدمون على ذلك منا ومنكم ، وانتم ذاكرون ، فهذا عجب ! وان كنتم لم تحفلوا بما عليكم في اموالنا ، ونسيتم ما عليكم في اموالكم ، فهذا اعجب .

ثم ان كثيرا منكم يدافع بالكراء ، ويماطل بالاداء ، حتى اذا جمعت اشهر عليه ، فر وخلى اربابها جياعا يتندمون على ما كان من حسن تقاضيهم واحسانهم ، فكان جزاؤهم وشكرهم ، اقتطاع حقوقهم ، والذهاب بأقواتهم .

ويسكنها الساكن حين يسكنها ، وقد كسحناها ونظفناها ، لتحسن في عين المستاجر وليرغب فيها الناظر ، فاذا خرج ترك فيها مزبلة وخرابا ، لا تصلحه الا النفقة الموجعة .

ثم لا يدع مترسا الا سرقه ، ولا سلما الا حمله ، ولا نقضا الا اخذه ، ولا برادة الا مضى بها معه ، ولا يدع دق الثوب ، والدق في الهاون والمنجان في ارض الدار ، ويدق على الاجذاع والحواضن الرواشن .

وان كانت الدار مقرمدة ، او بالآجر مفروشة ، وقد كان صاحبها جعل في ناحية منها صخرة ، ليكون الدق عليها ، ولتكون واقية دونها دعاهم التهاون والقسوة والغش والفسولة ، الى ان يدقوا حيث جلسوا ، والى الا يحفلوا بما افسدوا ، لم يعط قط لذلك ارشا ، ولا استحل صاحب الدار، ولا استغفر الله منه في السر .

ثم يستكثر من نفسه في السنة اخراج عشرة دراهم ، ولا يستكثر من رب الدار الف دينار في الشراء ، يذكر ما يصير الينا مع قلته ، ولا يذكر ما يصير اليه مع كثرته .

هذا والايام التي تنقض المبرم ، وتبلي الجدة ، وتفرق الجمع المجتمع، عاملة في الدور ، كما تعمل في الصخور ، وتأخذ من المنازل ، كما تأخذ من كل رطب ويابس وكما تجعل الرطب يابسا هشيما ، والهشيم مضمحلا .

ولانهدام المنازل غاية قريبة ، ومدة قصيرة . والساكن فيها هو كان المتمتع بها ، والمنتفع بمرافقها ، وهو الذي ابلى جدتها وتحلاها ، وبه هرمت وذهب عمرها لسوء تدبيرها .

فاذا اقسمنا الغرم عند انهدامها باعادتها ، وبعد ابتدائها ، وغرم ما بين ذلك من مرمتها ، واصلاحها ، ثم قابلنا بذلك ما اخذنا من غلاتها وارتفقنا به من اكرائها ، خرج على المسكن من الخسران ، بقدر ما حصل للساكن من الربح ، الا ان الدراهم التي اخرجناها من النفقة ، كانت جملة ، والتي اخذناها على جهة الغلة ، جاءت مقطعة .

وهذا من سوء القضاء والاحواج الى طول الاقتضاء ، ومع بعض الساكن للمسكن ، وحب المسكن للساكن ، لان المسكن يحب صحة بدن الساكن ، ونفاق سوقه ، أن كان تاجرا ، وتحرك صناعته ان كان صانعا ومحبة الساكن ان يشغل الله المسكن كيف شاء ، ان شاء شغله بعينه ، وان شاء بزمانه ، وان شاء بحبس وان شاء بموت .

ومدار مناه ان يشغل عنه ، ثم لا يبالي كيف كان ذلك الشغل ! الا انه كلما كان اشد ، كان احب اليه ، وكان اجدر ان يأمن ، واخلف لان يسكن وعلى انه اذا فترت سوقه ، او كسدت صناعته ، الح في طلب التخفيف من اصل الغلة . والحطيطة ، مما حصل عليه من الاجرة ، وعلى انه ان اتاه الله بالارباح في تجارته . والنفاق في صناعته . لم ير ان يزيد قيراطا في ضريبته . ولا ان يعجل فلسا قبل وقته !

ثم ان كانت الغلة صحاحا ، دفع اكثرها مقطعة ، وان كانت انصافا وارباعا ، دفعها قراضة مفتتة . ثم لا يدع مزبقا ولا مكحلا ولا زائفا ولا دينارا بهرجا الا دسه فيه . ودلسه عليه . واحتال بكل حيلة . وتأتي له بكل سبب . فان ردوا عليه بعد ذلك شيئا . حلف بالغموس انه ليس من دراهمه . ولا من ماله . ولا راه قط ولا كان في ملكه !!

فان كان الرسول جارية رب الدار . افسدها وربما اجلها . وان كان غلاما خدعه . هذا مع الاشراف على الجيران . والتعرض للجارات . ومع اصطياد طيورهم وتعريضنا لشكاياتهم .

وربما استضعف عقولهم . وطمع في فسادهم وعيبهم . فلا يزال يضرب لهم بالاسلاف ويغريهم بالشهوات . ويفتح لهم ابوابا من النفقات ، ليغنيهم ويربح عليهم . حتى اذا استوثق منهم . اعجلهم وحرق بهم . حتى يتقوه ببيع الدار . او باسترهان الجميع ليربح مع الذهاب بالاصل . السلامة . مع طول مقامه من الكراء . وبما جعله بيعا في الظاهر . ورهنا في الباطن . فحينئذ يفظ بهم دون المهلة ويدعيها قبل الوقت .

وربما بلغ من استضعافه واستثقاله لاداء الكراء . ان يدعي ان له شقيصا وان له يدا . ليصير خصما من الخصوم . ومنازعا غير غاصب .

وربما اكترى المنزل وفيه مرمة . فاشترى بعض ما يصلحها ثم يتوخى

عاملا جيد الكسوة . وجيرانا اصحاب آنية وآلة . فاذا شغل العامل وغفل. اشتمل على كل ما قدر عليه . وتركهم يتسكعون .

وربما استأجر الى جنب سجن . لينقب اهله اليه . والى جنب صراف لينقب عليه طلبا لطول المهلة والستر . ولطول المدة والامن . وربما جنى الساكن ما يدعو الى هدم دار المسكن بان يقتل قتيلا . او يجرح شريفا . فيأتي السلطان الدار . واربابها اما غيب واما ايتام واما ضعفاء . فلا يصنع شيئا دون ان يسويها بالارض .

وبعد فالدور ملقاة . وارباها منكوبون وملقون . وهم اشد الناس اغترارا بالناس ، وابعدهم غاية من سلامة الصدور ، وذلك ان من دفع داره ونقضها وساجها وابوابها مع حديدها ، وسقوفها الى مجهول لا يعرف ، فقد وضعها في مواضع الفرر . وعلى عظم الخطر . وقد صار في معنى المودع، وصار المكتري في موضع المودع، ثم ليست الخيانة وسوء الولاية، الى شيء من الودائع . اسرع منها الى الدور .

وايضا ان اصلح السكان حالا . من اذا وجد في الدار مرمة ، فقوضوا اليه النفقة . وان يكون ذلك محسوبا له عند الاهلة ، يشفف في البناء ، ويزيد في الحساب ، فما ظنك بقوم هؤلاء اصلحهم وهم خيارهم ؟؟ وانتم ايضا انما اكتريتم مستغلات غيركم بأكثر مما اكتريتموها منه ، فسيروا فينا كسيرتكم فيهم . واعطونا من انفسكم مثل ما تريدونه منهم .

وربما بنيتم في الارض ، فاذا صار البناء بنيانكم ، وان كانت الارض لغيركم ، ادعيتم الشركة ، جعلتموه كالاجارة ، وحتى تصيروه كتلاد مال ، او موروث سلف .

وجرم اخر وهو انكم اهلكتم اصول اموالنا ، واخربتم غلاتنا، وحططتم بسوء معاملتكم ، اثمان دورنا ومستغلاتنا ، حتى سقطت غلات الدور من اعين المياسير واهل الثروة ، ومن اعين العوام والحشوة ، وحتى يدافعوكم بكل حيلة ، وصرفوا اموالهم في كل وجه ، وحتى قال عبيدالله بن الحسن قولا ارسله مثلا ، وعاد علينا حجة وضررا وذلك انه قال " غلة الدار مسألة وغلة النخل كفاف ، وانما الغلة غلة الزرع والنسولتين .

وانما جر ذلك علينا حسن اقتضائنا ، وصبرنا على سوء قضائكم وانتم تقطعونها علينا وهي عليكم مجملة ، وتلوونا بها وهي عليكم حالة . فصارت لذلك غلات الدور ، وان كانت اكثر ثمنا ودخلا ، اقل ثمنا واخبث اصلا من سائر الغلات .

وانتم شر علينا من الهند والروم ، ومن الترك والديلم ، اذ كنتم ، احضر اذى وادوم شرا ، ثم كانت هذه صفتكم وحيلتكم ومعاملتكم ، في شيء لا بد لكم منه ، فكيف كنتم لو امتحنتم، بما لكم عنه مندوحة، والوجوه لكم فيه معرضة ، وانتم فيها بالخيار ، وليس عليكم طريق الاضطرار ؟

وهذا مع قولكم ان نزول دور الكراء ، اصوب من نزول دور الشراء ، وقلتم لان صاحب الشراء قد اغلق رهنه ، واشرط نفسه ، وصار بهـا ممتحنا ، وبثمنها مرتهنا ، ومن اتخذ دارا ، فقد اقام كفيلا لا يخفر ، وزعيما لا يغرم ، وان غاب عنها حن اليها ، وان اقام فيها الزمته المؤن ، وعرضته للفتن ، ان اساءوا جواره ، وانكر مكانه ، وبعد مصلاه ، ومات عنه سوقه ، وتفاوتت حوائجه ، ورأى انه قد اخطأ في اختيارها على سواها ، وانه لـم يوفق لرشده حين آثرها على غيرها وان من كان كذلك فهو عبد داره، وخول جـاره .

وان صاحب الكراء الخيار في يده ، والامر اليه ، فكل دار هـي لـه متنزه . ان شاء ، ومتجر ان شاء ، ومسكن ان شاء لم يحتمل فيها اليسير من الذل ، ولا القليل من الضيم ، ولا يعرف الهوان ولا يسأم الخسف ، ولا يحترس من الحساد ، ولا يداري المتعللين .

وصاحب الشراء يجرع المرار ، ويسقى بكأس الغيظ ، ويكد لطلب الحوائج ، ويحتمل الذلة ، وان كان ذا انفة ، ان عفا ، على كظم ، ولا يوجه منه الا ان العجز وان رام المكافأة تعرض لاكثر مما انكره ، قال رسول اللـه صلى الله عليه وسلم : الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق .

وزعمتم ان تسقط الكراء اهون اذ كان شيئا بعد شيء . وان الشدائد اذا وقعت جملة ، جاءت غامرة للقوة ، فأما اذا تقطع وتفرق ، فليس يكترث لها ، الا من يفقدها ويذكرها .

ومال الشراء يخرج جملة ، وثلمته في المال واسعة ، وطعنته نافذة ، وليس كل خرق يرقع ، ولا كل خارج يرجع ، وانه قد امـن من الحـرق والغرق ، وميل اسطوان وانقصاف سهم ، واسترخاء اساس وسقـوط ستره ، وسوء جوار ، وحسد مشاكل ، وانه اما لا يزال في بلاء ، واما ان يكون يتوقعا لبلاء .

وقلتم ان كان تاجرا ، فتصريف ثمن الدار في وجوه التجارات اربح ، وتحويله في اصناف البيعات اكيس ، وان لـم يكن تاجرا ففي ما وصفناه له ناه ، وفيما عددنا له زاجر ، فلم يمنعكم حرمة المساكنة ، وحـق المجاورة والحاجة الى السكنى ، وموافقة المنزل ، ان اشرتم على الناس بترك الشراء ،

وفي كساد الدور فساد لاثمان الدور ، وجراءة للمستأجر ، واستحطاط من الغلة ، وخسران في اصل المال .

وزعمتم انكم قد احسنتم الينا حين حثثتم الناس على الكراء ، لما في ذلك من الرخاء والنماء ، فانتم لم تريدوا نفعا بترغيبهم في الكراء ، بل انما اردتم ان تضرونا بتزهيدكم في الشراء !

وليس ينبغي ان يحكم على كل قوم الا بسبيلهم ، وبالذي يغلب عليهم من اعمالهم ، فهذه الخصال المذمومة ، كلها فيكم ، وكلها حجة عليكم ، وكلها داعية الى تهمتكم واخذ الحذر منكم ، ولبست له خصلة محمودة ، ولا خلة فيما بيننا وبينكم مرضية . وقد اريناكم ان حكم النازلين ، كحكم المقيمين . وان كل زيادة . فلها نصيب من الغلة . ولو تغافلت للكرويا اخا اهل البصر عن زيادة رجلين. لم ابعدك على قدر ما رايت منك. ان تلزمني ذلك. فيما يتبين . حتى يصير كراء الواحد لكراء الالف . وتصير الاقامة كالظعن والتفريغ كالشغل . وعلى اني لو كنت امسكت عن تقاضيك . وتغافلت عن تعريفك ما عليك . لذهب الاحسان اليك باطلا . ان كنت لا ترى للزيادة قدرا . وقد قال الاول :

والكفر مخبثة لنفس المنعم

وقال الاخـر :

تبدلت بالمعروف نكرا وربما　　　تنكر للمعروف من كـان يكفر

انت تطالبني ببغض المعتزلة للشيعة ، وبما بين اهل الكوفة والبصرة ، وبالعداوة التي بين اسد وكندة ، وبما في قلب الساكن من استثقال المسكن ، وسيمين الله عليك والسلام » .



قال اسماعيل بن غزوان ، لله در الكندي ما كان احكمه ، واحـضر حجته وانصح جيبه ، وادوم طريقته ! رايته وقد اقبل على جماعة ، ما فيها الا مفسد ، او من يزين الفساد لاهله ، من شاعر بوده ان الناس كلهم ، قد جاوزوا حد المسرفين الى حدود المجانين ! ومن صاحب تنقيـع واستئصال ومن ملاق متقرب فقال : تسمون من منع المال من وجوه الخطا، وحصنه خوفا من الغيلة ، وحفظه اشفاقا من الذلة ، بخيلا !! يريدون بذلك ذمه وشينه ! وتسمون من جهل فضل الغنى ، ولم يعرف ذلة الفقر ، واعطى في السرف وتهاون بالخطا ، وابتذل النعمة واهان نفسه باكرام غيره ، جوادا ! تريدون بذلك حمده ومدحه .

فاتهموا على انفسكم ، من قدمكم على نفسه ، فان من اخطا على نفسه فهو اجدر ان يخطىء على غيره ، ومن اخطا في ظاهر دنياه ، وفيما يوجد في العين ، كان اجدر ان يخطىء في باطن دينه ، وفيما يوجد بالعقل فمدحتم ، من جميع صنوف الخطا وذممتم من جميع صنوف الصواب ، فاحذروهم كل الحذر ، ولا تامنوهم على حال .

قال اسماعيل وسمعت الكندي يقول : انما المال لمن حفظه ، وانما الغنى لمن تمسك به ولحفظ المال بنيت الحيطان ، وغلقت الابواب، واتخذت

الصناديق وعملت الاقفال ، ونقشت الرسوم والخواتيم ، ويعلم الحساب والكتاب .

فلم يتخذون هذه الوقايات دون المال ، وانتم آفتــه ، وانتم سوسه وقادحه ، وقد قال الاول . احرس اخاك الا من نفسه ، ولكن احسب انك قد اخذته في الجواسق واودعته الصخور ، ولم يشعر بــه صديــق ، ولا رسول ولا مفبن . من لك بأن لا تكون اشد عليه من السارق ، واعدى عليــه من الغاصب . واجعلك قد حصنته من كل يد لا تملكه ، كيف لــك من ان تحصنه من اليد التي تملكه ، وهي عليه اقدر ودواعيها اكثر .

وقد علمنا ان حفظ المال ، اشد من جمعه ، وهل يأتي الناس الا من انفسهم تم ثقافتهم ؟ والمال لمن حفظه ، والحسرة لمن اتلفه ، وانفاقــه هــو اتلافه . وان حسنتموه بهذا الاسم ، وزينتموه بهذا اللقب ، وزعمتم انمــا سمينا البخل صلاحا ، والشح اقتصادا ، كما سمى قوم الهزيمة انحيازا ، والبذاء عارضة والعزل عن الولايــة صرفا ، والجــائز على اهل الخــراج مستقصيا ، بل انتم اللذين سميتم السرف جودا ، والنفح اريحية ، وسوء نظر المرء لنفسه ولعقبه كرما . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ابدأ بمن تعول) وانت تريد ان تغني عيال غيرك ، بافقار عيالك ، وتسعد الغريب بشقوة القريب ، وتتفضل على من لا يعدل عنك ، ومن لو اعطيته ابدا لاخذ ابدا !

وقد علمتم ما قال صاحبنا لاحي تغلب . فأنه قال : يا اخا تغلب ، اني والله كنت اجري ما جرى هذا الفيل ، واجري وقد انقطع النيل ، اني والله لو اعطيتك ، لما وصلت اليك ، حتى اتجاوز من هو احق بذلك منك ، انــي لو امكنت الناس من مالي ، لنرعوا اداري طوبة طوبة ! انه والله ما بقي معي منه الا ما منعته الناس ، ولكني اقول : والله لو امكنت الناس من نفسي ، لادعوا رقي بعد سلب نعمتي .

قال اسماعيل وسمعته يقول : عجيب لمن قلت دراهمه كيف ينام ، ولكن لا يستوي من لم ينم سرورا ، ومن لم ينم غما .

ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه في وصية المرء يــوم فقــره وحاجته وقبل ان يفرغر (الثلث والثلث كثير) فاستحسنت الفقهاء ، وتمنى الصالحون ان ننقص من الثلث شيئا ، لاستكثار رسول الله صلى الله عليه وسلم الثلث ، ولقوله : « انك لئن تدع عيالك اغنياء ، خير من ان تدعهم عالة يتكففون الناس » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يرحم عيالنا الا بفضل رحمته لنا ، فكيف تأمرنى ان اوثر انفسكم على نفسي ، واقدم عيالكم على عيالي ،

وان اعتقد الثناء بدلا من الغنى ، وان اكثر الربح واصطنع السراب بدلا من الذهب والفضة ؟ قال اسماعيل : وسمعته يقول لعياله واصحابه : اصبروا عن الرطب عند ابتدائه واوائله ، وعن باكورات الفاكهة ، فان للنفس عند كل طارف نزوة ، وعند كل هاجم نزوة ، وللقادم حلاوة وفرحة ، وللجديد بشاشة وغرة فانك متى رددتها ارتدت ومتى ردعتها ارتدعت .

والنفس عزوف ونفور الوف . وما حملتها احتملت ، وان اهملتها فسدت فان لم تكف جميع دواعيها . وتحسم جميع خواطرها في اول ردة ، صارت اقل عددا واضعف قوة ، فاذا اثر ذلك فيها فعظها في تلك الباكورة بالغلاء والقلة . فان ذكر الغلاء والقلة ، حجة صحيحة ، وعلة عاملة في الطبيعة .

فاذا اجابتك في الباكورة ، فسمها مثل ذلك في اوائل كثرتها ، واضرب نقصان الشهوة ، ونقصان قوة الغلبة ، بمقدار ما حدث لها من الرخص والكثرة ، فلست تلقى على هذا الحساب من معالجة الشهوة عندك ، الا مثل ما لقيت منها في نومك ، حتى تنقضي ايام الفاكهة ، وانت على مثل ابتداء حالك ، وعلى اول مجاهدتك لشهوتك .

ومتى لم تعد ايضا الشهوة فتنة ، والهوى عدوا ، اغتررت بهما ، وضعفت عنهما ، وائتمنتهما على نفسك . وهما اخطر عدو وشر دخيل .

فاضمنوا لي النزوة الاولى ، اضمن لكم تمام الصبر . وعاقبة اليسر . وثبات العز في قلوبكم ، والغنى في اعقابكم ، ودوام تعظيم الناس لكم ، فانه لو لم يكن من منفعة الغنى . الا انك لا تزال معظما عند من لم ينل منك قط درهما . لكن الفضل في ذلك بينا ، والربح ظاهرا ، ولو لم يكن من بركة الثروة . ومن منفعة اليسر ، الا ان رب المال الكثير لو اتصل بملك كبير في جلساته . ومن هو اوجب حرمة. واقدم صحبة واصدق محبة وامتع امتاعا واكثر فائدة وصوابا ، الا انه خفيف الحال . قليل ذات اليد . ثم اراد ذلك الملك . ان يقسم مالا او يوزع بينهم طرفا . لجعل حظ الموسر اكثر وان كان في كل شيء دون اصحابه . وحظ المخفف اقل وان كان في كل شيء فوق اصحابه .



لقد ذكرنا رسالة سهل بن هارون . ومذهب الخزامي وقصص الكندي . واحاديث الحارثي . واحتجاجاتهم . وطرائف نحلهم وبدائع حيلهم .

قصة محمد بن علي المؤمل

قلت لمحمد بن ابي المؤمل : اراك تطعم الطعام وتخذه ، وتنفق المال وتجود به ، وليس بين قلة الخبز وكثرته ، كثير ربح ، الناس يبخلون من قل عدد خبزه ، ورأوا ارض خوانه ، وعلى اني ارى جماجم من يأكل معك ، اكثر من عدد خبزك .

وانت لو لم تتكلف ، ولم تحمل على مالك باجادته ، والتكثير منه ، ثم اكلت وحدك لم يلمك الناس ، ولم يكترثوا لذلك منك ، ولم يقضوا عليك بالبخل ، ولا بالسخاء ، وعشت سليما موفورا ، وكنت كواحد من عرض الناس .

وانت لم تنفق الحرائب ، وتبذل المصون ، الا وانت راغب في الذكر والشكر والا لتخزن الاجر ، فقد صرنا لقلة عدد خبزك من بين الاشياء، نرضى لك من الغنيمة بالاياب ، ومن غنم الحمد والشكر ، بالسلامة من الذم واللؤم !! فزد في عدد خبزك شيئا ، فان بتلك الزيادة القليلة ، ينقلب ذلك اللؤم شكرا ، وذلك الذم حمدا .

اعلمتْ انك تخرج من هذا الامر ، بعد الكلفة العظيمة ، سالما لا لك ولا عليك ؟ فانظر في هذا الامر رحمك الله !

قال : يا ابن عثمان انت تخطيء ، وخطأ العاقل ابدا يكون عظيما ، وان كان في العذر قليلا ، لانه اذا اخطأ اخطأ بتفقه واحكام . فعلى قدر التفكر والتكلف ، يبعد من الرشاد ، ويذهب عن سبيل الصواب ، وما اشك انك قد نصحت بمبلغ الراي منك ولكن خف ما خوفتك ، وانه مخوف ! بل الذي اضع ادل على سخاء النفس بالماكول وادل على الاحتيال ليبالغوا ، لان الخبز اذ كثر على الموائد ، ورث ذلك النفس صدودا ، ولان كل شيء من الماكول وغير الماكول ، اذا ملأ العين ملأ الصدر ، وفي ذلك موت الشهوة ، وتسكين الحركة .

ولو ان رجلا جلس على بيدر تمر فائق ، وعلى كدس كمثري منعوت، وعلى مائة قنو موز موصوف ، لم يكن اكله الا على قدر استطرافه ، ولم

يكن اكله الا على قدر اكله ، اذا اتى بذلك في طبق نظيف ، مع خادم نظيف ، عليه منديل نظيف .

وبعد فأصحابنا آنسون واثقون مسترسلون ، يعلمون ان الطعام لهم اخير ، وان اكلهم له اوفق من تمزيق الخدم والاتباع له ، ولو احتاجوا لدعوا به ، ولم يحتشموا منه ، ولكان الاقل منهم ان يجربوا ذلك المرة والمرتين ، وان لا يقضوا علينا بالبخل دون ان يروه ، فان كانوا محتشمين وقد بسطناهم ، وساء ظنهم بنا ، مع ما يرون من الكلفة لهم ، فهؤلاء اصحاب تجن وتسرع ، وليس في طاقتي اعتاب المتجني ولا رد المتسرع .

قلت له : اني قد رأيت اكلهم في منازلهم ، وعند اخوانهم ، وفي حالات كثيرة ومواضع مختلفة ، ورأيت اكلهم عندك ، فرايت شيئا متفاوتا ، وامرا متفاقما ، فأحسب ان البخل عليهم غالب ، وان الضعف لهم شامل ، وان سوء الظن يسرع اليهم خاصة ، ثم لا نداري هذا الامر بما لا مؤنة فيه ، وبالشيء الذي لا اقدر له ؟ او تدع دعاءهم والارسال اليهم ، والحرص على اجابتهم ؟

والقوم ليس يلقون انفسهم عليك ، وانما يجيئونك بالاستحباب منك ، فان احببت ان تمتحن ما اقول ، فدع مواترة الرسل والكتب ، والتغضب عليهم اذا ابطأوا ، ثم انظر .

قال : فان الخبز اذا كثر على الخوان ، فالفاضل مما ياكلون ، لا يسلم من التلطخ والتغمير ، والجرذقة الغمرة ، والرقاقة المتلطخة ، لا اقدر ان انظر اليها ، واستحي ايضا من اعادتها ، فيذهب ذلك الفضل باطلا ، والله لا يحب الباطل !

قلت : فان ناسا يأمرون بمسحه . ويجعلون الثريدة منه ، فلو اخذت بزيهم ، وسلكت سبيلهم ، اتى ذلك على ما تريد ونريد .

قال : افلست اعلم كيف الثريدة ومن اي شيء هي ، وكيف امنع نفسي التوهم ، وأحول بينهم وبين التذكير ؟ ولعل القوم ان يعرفوا ذلك على طول الايام ، فيكون هذا قبيحا .

قلت : فتأمر به للعيال ، فيقدم الجوازي المتلطخ ، مقام الخشكار النظيف وعلى ان المسح والدلك ، ياتي على ما تعلق به الدسم .

قال : عيالي يرحمك الله ! عيالان : واحد اعظمه عن هذا وارفعه عنه ، واخر لم يبلغ عندي ان يترف بالجواري !

قلت : فاجعل اذا جميع خبزك الخشكار، فان فضل ما بينه والجواري، في الحسن والطيب ، لا يقوم بفضل ما بين الحمد والذم .

قال : فها هنا راي هو اعدل الامور واقصدها ، وهو انا نحضر هذه

الزيادة من الخبز ، على طبق ، ويكون قريبا حيث تناوله اليد ، فلا يحتاج احد مع قربه منه الى ان يدعو به ، ويكون قربه من يده ، كثرة على مادته .

قلت : فالمانع من طلبه هو المانع من تحويله ، فاطممني واخرج هذه الزيادة من مالك كيف شئت . واعلم ان هذه المقايسة ، وطول هذه المذاكرة اضر علينا مما نهيتك عنه ، واردتك على خلافه .

فلما حضر وقت الغداء ، صوت بغلامه وكان ضخما جهير الصوت ، صاحب تقعير وتفخيم وتشديق ، وهمز وجزم ، يا مبشر ! هات من الخبز تمام عدد الرؤوس !

قلت : ومن فرض لهم هذه الفريضة ؟ ومن جزم عليهم هذا الجزم ؟ ارأيت ان لم يشبع احدهم رغيفه ، اليس لا بد له من ان يعدل على رغيف صاحبه ، او يتنحى وعليه بقية ، ويعلق يده منتظرا للعادة ؟ فقد عاذ الامر وبطل ما تناظرنا فيه .

قال : لا اعلم الا ترك الطعام البتة اهون علينا من هذه الخصومة !

قلت : هذا ما لا شك فيه ، وقد علمت عندي بالصواب ، واخذت لنفسك بالثقة ان وفيت بهذا القول .

وكان اكثر ما يقول : يا غلام هات شيئا من قلية واقل منها ، واعد لنا ماء باردا واكثر منه !!

وكان يقول قد تغير كل شيء من امر الدنيا ، وحال عن امره وتبدل ، حتى المؤاكلة .

قاتل الله رجالا كنا نؤاكلهم : ما رايت قصعة قط . رفعت من بين ايديهم الا وفيها فضل !! وكانوا يعلمون ان احضار الجدي انما هو شيء من آئين الموائد الرفيعة ، وانما جعل كالعاقبة والخاتمة . وكالعلامة لليسر والفراغ ، وانه لم يحضر للتمزيق والتخريب ، وان اهله لو ارادوا به السوء لقدموه قبل كل شيء . لتقع الحدة به بل بما اكل منه اذا جيء به الا العابث . والا للذي لو لم يره ، لقد كان رفع يده ولم ينتظر غيره ! ولذلك قال ابو الحارث جمين ، حين رآه لا يمس هذا المدفوع عنه ولولا انه على ذلك شاهد الناس ، لما قال ما قال .

ولقد كانوا يتحاملون بيضة البقيلة ويدعها كل واحد منهم لصاحبه . حتى ان القصعة لقد كانت ترفع . وان البيض خاصة لعلى حاله . وانت اليوم اذا اردت ان تمتع عينك بنظرة واحدة منها ، ومن بيض السلاءة لم تقدر على ذلك ! لا جرم لقد كان تركه ناس كثير ما بهم الا ان يكونوا شركاء من ساءت رعته .

وكان يقول : الادام اعداء للخبز ، واعداها له المالح ، فلولا ان الله

انتقم منه ، واعان عليه بطلب صاحبه الماء واكثاره منه . لظننت انه سيأتي على الحرث والنسل !

وكان مع هذا يقول لو شرب الناس الماء على الطعام ما اتخموا . واقلهم عليه شربا اكثرهم عنه تخما . وذلك ان الرجل لا يعرف مقدار ما اكل . حتى ينال من الماء . وربما كان شبعان وهو لا يدري . فاذا ازداد على مقدار الحاجة بشم واذا نال من الماء شيئا بعد شيء ، عرفه ذلك مقدار الحاجات. فلم يزد الا بقدر المصلحة .

والاطباء يعلمون ما اقول حقا ، ولكنهم يعلمون انهم لو اخذوا بهذا الراي لتعطلوا . ولذهب المكسب. وما حاجة الناس الى المعالجين اذا صحت ابدانهم ؟ وفي قول جميع الناس : ان ماء دجلة امرأ من الفرات ، وان ماء مهران امرأ من ماء نهر بلخ ، وفي قول العرب : هذا ماء نمير يصلح عليه المال دليل على ان الماء يمري حتى قالوا : ان الماء الذي يكون عليه النفاطات امرأ من الماء الذي يكون عليه التيارات فعليكم بشرب الماء على الغداء فان ذلك امرأ .

وكان يقول*: ما بال الرجل اذا قال : يا غلام اسقني ماء ، واسق فلانا ماء اتاه بقلة على قدر الري . فاذا قال اطعمني شيئا او قال : هات لفلان طعاما . اتاه من الخبز بما يفضل عن الجماعة . والطعام والشراب اخوان متحالفان ومتآزران ؟

وكان يقول : لولا رخص الماء وغلاء الخبز لما كلبوا على الخبز وزهدوا في الماء . والناس اشد شيئا تعظيما للمأكول اذ كثر ثمنه ، او كان قليلا في اصل منبته . وموضع عنصره . هذا الجزء الصافي ، وهذا الباقلي الاخضر العباسي اطيب من كمثرى خراسان . ومن الموز البستاني. ولكنهم لقصر همتهم لا يشتهون الا على قدر الثمن ولا يحنون الى الشيء الا على قدر القلة . وهذه العوام في شهوات الاطعمة انما تذهب مع التقليد . او مع العادة . او على قدر ما يعظم عندها من شأن الطعام .

وانا لست اطعم الجزر المسلوق بالخل والزيت والمري . دون الكمأة بالزبد والفلفل لمكان الرخص . او لموضع الاستقضال . ولكن لمكان طيبه في الحقيقة . ولانه مالح الطبيعة . علم ذلك من علم وجهل ذلك من جهل !

وكان اذا كان في منزله فربما دخل عليه الصديق له . وقد كان تقدمه الزائر او الزائرون . وكان يستعمل على خوانه من الخدم والمكائدوالتدبير. ما لم يبلغ بعضه قيس بن زهير والمهلب بن ابي صفرة ، وخازم بن ابي خزيمة . وهرثمة بن اعين ، وكان عنده فيه من الاحتيال ، ما لا يعرفه

عمرو بن العاص ، ولا المغيرة بن شعبة ، وكان كثيرا ما يمسك الخلال بيده ليؤيس الداخل عليه من غدائه .

فاذا دخل عليه الصديق له ، وقد عزم على اطعام الزائر والزائرين قبله ، وضاق صدره بالثالث ، وان كان قد دعاه وطلب اليه اراد ان يحتال له ، او الرابع ، ان ابتلى كل واحد منهما بصاحبه .

فيقول عند اول دخوله وخلع نعله ، وهو رافع صوته ، بالتنويه ، وبالتشنيع هات يا مبشر لفلان شيئا يطعم منه ! هات له شيئا ينال منه ! اتكالا على خجله او غضبه او انفته ، وطمعا في ان يقول : قد فعلت فان اخطأ ذلك الشقي ، وضعف قلبه وحصر ، وقال : قد فعلت ، وعلم انه قد احرزه وحصله ، والقاه وراء ظهره ، ولم يرض بذلك حتى يقول: بأي شيء تغديت ؟ فلا بد له من ان يكذب ان ينتحل المعاريض .

فاذا استوثق منه رباطا ، وتركه لا يستطع ان يترمرم ، لم يرض بذلك حتى يقول في حديث له : كنا عند فلان ، فدعاه الى غدائه فامتنع ، ثم بدا له فقال : في طعامكم بقيلة انتم تجيدونها .

ثم تناوله ، فلا يزال يزيد في وثاقه ، وفي سد الابواب عليه ، وفي منعه ، البدوات ، حتى اذا بلغ الغاية قال : يا مبشر اما اذا تغدى فلان واكتفى فهات لنا شيئا نعبث به ! فاذا وضعوا الطعام اقبل على اشدهم حياء ، او على اشدهم اكلا ، فسأله عن حديث حسن ، او عن خبر طويل، ولا يسأله الا عن حديث ، يحتاج فيه الى الاشارة باليد او الراس ، كل ذلك ليشغله .

فاذا هم اكلوا صدرا ، اظهر الفتور والتشاغل والتنقر ، كالشبعان الممتلىء، وهو في ذلك غير رافع يده ، ولا قاطع اكله ، انما هو النتف بعد النتف ، وتعلق اليد في خلل ذلك .

فلا بد من ان ينقبض بعضهم ويرفع يده ، وربما شمل ذلك جماعتهم ، فاذا علم انه قد احرزهم واحتال لهم، حتى يقلعهم من مواضعهم من حوال الخوان ، ويعيدهم الى مواضعهم من مجالسهم ، ابتدا الاكل فأكل اكل الجائع المقرور ! وقال : انما الاكل تارات ، والشرب تارات .

***

وكان كثيرا ما يقول لاصحابه اذا بكروا عليه : لم لا نشرب اقداحا على الريق ؟ فانها تقتل الديدان ، وتحفش لانفسنا قليلا ، فانها تأتي على جميع الفضول ، وتشهي الطعام بعد ساعة ! وسكره اطيب من سكر الكظة

والشراب على الميلة بلاء ، وهو بعد ذلك دليل على ان نبيذي خالص، ومن لم يشرب على الريق فهو نكس في الفتوة ، ودعي في اصحاب النبيذ، وانما يخاف علي كبده من سورة الشراب على الريق من بعد عهده باللحم ، وهذه الصحة تفسل عنكم الاوضار ، وتنفي التخم وليس دواء الخمار الا الشرب بالكبار ، والاعشى كان اعلم به حيث يقول :

وكأس شربت على لذة　　　واخرى تداويت منها بها

وهذا حفظك الله هو اليوم الذي كانوا لا يعاينون فيه لقمة واحدة ، ولا يدخل اجوافهم من النقل ما يزن خردلة ! وهو يوم سروره التام ، لانه قد ربح المرزية ، وتمتع بالمنادمة ؟

***

واشترى مرة شبوطة وهو ببغداد ، واخذها فائقة عظيمة ، وغالى بها وارتفع ثمنها ، وكان قد بعد عهده بأكل السمك ، وهو بصري لا يصبر عنه ، فكان قد اكبر امر هذه السمكة ، لكثرة ثمنها ، ولسمنها وعظمها ، ولشدة شهوته لها .

فحين ظن عند نفسه انه قد خلا بها ، وتفرد باطايبها ، وحسر عن ذراعيه وصمد صمدها ، هجمت عليه ومعي السدري فلما رآه راى الموت الاحمر ، والطاعون الجارف ، وراى الحتم المقضي ، وراى قاصمة الظهر . وايقن بالشر ، وعلم انه ابتلى بالتنين ! فلم يلبثه السدري ، حتى قور السرة بالمبال ، فاقبل علي فقال لي : يا ابا عثمان السدري يعجبه السرر ، فما فصلت الكلمة من فيه ، حتى قبض على القفا ، فانتزع الجانبين جميعا ، فاقبل علي فقال : والسدري يعجبه الاقفاء ، فما فرغ من كلامه ، الا والسدري قد اجترف المتن كله ، فقال يا ابا عثمان والسدري يعجبه المتون، ولم يظن ان السدري يعرف فضيلة ذنب الشبوط وعذوبة لحمه . وظن انه سيسلم له ، وظن معرفة ذلك من الغامض ، فلم يدر الا والسدري قد اكتسح ما على الوجهين جميعا ! ولولا السدري إبطره واثقله ، واكمده وملأ صدره غيظا . لقد كان ادرك معه طرفا ، لانه كان من الاكلة ولكن الغيظ كان من اعوان السدري عليه فلما اكل السدري جميع اطايبها وبقي هو في النظارة ، ولم يبق في يده ، مما كان يأمله في تلك السمكة ، الا الغيظ الشديد، والغرم الثقيل ، ظن ان في سائر السمكة ما يشبعه ، ويشفي من قرمه ، فبذلك كان عزاؤه ، وذلك هو الذي كان يمسك بارماقه وحشاشات نفسه .

فلما راى السدري يغري الفري ، ويلتهم التهامـا قال : يا ابـا عثمـان السدري يعجبه كل شيء .

فتولد الغيظ في جوفه ، واقلقته الرعدة ، فخبت نفسه ، ثمـا زال يقيء ويسلح ! ثم ركبته الحمى !

وصحت توبته ، وتم عزمه في ان لا يؤاكل رغيبا ابدا ، ولا زهيـدا . ولا يشتري سمكة ابدا . رخيصة ولا غالية . وان اهدوها اليه ان لا يقبلها. وان وجدها مطروحة لا يمسها .

هذا ما كان حضرني من حديث ابن ابي المؤمل . وقد مات عفا اللـه عنا وعنه !



قصة أسد بن جاني

فأما اسد بن جاني . فكان يجعل سريره في الشتاء من قصب مقشر . لان البراغيث تزلق عن ليط القصب . لفرط لينه وملاسته .

وكان اذا دخل الضيف وحر عليه بيته . اثاره حتى يغرق المسحاة ثم يصب عليه جرارا كثيرة من ماء البئر ، ويتوطئوه حتى يستوي ، فلا يزال ذلك البيت باردا ما دام نديا . فاذا امتد به الندى . ودام برده بدوامه : اكتفى بذلك التبريد صيفته . وان جف قبل انقضاء الصيف ، وعاد عليه الحر عاد عليه بالاثارة والصب .

وكان يقول خيشتي ارض . وماء خيشتي من بئري . وبيتي ابرد ومؤنتي اخف . وانا افضلهم ايضا بفضل الحكمة ، وجودة الآلة .

وكان طبيبا فاكسد مرة . فقال له قائل : السنة وبئة والامراض فاشية . وانت عالم . ولك صبر وخدمة . ولك بيان ومعرفة . فمن اين تؤتي في هذا الكساد ؟ قال :

اما واحدة . فاني عندهم مسلم . وقد اعتقد القوم قبل ان اتطبب . لا بل قبل* ان اخلق . ان المسلمين لا يفلحون في الطب ! واسمي اسد. وكان ينبغي ان يكون اسمي صليبا ، ومرايل ويوحنا وبيرا ، وكنيتي ابو الحارث، وكان ينبغي ان تكون ابو عيسى ، وابو زكريا ، وابو ابراهيم ؛ وعلي رداء قطن ابيض ، وكان ينبغي ان يكون رداء حرير اسود ، ولفظي لفظ عربي ، وكان ينبغي ان تكون لغتي لغة اهل جندي سابور .

قال الخليل السلولي : اقبل علي يوما الثوري ، وكان يملك خمسمائة جريب ، ما بين كرسي الصدقة الى نهر مرة ، ولا يشتري الا كل غرة وكل ارض مشهورة بكريم التربة ، وشرف الموضع ، والغلة الكثيرة ، قال : فاقبل علي يوما فقال لي : هل اصطبغت بماء الزيتون قط ؟ قال : قلت والله قال : اما والله لو فعلته ما نسيته ! قال : قلت اجل اني والله لو فعلته لما نسيته .

وكان يقول لعياله : لا تلقوا نوى التمر والرطب ، وتعودوا ابتلاعه

وخذوا حلوقكم بتسويغه ، فان النوى يعقد الشحم في البطن ، ويدفيء الكليتين بذلك الشحم ، واعتبروا ذلك ببطون الصفايا ، وجميع ما يعتلف النوى ، والله لو حملتم انفسكم على البزر والنوى ، وعلى قضم الشعير ، واعتلاف القت ، لوجدتموها سريعة القبول ! وقد يأكل الناس القت فداحا، والشعير فريكا ، ونوى البسر الاخضر ، ونوى العجوة .

فانما بقيت الان عليكم عقبة واحدة ، لو رغبتم في الدفاء لالتمستم الشحم ، وكيف لا تطلبون شيئا يغنيكم عن دخان الوقود ، وعن شناعة العسكر ، وعن ثقل الغرم .؟

والشحم يفرح القلب ، ويبيض الوجه ، والنار تسود الوجه ، انا اقدر ان ابتلع النوى واعلفه النساء ، ولكني اقول ذلك بالنظر مني لكم .

وكان يقول : كلوا الباقلي بقشوره فان الباقلي يقول : من اكلني بقشوري ، فقد اكلني ، ومن اكلني بغير قشوري ، فانا الذي آكله ! فما حاجتكم الى ان تصيروا طعاما لطعامكم ، واكلا لما جعل اكلا لكم ؟

وكان يعين مالا عظيما ، ولم يكن له وارث ، فكان يسخر ببعضهم ، فيقول عند الاشهاد ، قد علمتم ان لا وارث لي ، فاذا مت فهذا المال لفلان، فكان قوم كثير يحرصون على مبايعته لهذا ، وقد رايته انا زمانا من الدهر، ما رايته قط الا ونعله في يده ، او يمشي طول نهاره في نعل مقطوعة العقب ، شديدة على صاحبها ، قال :فهو ذا المجوس ، يرتعون البصرة وبغداد وفارس والاهواز ، والدنيا كلها ، بنعال سندية ، فقيل له : ان المجوسي لا يستحل في دينه المشركة فانت لا تجده ابدا حافيا او لابسا نعلا سندية ، وانت مسلم ومالك كثير .

قال فمن كان ماله كثيرا ، فلا بد له من أن يفتح كيسه للنفقات والسراق ؟ قالوا فليس بين هاتين منزلة ؟

(قال الخليل : جلس الثوري الى حلقة المصلحين في المسجد ، فسمع رجلا من مياسيرهم يقول : بطنوا كل شيء لكم ، فانه ابقي ، ولامر جعل الله دار الاخرة باقية ، ودار الدنيا فانية ، ثم قال : ربما رايت المبطنة الواحدة تقطع اقمصة ، والعمامة الواحدة تقطع اربع ازر ، ليس ذلك الا لتعاون الطي ، وترافد الاثناء ، فبطنوا البواري ، وبطنوا الحصر ، وبطنوا البسط ، وبطنوا الغداء بشربة باردة !

قال : فقال له الثوري : لم افهم مما قلت الا لهذا الحرف وحده .

قال الخليل حم الثوري وحم عياله وخادمه ، فلم يقدروا مع شدة الحمى على اكل الخبز ، فربح كيلة تلك الايام من الدقيق ، ففرح بذلك وقال :

لو كان منزلي سوق الاهواز او نطاة خيبر ، او وادي الجحفة ، لرجوت ان استفضل كل سنة مائة دينار ، فكان لا يبالي ان يحم هو واهله ابدا ، بعد ان يستفضل كفايتهم من الدقيق .

وكان يقول : اذا رايت الرجل يشتري الجدي رحمته ، فان رايته يشتري الدجاج حقرته ، فان رايته يشتري الدراج لم ابايعه ولم اكلمه .

وانه قال : اول الاصلاح وهو من الواجب ، خصف النعل واستجادة الطراق ، وتشحيمها في كل الايام ، وعقد ذؤابة الشراك من زي النساك ، لكيلا يطأ عليه أنسان فيقطعه ، ومن الاصلاح الواجب قلب خرقة القلنسوة اذا اتسخت ، وغسلها من اتساخها بعد القلب ، واجعلها حبرة فانها مما له مرجوع ، ومن ذلك اتخاذ قميص الصيف جبة في الشتاء ، واتخاذ الشاة اللبون .

واتخاذ الحمار الجامع ، خير من غلة الف دينار ، لانه لرحلك ، وبه يدرك البعيد من حوائجك ، وعليه يطحن ، فستفضل عليه ما يربحه عليك الطحان ، وينقل عليه حوائجه وحوائجك ، حتى الحطب ، ويستقي عليه الماء ، وهذه كلها مؤن اذا اجتمعت كانت في السنة مالا كثيرا .

ثم قال : اشهد ان الرفق يمن وان الخرق شؤم ، واشتريت ملاءة مذارية فلبستها ما شاء الله رداء وملحفة ، ثم احتجت الى طيلسان فقطعتها يعلم الله ، فلبسته ما شاء الله ، ثم احتجت الى جبة فجعلته يعلم الله ظهارة جبة محشوة ، فلبستها ما شاء الله ، ثم اخرجت ما كان فيها من الصحيح ، فجعلته مخاد ، وجعلت قطنها للقناديل ، ثم جمعت ما دون خرق المخاد للقلانس ، ثم عمدت الى اصح ما بقي ، فبعته من اصحاب الصينيات والصلاحيات ، وجعلت السقاطات ، وما قد صار كالخيوط وكالقطن المندوف ، وصمائم لرؤوس القوارير .

وقد رايته وسمعت منه في البخل كلاما كثيرا ، وكان من البصريين ينزل في بغداد مسجد ابن رغبان ولم ار شيخا ذا ثروة اجتمع عنده واليه من البخلاء ما اجتمع له . منهم : اسماعيل بن غزوان وجعفر بن سعيد وخاقان بن صبيح وابو يعقوب الاعور وعبدالله العروضي والخزامي عبدالله بن كاسب .

وابو عبد الرحمن هذا ، شديد البخل شديد العارضة ، عضب اللسان وكان يحتج للبخل ويوصي به ، ويدعو اليه ، وما علمت ان احدا جرد في ذلك كتابا الا سهل بن هارون .

وابو عبدالرحمن هذا هو الذي قال لابنه : اي بني ان انفاق القراريط ، يفتح عليك ابواب الدوانيق ، وانفاق الدوانيق يفتح عليك ابواب الدراهم ،

وانفاق الدراهم يفتح عليك ابواب الدنانير ، والعشرات تفتح عليك ابواب المئين ، والمئون تفتح عليك ابواب الالوف ، حتى يأتي ذلك على الفرع والاصل ، ويطمس على العين والاثر ، ويحتمل القليل والكثير .

اي بني انما صار تأويل الدراهم (دار الهم) ، وتأويل الدينار (يدني الى النار) ، الدرهم اذا خرج الى غير خلف ، والى غير بدل ، دار الهم على دوانق مخرجة ، وقيل : ان الدينار يدني الى النار ، لانه اذا انفقه في غير خلف ، واخرج الى غير بدل ، بقيت مخفقا معدما ، وفقيرا مبلطا ، فيخرج الخارج ، وتدعوه الضرورة الى المكاسب الردية ، والطعم الخبيثة ، والخبيث من الكسب : يسقط العدالة ، ويذهب بالمرؤة ويوجب الحد ويدخل النار .

***

وهذا التأويل الذي تأوله للدرهم والدينار ، ليس له ، انما هذا شيء كان يتكلم به عبد الاعلى القاضي ، فكان عبد الاعلى اذا قيل له : لم سمي الكلب قليطا ؟ قال : لانه قل ولطي ، واذا قيل له لم سمي الكلب سلوقيا ؟ قال لانه يستل ويلقي واذا قيل له : أسمي الصفور عصفورا ؟ قال : لانه عصى وفر .

عبد الاعلى هذا ، هو الذي كان يقول في تصلصه : الفقير رداؤه علقة ومرفقته سلبة ، وجرذقته فلقة ، وسمكته سلتة ، في طيب له كثير .

وبعض المفسرين يزعم ان نوحا النبي عليه السلام ، انما سمني نوحا لانه كان ينوح على نفسه ، وان آدم انما سمي آدم لانه من اديم الارض ، وقالوا : كان لونه في ادمة لون الارض ، وان المسيح انما سمي المسيح لانه مسح بدهن البركة ، وقال بعضهم لانه كان لا يقيم في البلد الواحد ، وكان كانه ماسح يمسح الارض .

***

ثم رجع الحديث عن اعاجيب ابي عبد الرحمن ، وكان ابو عبدالرحمن يعجب بالرؤوس ويحمدها ويصفها ، وكان لا ياكل اللحم الا يوم اضحى . او من بقية اضحيته ، او يكون في عرس او دعوة او سفرة وكان سمي الراس عرسا لما يجتمع فيه من الالوان الطيبة ، وكان يسمه مرة الجامع ، ومرة الكامل .

وكان يقول الراس شيء واحد ، وهو الوان عجيبة وطعوم مختلفة ، وكل قدر وكل شواء فانما هو شيء واحد ، والراس فيه الدماغ ، فطعم

الدماغ على حدة ، وفيه العينان وطعمهما على حدة ، وفيه الشحمة التي بين اصل الاذن ومؤخر العين ، وطعمها على حدة ، على ان هذه الشحمة خاصة ، اطيب من المخ ، وانعم من الزبد ، وادسم من السلاء ، وفي الراس اللسان ، وطعمه شيء على حدة ، وفيه الخيشوم والغضروف الذي في الخيشوم ، وطعمهما شيء على حدة ، وفيه لحم الخذين وطعمه شيء على حدة ، حتى يقسم اسقاطه الباقية

ويقول : الراس سيد الدين ، وفيه الدماغ ، وهو معدن العمل، ومنه يتفرق العصب الذي فيه الحس ، وفيه الدماغ ، كما ان النفس هي المدركة ، والعين هي باب الالوان والنفس هي السامعة الذائقة ، وانما الانف والاذن بابان ، ولولا ان في العقل في الراس لما ذهب العقل من الضربة تصيبه ، وفي الرأس الحواس ، الخمس ، وكان ينشد قول الشاعر :

اذا ضربوا راسي وفي الراس اكثري
وغودر عند الملتقي ثم سائري

وكان يقول : الناس لم يقولوا هذا راس الامر ، وفلان راس الكتيبة ، وهو راس القوم ، وهم رؤوس الناس وخراطيمهم وانفهم ، ويشتقوا من الراس الرياسة والرئيس ، وقد راس القوم فلان ، الا والراس هو المثل ، وهو المقدم .

وكان اذا فرغ من اكل الراس ، عمد الى القحف والى الجبين، فوضعه بقرب بيوت النمل والذر ، فاذا اجتمعت فيه اخذه فنفضه في طست فيها ماء ، فلا يزال يعيد ذلك في تلك المواضع حتى يقطع اصل النمل والذر من داره ، فاذا فرغ من ذلك القاه في الحطب ليوقد به سائر الحطب .

وكان اذا كان يوم الرؤوس اقعد ابنه معه على الخوان ، الا ان ذلك بعد تشرط طويل ، وبعد ان يقف به على ما يريده ، وكان فيما يقول له : اياك ونهم الصبيان وشره الزراع ، واخلاق النوائح ، ودع عنك خبط الملاحين والفعلة ، ونهش الاعراب والمهنة وكل ما بين يديك ، فانما حقك الذي وقع لك ، وصار اقرب اليك .

واعلم انه اذا كان في الطعام شيء طريف ، ولقمة كريمة ، ومضغة شهية ، فانما ذلك للشيخ المعظم ، والصبي المدلل ، ولست واحدا منهما ، فانت قد تاتي الدعوات والولائم ، وتدخل منازل الاخوان . وعهدك باللحم قريب ، واخوانك اشد قرما اليه منك ، وانما هو راس واحد ، فلا عليك ان تتجافى عن بعض ، وتصيب بعضا ، وانا بعد اكره لك الموالاة بين اللحم ، فان الله يبغض اهل البيت اللحمين .

وكان يقول : اياكم وهذه المجازر ، فان لها ضراوة كضراوة الخمر ، وكان يقول : مدمن اللحم كمدمن الخمر .

وقال الشيخ ورأى رجلا يكل اللحم ، فقال لحم يأكل لحما ؟ اف لهذا عمـلا .

وذكر هرم بن قطبة اللحم ، وانه ليقتل السباع ، وقال المهب : لحم وارد غير على قارم هذا الموت الاحمر .

وقال الاول : اهلك الرجال الاحمران اللحم والخمر ، واهلك النساء الاحمران الذهب والزعفران .

اي بني عود نفسك الاثرة ، ومجاهدة الهوى والشهوة، ولا تنهش نهش الافاعي ، ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تدم الاكل ادامة النعاج ولا تلقم لقم الجمال قال ابو ذر لمن بذل من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخضمون ونقضم والموعد الله .

ان الله قد فضلك ، فجعلك انسانا ، فلا تجعل نفسك بهيمة ، ولا سبعا واحذر سرعة الكظة ، وسرف البطنة ، وقد قال بعض الحكماء : اذا كنت بطينا فعد نفسك في الزمني ، وقال الاعشى :

والبطنة يوما تسفه الاحلاما

واعلم ان الشبع داعية البشم ، وان البشم داعية السقم ، وان السقم داعية الموت ، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة ، وهو قاتل نفسه، وقاتل نفسه الوم من قاتل غيره ، واعجب ان اردت العجب ! وقد قال الله جل ذكره (ولا تقتلوا انفسكم) وسواء قتلنا انفسنا او قتل بعضنا بعضا ، كان ذلك للآية تأويلا .

اي بني ان القاتل والمقتول في النار ، ولو سألت حذاق الاطباء ، لاخبروك ان عامة اهل القبور ، انما ماتوا بالتخم ، واعرف خطأ من قال : اكلة وموتة ، وخذ بقول من قال : رب اكلة تمنع اكلات . وقال الحسن : يا ابن آدم كل في ثلث بطنك واشرب في ثلث بطنك ودع الثلث للتفكر والتنفس. وقال بكر بن عبدالله المزني : ما وجدت طعم العيش حتى استبدلت الخمص بالكظة ، وحتى لم البس من ثيابي ما يستخدمني ، وحتى لم آكل الا ما لا اغسل يدي منه .

يا بني والله ما ادى حق الركوع ، ولا وظيفة السجود ، ذو كظة ! ولا خشع لله ذو بطنة ! والصوم مصحة ، والوجبات عيش الصالحين ، وصدق ابن بن كلدة ، حين زعم ان الدواء هو اللازم . وان الداء هو ادخال الطعام في اثر الطعام .

اي بني ، لم صفت اذهان العرب ؟ ولم صدقت احساس الاعراب ؟ ولم صحت ابدان الرهبان ، مع طول الاقامة في الصوامع ؟ وحتى لم تعرف النقرس ولا وجع المفاصل ، ولا الاورام ، الا لقلة الرزق من الطعام ، وخفة الزاد بالسير .

اي بني لم صار الضب اطول شيء عمرا ، الا لانه انما يعيش بالنسيم ، ولم قال الرسول صلى الله عليه وسلم « ان الصوم جاء » الا ليجعل الجوع حجازا دون الشهوات ، افهم تأديب الله . فانه لم يقصد به الا الى مثلك .

اي بني قد بلغت تسعين عاما ، ما نقص لي سن ، ولا تحرك لي عظم ، ولا انتشر لي عصب ، ولا عرفت دنين اذن ، ولا سيلان عين ، ولا سلس بول ، ما لذلك علة الا لتخفيف من الزاد ، فان كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة ، وان كنت تحب الموت ، فلا يبعد الله الا من ظلم .

***

هذه كانت وصيته في يوم الرؤوس وحده ، فلم يكن لعياله الا التقمم مص العظم !!

وكان لا يشتري الراس الا في زيادة الشهر ، لمكان زيادة ألدماغ ، وكان لا يشتري الا راس فتي ، لوفارة الدماغ ، لان دماغ الفتي اوفر ، ويكون مخه انقص ، ومخ المسن اوفر ، ودماغه انقص .

ويزعمون ان للاهلة والمحاق ، في الادمغة والدماء . عملا معروفا . وبينها في الربيع والخريف . فضلا بينا .

وتزعم الاعراب والعرب ، ان النطفة اذا وقعت في الرحم في اول الهلال . خرج الولد قويا ضخما . واذا كان في المحاق . خرج ضئيلا شختا . وأنشد قول الشاعر :

لقحت في الهلال من قبل الطهر وقد لاح للصباح بشير
ثم نمي ولم ترضع فلوا ورضاع المجح عيب كبير !

وكان ابو عبد الرحمن . يشتري ذلك الراس من جميع راسي بغداد . الا من راسي مسجد بن رغبان . وكان لا يشتريه الا يوم سبت . واختلط عليه الامر فيما بين الشتاء والصيف فكان مرة يشتريه في هذا الزمان . ومرة يشتريه في هذا الزمان .

واما زهده في رؤس مسجد بن رغبان . فان البصريين يختارون لحم الماعز الخصي على الضان كله . ورؤوس الضان اشحم والحم . وارخص رخصا واطيب . وراس التيس اكثر لحما من راس الخصي . لان الخصي من الماعز يعرق جلده . ويقل لحم راسه . ولا يبلغ جلده . (وان كان

ماعز؟) في الثمن عشر ما يبلغ جلد التيس . ولا يكون رأسه الا دونا. ولذلك تخطاه الى غيره .

واما اختياره شراء الرؤوس يوم السبت . فان القصابين يذبحون يوم الجمعة اكثر . فتكثر الرؤوس يوم السبت . على قدر الفضل فيما يذبحون. ولان العوام والتاجر والصناع لا يقومون الى اكل الرؤوس يوم السبت . مع قرب عهدهم باكل اللحم يوم الجمعة ولان عامتهم قد بقيت عنده فضلة. فهي تمنعه من الشهوة . ولان الناس لا يكادون يجمعون على خوان واحد بين الرؤوس واللحم .

واما اختلاط التدبير عليه في فرق ما بين الشتاء والصيف . فوجه ذلك ان العلل كانت تتصور له وتعرض له الدواعي على قدر قرمه . وحركة شهوته . صيفا وافق ذلك ام شتاء .

فان اشتراه في الصيف فلأن اللحم في الصيف ارخص . والرؤوس تابعة للحم والناس في الشتاء لها آكل وهم لها في القيظ اترك . فكان يختار الرخص على حسن الموقع . فاذا قويت دواعيها في الشتاء قال راس واحد شتوي كراسين صيفيين . لان المعلوفة غير الراعية .

وما اكل الكسب في الحبس موثقا غير ما اكل الحشيش في الصحراء مطلقا وكان على ثقة انه سياتي عليه في الشتاء . مع صحته وبدنه ، وفي شك من استبقائه في الصيف . ولنقصان شهوات الناس للرؤوس في الصيف. كان يخاف جريرة تلك البقية . وجناية تلك الفضلة . وكان يقول : ان اكلتها بعد الشبع لم آمن العطب . وان تركتها لهم في الصيف ولم يعرفوا العلة طلبوا ذلك مني في الشتاء .

***

حدثني المكي قال : كنت يوما عند العنبري اذ جاءت جارية امه . ومعها كوز فارغ . فقالت : قالت امك بلغني عندك مزملة . ويومنا يوم حار. فابعث الي بشربة منها في هذا الكوز . قال كذبتي ! امي اعقل من ان تبعث بكوز ونرده ملآنا . اذهبي فاملئيه من ماء حبكم وفرغيه في حبنا ثم املئيه من ماء مزملتنا حتى يكون شيء بشيء !

قال المكي فاذا هو يريد ان تدفع جوهرا لجوهر وعرضا بعرض . حتى لا تربح امه الا صرف ما بين العرضين . الذي هو البرد والحر . فاما عدد الجواهر والاعراض فمثلا بمثل .

وقال المكي دخلت عليه يوما واذا عنده جلة تمر . واذا ظئره جالسة

قبالته . فلما اكل تمرة رمى بنواتها اليها . فاخذتها فمصتها ساعة . ثم والله لقد رايتها لاكت نواة مرة بعد ان مصتها . فصاح بها صيحة لو كانت قتلت قتيلا ما كان عنده اكثر من ذلك ! وما كانت الا في ان تناول الاعراض وتسلم اليه الجوهر وكانت تأخذ حلاوة النواة وتردعها ندوة الريق .

قال الخليل : كان ابو قطبة يستغل ثلاثة آلاف دينار . وكان من البخل يؤخر تنقية بالوعته الى يوم المطر الشديد . وسيل المتاعب ليكتري رجلا واحدا فقط . يخرج ما فيها ويصبه في الطريق . فيجترفه السيل . ويؤديه الى القناة . وكان موضع بثره والصب قدر مائتي ذراع . فكان لمكان زيادة درهمين . يحتمل الانتظار شهرا او شهرين . وان هو جرى في الطريق واوذي به الناس .

وقال ونظر يوما الى الكساحين . وهو معنا جالس في رجال من قريش . وهم يخرجون ما في بالوعته . ويرمون به في الطريق وسيل المتاعب يحتمله ، فقال : اليس البط والجداء والدجاج والفراخ والدراج وخبز الشعير والصحناء والكراث والجواف جميعا يصير الى ما ترون ؟ فلم يغالي بشيء يصير هو والرخيص في معنى واحد ؟!

قال : والكساحون ثلاثة اخوة ابو قطبة والطبل ويابى من ولد عتاب بن اسيد ، واحد منهم كان يحج عن حمزة ويقول : استشهد قبل ان يحج والآخر كان يضحي عن ابي بكر وعمر ويقول اخطيا السنة في ترك الضحية، وكان الآخر يفطر عن عائشة ايام التشريق ويقول : غلطت رحمها الله في صومها ايام العيد فمن صام عن ابيه وامه فانا افطر عن عائشة .

حدثتني امراة تعرف الامور قالت : كان في الحي مأتم اجتمع فيه عجائز من عجائز الحي ، فلما راين ان اهل المأتم قد اقمن المناحة ، اعتزلن وتحدثن ، فبيناهن في حديثهن ، اذ ذكرن بر الابناء بالامهات ، وانفاقهم عليهن ، وذكرت كل واحدة منهن ما يوليها ابنها فقالت واحدة منهن وام فيلوية ساكتة ، وكانت امراة صالحة وابنها يظهر النسك ويدين بالبخل ؛ وله حانوت في مقبرة بني حصن يبيع فيها الاسقاط قلت : فاقبلت على ام فيلوية وقالت لها : مالك لا تحدثين معنا عن ابنك كما نتحدث وكيف صنع فيلويه في ما بينك وبينه قالت : كان يجري علي في كل اضحى درهما ! وقد قطعه ايضا !

قالت المراة وما كان يجري عليك الا درهما ؟ قالت ما كان يجري علي الا ذاك . وربما ادخل اضحى في اضحى ! فقالت فقلت يا ام فيلويه. وكيف يدخل اضحى في اضحى قد يقول الناس ان فلانا ادخل شهرا في شهر ويوما في يوم اضحى في اضحى فهذا شيء لا يشركه فيه احد .

قصة تمام بن جعفر

كان تمام بن جعفر بخيلا على الطعام مفرط البخل وكان يقبل على كل من اكل خبزه بكل علة ويطالبه بكل طائلة وحتى ربما استخرج عليه انه لابن جلاد الدم وكان ان قال له ما في الارض احد امشى مني ولا على ظهرها احد اقوى على الحضر مني قال : وما يمنعك من ذلك وانت تأكل اكل عشرة ؟ وهل يحمل الرجل الا البطن ؟ لا حمد الله من يحمدك !

فان قال : لا والله ان اقدر ان امشي ، لاني اشعف الخلق عنه ، واني لانبهر من مشي ثلاثين خطوة ، قال وكيف تمشي وقد جعلت في بطنك ما يحمله عشرون حمالا ! وهل ينطلق الناس الا مع خفة الاكل ؟ واي بطين يقدر على الحركة ؟ وان الكظيظ ليعجز عن الركوع والسجود فكيف بالمشي النكير ؟

فان شكا ضرسه وقال : ما نمت البارحة مع وجعه وضرباته قال : عجبت كيف اشتكيت واحدا وكيف لم تشتك الجميع وكيف بقيت الى اليوم في فيك حاكة واي ضرس يقوى على الدرس والطحن والله ان الارحاء السورية لتكل وان المنجان الغليظ ليتعبه الدق ! ولقد استبطأت لك هذه العلة !! ارفق فان الرفق يمن ، ولا تخرق بنفسك ، فان الخرق شؤم !

وان قال لا والله ان اشتكيت ضرسا لي قط ، ولا تجلجل لي سن عن موضعه منذ عرفت نفسي ، قال : يا مجنون الان كثرة المضغ تشد العمور وتقوي الاسنان وتدبغ اللثة ، وتغذو اصولها ، واعفاء الأضراس من المضغ يريحها ، وانما الفم جزء من الانسان نفسه اذا تحرك وعمل قوي ، واذا طال سكونه تفتح واسترخى فكذلك الاضراس . ولكن رفقا فان الاتعاب ينقص القوة ، ولكل شيء مقدار ونهاية ، فهذا ضرسك لا تشتكيه بطنك ايضا لا تشتكيه ؟ فان قال والله ان اروي من الماء ، وما ان في الدنيا احدا اشرب مني للماء

قال لا بد للتراب من ماء ولا بد للطين من ماء يبله ويرويه ، او ليست الحاجة على قدر كثرته وقلته والله لو شربت ماء الفرات ما استكثرته لك

مع ما ارى من شدة اكلك وعظم لقمتك ! اتدري ما قد تصنع ؟ انت والله تلعب ! انت لست ترى نفسك ! فسل عنك من يصدقك حتى تعلم من ماء دجلة ، يقصر عما في جوفك !

فان قال : ما شربت اليوم البتة ، وما شربت امس بمقدار نصف رطل، وما في الارض انسان اقل شربا مني للماء ، قال : لانك لا تدع لشرب الماء موضعا ، ولانك تكنز في جوفك كنزا لا يجد الماء معه مدخلا ، والعجب لا تتخم لان من لا يشرب الماء على الخوان لا يدري مقدار ما اكل ومن جاوز مقدار الكفاية كان حريا بالتخمة .

فان قال : ما انام الليل كله وقد اهلكني الارق قال : وتدعك الكظة والنفخة والقرقرة ان تنام ؟ والله لو لم يكن الا العطش الذي ينبه الناس لما نمت ، ومن شرب كثيرا بال كثيرا ، ومن كان الليل كله بين شرب وبول كيف يأخذه النوم ؟

فان قال : ما هو الا ان اضع راسي ، فانما انا حجر ملقى الى الصبح، قال : ذلك لان الطعام يسكن ويخدر ويحير ، ويبل الدماغ ويبل العروق ، ويسترخي عليه جميع البدن ، ولو كان في الحق ، لكان ينبغي ان تنام الليل والنهار !

فان قال اصبحت وانا لا اشتهي شيئا ، قال : اياك ان تأكل قليلا ولا كثيرا ، فان اكل القليل على غير شهوة ، اضر من الكثير مع الشهوة ، قال الخوان : ويل لي ممن قال لا اريد ! وبعد ، وكيف تشتهي الطعام اليوم ، وانت قد اكلت بالامس طعام عشرة !

وكان كثيرا ما يقول لاصحابه اذا بكروا عليه : لم لا نشرب اقداحا على الخمار الشراب ، الخمار تخمة ، والمتخم اذا اكل مات لا محالة، واياكم والاكثار في عقب الحجامة والفصد والحمام . وعليكم بالتخفيف في الصيف كله واجتنبوا اللحم خاصة .

وكان يقول : ليس يفسد الناس الا الناس . هذا الذي يتكلم بالكلام البارد . وبالطرف المستنكرة . لو لم يصب من يضحك له . وبعض من يشكره . ويتضاحك له وليس هو عنده الا ان يظهر العجب به لما تكلف النوادر . ان اهلك قول الناس للاكول النهم . وللرغيب الشره . فلان حسن الاكل ! هو الذي اهلكه وزاد رغبته . حتى جعل صناعة . وحتى ربما اكل لمكان قولهم وتقريبهم وتعجبهم . ما لا يطيقه فيقتل فلا يزال قد هجم على قوم فأكل زادهم وتركهم بلا زاد ! فلو قالوا بدل قولهم : فلان حسن الاكل. فلان اقبح الناس اكلا . كان ذلك صلاحا للفريقين ولا يزال البخيل على الطعام . قد دعا الرغيب البطن . واتخذ له الطعام الطيب . لينفي عن نفسه

المقالة . وليكذب عن نفسه تلك الظنون . ولو كان شدة الضرس يصد في المناقب . ويمدح صاحبه في المجالس . لكانت الانبياء آكل الخلق. ولخصهم الله جل ذكره من الرغب بما لم يعطه احدا من العالمين . وكيف ؟ وفي مأثور الحديث (ان المؤمن يأكل في معي وان المنافق يأكل في امعاء) .

او لسنا قد نراهم يشتمون بالنهم وبالرغب وبكثرة الاكل. ويمدحون بالزهادة وبقلة الطعام ؟ او ليس قد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (من ادله على الحسناء القتين ؟) وقد ساب رجل ايوب بن سليمان بن عبد الملك . فقال في بعض ما يسبه : ماتت امك بغرا وابوك بشما وبعد فهل سمعتم باحد قط فخر بشدة اكل ابيه . فقال انا ابن آكل العرب ؟.

بل قد رأينا اصحاب النبيذ والفتيان يتمدحون بكثرة الشرب كما يتمدحون بقلة الرزق . ولذلك قالت العرب : قال الشاعر :

تكفيه فلذة كبد ان الم بها من الشواء ويروي شربه الغمر

وقال :

لا يتأرى لما في القدر يطلبه ولا تراه امام القوم يقتفر

وقال :

لا يغمز الساق من اين ولا هم ولا يعض على شرسوفه الصفر

والصفرة هي حيات البطون . انما تكون من الفضول والتخم ومن الفساد والبشم .

وشرب مرة النبيذ . وغناه المغني . فشق قميصه من الطرب . فقال لمولى له يقال له المحلول . وهو الى جنبه : شق ايضا انت ويلك قميصك ! والمحلول هذا من الآيات قال : لا والله لا اشقه . وليس لي غيره . قال : فشقه وانا اكسوك غدا . قال : فانا اشقه غدا قال : انا ما اصنع بشقك له غدا ؟ قال وانا ما ارجو من شقه الساعة ؟

فلم اسمع بانسان قط يقايس ويناظر . في الوقت الذي انما يشق فيه القميص . من غلبة الطرب . وغيره وغير مولاه محلول !

***

دخل علي الاعمى على يوسف بن كل حير ، وقد تغدى . فقال : يا جارية هاتي لابي الحسن غداء ، قالت : لم يبق عندنا شيء ، قال هاتي « ويلك » ما كان ، فليس من ابي الحسن حشمة !

ولم يشك علي انه سيؤتي برغيف ملطخ ، وبرقاقة ملطخة ، وبسكر

وبقيــة مرق ، وبعرق وبفضلــة شواء ، وببقــاء مــا يفضل في الجــامات والسكرجات فجاءت بطبق ليس عليه الا رغيف ازرق قاحل ، لا شيء غيره. فلما وضعوا الخوان بين يديه ، فأجال يده فيه (وهو اعمى) ، فلم يقع الا على ذلك الرغيف ، وقد علم ان قوله (ليس منه حشمة) لا يكون الا مــع القليل ، فلم يظن ان الامر بلغ ذلك، فلما لم يجــد غيره قال ويلكم ! ولاكل هذا ، رفعتم الحشمة كلها ؟ والكلام لم يقع الا على هذا ؟



(حدثني) محمد بن حسان الاسود ، قال : اخبرني زكريا القطان ، قال : كان للغزال قطعة ارض قدام حانوتي ، فأكرى نصفها من سماك يسقط عنه ما استطاع من مؤنة الكراء قال : وكان الغزال اعجوبة في البخل وكــان يجيء من منزله ومعه رغيف في كمه فكان اكثر دهره يأكله بلا ادم فاذا اعي عليه الامر اخذ من ساكنه جوافة بحبة واثبت عليها فلسا في حسابه ، فاذا اراد ان يتغدى اخذ الجوافة فمسحها على وجه الرغيف ، ثم عض عليــه ، وربما فتح بطن الجوافة فيطر جنبيها وبطنها باللقمة بعد اللقمة فاذا خاف ان ينهكها ذلك وينضب بطنها طلب مــن ذلك السماك شيئا من ملح السمك، فحشا جوفها لينفخها ، وليوهم ان هذا هو ملحها الذي ملحت به ، ولربما غلبته شهوته فكدم طرف انفها واخذ من طرف الارنبة ، ما يسيغ به لقمته وكان ذلك منه لا يكون الا في اخر لقمة ليطيب فمه بها ثم يضعها في ناحية .

فاذا اشترى من امراة غزلا ، ادخل تلك الجوافة في ثمن الغزل ، مــن طريق ادخال العروض ، وحسبها عليها بفلس ، فيسترجع راس المــال ، ويفضل الادم !!

وروى اصحابنا عن عبدالله بن المقفع قال : كان ابن جذام الشبــي ، يجلس الي وكان ربما انصرف معي الى المنزل ، فيتغدى معنا ، ويقيم الى ان يبرد .

وكنت اعرفه بشدة البخل ، وكثرة المال ، فألــح علي في الاستزارة وصممت عليه في الامتناع ، فقال : جعلت فداك ، انت تظن اني ممن يتكلف، وانت تشفق علي ! لا والله ان هي الا كسيرات يابسة ، وملح وماء الجب ! فظننت انه يريد اختلابي بتهوين الامر علي ، وقلت : ان هذا كقول الرجل: يا غلام ! اطعمنا كسرة ، واطعم السائل خمس تمرات ، ومعناه اضعاف ما وقع اللفظ عليه ، وما اظن ان احدا يدعو مثلي الى الحربية من الباطنة ، ثم يأتيه بكسرات وملح .

فلما صرت عنده ، وقربه الي اذ وقف سائل بالباب فقال : اطعمونـا مما تأكلون اطعمكم الله من طعام الجنة ! قال : بورك فيك ! فاعاد الكـلام فاعاد عليه مثل ذلك القول ، فاعاد عليه السائل ، فقال : اذهب ويلك فقد ردوا عليك ، فقال السائل : سبحان الله ما رايت كاليوم احدا يرد من لقمة الطعام بين يديه ؟ قال اذهب ـ ويلك ـ والا خرجت اليك ، والله، لدققت ساقيك ؟ قال السائل سبحان اللـه انهى ان ينهر السائل ، وانت تـدق ساقيـه ! فقلت للسائل : اذهب وارح نفسك فانـك لو تعرف من صدق وعيده ، مثل الذي اعرف ، لما وقفت طرفة عين بعد رده اياك .



وكان ابو يعقوب الذقنان يقول : ما فاتني اللحم منذ ملكت المال .

وكان اذا كان يوم الجمعة اشترى لحم بقر بدرهم ، واشترى بصلا بدانق ، وباذنجان بدانق ، وقرعة بدانق ، فاذا كان ايام الجزر فجزر بدانق، وطبخه كله سكباجا فأكل وعياله يومئذ خبزهم بشيء من رأس القدر ومـا ينقطع في القدر من البصل والباذنجان والجزر والقرع والشحم واللحم فاذا كان يوم السبت ثردوا خبزهم في المرق ، فاذا كان يوم الاحد اكلوا البصل ، فاذا كان يوم الاثنين اكلوا الجزر ، فاذا كان يوم الثلاثاء اكلوا القرع فـاذا كان يوم الاربعاء اكلوا الباذنجان ، فاذا كان يوم الخميس اكلوا اللحـم . فلهذا كان يقول : ما فاتني اللحم منذ ملكت المال .



قال اصحابنا نزلنا من اهل الجزيرة ، واذا هم في بلاد باردة ، واذا حطبهم شر حطب ، واذا الارض كلها غابة واحدة طرفاء فقلنا : ما في الارض اكرم من الطرفاء ، قالوا هو كريم ، ومن كرمه نفر ، فقلنا : وما الذي تنفرون منه ، قالوا : دخان الطرفاء ، يهضم الطعام ، وعيالنا كثير .

وقد عاب ناس اهل المازح والمديبر ، بأمور : منها ان خشكنانهم مـن دقيق شعير ، وحشوه الذي فيه من الجوز والسكر من دقيق خشكار واهل المازح لا يعرفون بالبخل ، ولكنهم أسوا الناس حالا ، فتقديرهم على قـدر عيشهم ، وانما نحكي عن البخلاء الذين جمعوا بين البخل واليسر ، وبـين خصب البلاد وعيش اهل الجدب ، فاما من يضيق على نفسـه ، لانه لا يعرف الا الضيق فليس سبيله سبيل القوم .

قال المكي : كان لابي عم ، يقال له سليمان الكثري ، سمي بذلك لكثرة ماله : وكان يقربني وانا صبي ، الى ان بلغت ولم يهب لي مع ذلك التقريب شيئا قط ، وكان قد جاوز في ذلك حد البخلاء فدخلت عليه يوما واذا قدامه قطع دار صيني لا تسوي قيراطا ، فلما نال حاجته منها ، مددت يدي لآخذ منها قطعة، فلما نظر الي قبضت يدي ! فقال : لا تنقبض وانبسط واسترسل ، وليحسن ظنك فان حالك عندي على ما تحب ، فخذه كله فهو لك ، بزوبره وبحذافيره وهو لك جميعا ، نفسي بذلك سخية ، والله يعلم اني مسرور بما وصل اليك من الخير .

فتركته بين يديه وقمت من عنده ، وجعلت وجهي كما انا الى العراق ، فما رايته وما رآني حتى مات .

وقال المكي سمعني سليمان وانا انشد شعر امرىء القيس :

لنا غنم نسوقها غزار كأن قرون جلتها العصي
فتملأ بيتنا اقطا وسمنا وحسبك من غنى شبع وري

قال لو كان ذكر مع هذا شيئا من الكسوة لكان جيدا . وهو الذي قال ليحيى بن خالد حين نقب في ابي قبيس ، وزاد في داره : عمدت الى شيخ الجبال فزعزعته وثلمت فيه !؟

وقال حين عوتب في قلة الضحك ، وشدة القطوب : ان الذي يمنعني من الضحك ، ان الإنسان اقرب ما يكون من البذل اذا ضحك ، وطابت نفسه .



صحبني محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلا ، فلما صرت قرب منزله ، وكان منزله اقرب الى مسجد الجامع من منزلي ، سألني ان ابيت عنده ، وقال : اين تذهب في هذا المطر والبرد . ومنزلي منزلك ، وانت في ظلمة وليس معك نار ، وعندي لبأ لم ير الناس مثله ، وتمر ناهيك به جودة، لا تصلح الا له ! فملت معه فأبطأ ساعة ، ثم جاءني بجام لباء ، وطبق تمر .

فلما مددت يدي قال ، يا ابا عثمان انه لبأ وغلظة ! وهو الليل وركوده ثم ليلة مطر ورطوبة وانت رجل قد طعنت في السن ولم تزل تشكو من الفالج طرفا وما زال الفليل يسرع اليك وانت في الاصل لست بصاحب عشاء .

فان اكلت اللبا ولم تبالغ ، كنت لا آكلا ولا تاركا ، وحرشت طباعك

ثم قطعت الاكل اشهى ما كان اليك . وان بالغت بتنا في ليلة سوء ، من الاهتمام بأمرك ، ولم نعد لك نبيذا ولا عسلا .

وانما قلت هذا الكلام لئلا تقول غدا : كان وكان ! والله قد وقعت بين نابي اسد ! لاني لو لم اجئك به وقد ذكرته لك قلت : بخل به وبدا له فيه. وان جئت به ولم احذرك منه ، ولم اذكرك كل ما عليك فيه ، قلت : لم يشفق علي ولم ينصح ، فقد برئت اليك من الامرين جميعا ، وان شئت فاكلة وموتة ! وان شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة !

فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة ، وقد اكلته جميعا فما هضمه الا الضحك والنشاط والسرور فيما اظن ، ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به ، لاتى علي الضحك او لقضى علي ، ولكن ضحك من كان وحده ، لا يكون على شطر مشاركة الاصحاب .



وقال ابو القماقم : اول الاصلاح الا يرد ما صار في يدي لك ، فان كان ما صار في يدي فهو لي ، وان لم يكن لي فأنا احق به ممن صيره في يدي ! ومن اخرج من يده شيئا الى يد غيره من غير ضرورة ، فقد اباحه لمن صيره اليه ! وتعريفك اياه مثل اباحته !

وقالت له امراة : ويحك يا ابا القماقم ، اني قد تزوجت زوجا نهاريا ، والساعة وقته ، ولست علي هيئة ، فاشتر لي بهذا الرغيف آسا ، وبهذا الفلس دهنا ، فانك تؤجر . فعسى الله ان يلقي محبتي في قلبه ، فيرزقني على يدك شيئا اعيش به ، فقد والله ساءت حالي ، وبلغ المجهود مني فاخذهما وجعله وجهه .

فرأته بعد ايام فقالت : سبحان الله اما رحمتني مما صنعت بي ؟ قال : ويحك سقط والله مني الفلس ، فمن الغم اكلت الرغيف .

وتعشق واحدة ، فلم يزل يتبعها ويبكي بين يديها ، حتى رحمته ، وكانت مكثرة وكان مقلا ، فاستهداها هريسة وقال : انتم احذق بها ، فلما كان بعد ايام تشهي عليها رؤوسا ، فلما كان بعد قليل طلب منها حيسة فلما كان بعد ذلك طفيشلية ، وقالت المراة : رأيت عشق الناس يكون في القلب وفي الكبد وفي الاحشاء ، وعشقك انت ليس يجاوز معدتك .

وقال ابو الاصبغ : الح ابو القماقم على قوم عند الخطبة اليهم ، يسال عن مال المراة ويحصيه ، ويسال عنه ، فقالوا : قد اخبرناك بمالها ، فانت اي شيء مالك ؟ قال وما سؤالكم عن مالي ، الذي لها يكفيني ويكفيها .



سممت شيخا من مشايخ الابلة ، يزعم ان فقراء اهل البصرة ، افضل من فقراءِ اهل الابلة ، قلت : باي شيء فضلتهم ؟ قال هـم اشد تعظيمـا للاغنياء ، واعرف بالواجب .

وقع بين رجلين ابليين كلام ، فاسمع احدهما صاحبه كلاما غليظـا ، فرد عليه مثل كلامه ، فرايتهم قد انكروا ذلك انكارا شديدا ، ولم ار لذلك سببا ، فقلت : لم انكرتم ان يقول له مثل ما قال ؟ قالوا : لانه اكثـر منـه مالا . واذا جوزنا هذا له ، جوزنا لفقرائنا ان يكافئوا اغنياءنـا ففي هـذا الفسـاد كلـه .

وقال حمدان بن صباح : كيف صار رباح يسممني ولا اسممه ؟ افهو اكثر مالا مني ثم سكت .

قال : ويكون الزائر من اهل البصرة عند الابلي مقيما مطمئنا، فاذا جاء المد ، قالوا : ما راينا مد قط ارتفع ارتفاعه وما اطيب السير في المد ! والسير في المد ، الى البصرة ، اطيب من السير في الجزر الى الابلة ، ويسافر فـلا يزالون به ، حتى يرى ان من الراي ، ان يغتنم ذلك المد بعينه ويسافر .



كان احمد بن الخاركي بخيلا وكان نفاجا وهذا اغيظ ما يكون ، كـان يتخذ لكل جبة اربعة ازرار ، ليري الناس ان عليه جبتين ويشتري الاعذاق والعراجين والسعف من الكلاء ، فاذا جاء الحمال الى بابه تركه ساعة ، يوهم ان له من الارضين ما يحتمل ان يكون ذلك كله منها ، وكان يكتري قـدور الخمارين التي تكون للنبيذ ، ثم يتحرى اعظمها ويهرب من الحمالين بالكراء وليس له في منزله رطل دبس وسمع قول الشاعر :

رايت الخبز عز عليك حتى — حسبت الخبز في جو السحاب
ومـا روحتنـا لتذب عنـا — ولكن خفت مرزئـة الذبـاب

فقال : ولم ذب عنهم ، لعنة الله ! ما اعلم الا انه شهى اليهم الطعام ، ونظف لهم القصاع ، وفرغهم له ، وسخرهم عليه : (ثم ما نسي ذبابة) الا تركها تقع في قصاعهم وتسقط على آنافهم وعيونهم ! هو والله اهل لمـا هو اعظم من هذا ! كم من مرة قـد امر الجاريـة ، ان تلقي في القصعة الذبابـة والذبابتين والثلاثة ، حتى يتقزز بعضهم ويكفي الله شره !

قال : واما قوله « رايت الخبز عز عليك حتى ». قال : فان لم اعز هذا الشيء الذي هو قوام اهل الارض ، واصل الاقوات ، وامير الاغذية ، فاية

شيء اعز ؟ اي والله ، اني اعزه ، واعزه واعزه ، مدى النفس ما حملت عيني المــاء !

وبلغ من نفجه مع ذلك . ما اخبرني به ابراهيم بن هانيء ، قال : كنت عنده يوما اذ مر به بعض الباعة ، فصاح : الخوخ الخوخ ! فقلت وقد جــاء الخوخ بعد ؟ قال : نعم قد جاء وقد اكثرنا منه ، فدعاني الغيظ عليه الى ان دعوت البياع ، واقبلت على ابن الخاركي فقلت : ويحك ! نحن لم نسمع به بعد ، وانت اكثرت منه ، وقد تعلم ان اصحابنا اترف منك !

ثم اقبلت على البياع فقلت : كيف تبيع الخوخ ؟ فقال ستة بــدرهم ؟ قلت : انت ممن تشتري ست خوخات بدرهم ؟ ثم تقول وقد اكثرنا منه ، وهذا يقول ستة بدرهم ؟ قال : واي شيء أرخص من ستة اشياء بشيء ؟



كان غلام صالح بن عفان ، يطلب منه نفطا لبيت الحمار بالليل ، فكان يعطيه كل ليلة ، ثلاثة افلاس ، والفلوس اربعة طسوج ، ويقــول طسوج يفضل ، وحبة تنقص ، وبينهما يرمي الرامي ! وكان يقول لابنــه ، تعطــي صاحب الحمام ، وصاحب المعبر لكل واحد منهما طسوجا وهو اذا لم يــر معك الا ثلاثة افلس لم يردك .

« قال » ابو كعب : دعا موسى بن جناح ، جماعة من جيرانه ليفطروا عنده في شهر رمضان ، وكنت فيهم ، فلما صلينا المغرب ، وتجز ابن جناح ، اقبل علينا ، ثم قال لا تعجلوا فان العجلة من الشيطان . وكيف تعجلوا وقد قال الله جل ذكره « وكان الانسان عجولا » وقال « خلقالانسان من عجل ؟ » اسمعوا ما اقول . فان فيما اقول حسن المواكلة ، والبعد عــن الاثــرة ا، والعاقبة الرشيدة ، والسيرة المحمودة ، واذا مد احدكم يده الــى المــاء فاستسقى وقد اتيتم ببهطة او بجواذبة او بعصيدة ، او بعض ما يجري في الحلق ، ولا يســاغ بالماء ، ولا يحتاج فيه الى مضغ . وهو طعام يد لا طعام يدين وليست على اهل اليد منه مؤنة ، وهو مما يذهب سريعا . فامسكوا حتى يفرغ صاحبكم ، فانكم تجمعون عليه خصالا منها انكم تنغصون عليــه تلك السرعة ، اذا علم انه لا يفرغ الا مع فراغكم . ومنها انكم تجنقرنه . ولا يجد بدا من مكافأتكم فلعله يتسرع الى لقمة حارة فيموت . وانتم ترونه ! وادنى ذلك ان تبعثوه على الحرص عظم اللقــم . ولهذا ما، قــال الاعرابي حين قيل له ، لم تبدأ بأكل اللحم الذي فوق الثريد ؟ قال : لان اللحم ظاعن، والثريد مقيم !

وانا . وان كان الطعام طعامي . فاني كذلك افعل . فاذا رايتم فعلي مخالف قولي فلا طاعة لي عليكم !

« قال » ابو كعب : فربما نسي بعضنا ، فمد يده الى القصعة ، وقد مد يده صاحبه الى الماء . فيقول له موسى : يدك يا ناسي ولولا شيء لقلت لك : يا متغافل .

« قال » واتانا بأرزة ولو شاء انسان أن يعد حبهـا لعده . لتفرقـه ولتلته . قال فنثروا عليها ليلة من ذلك مقدار نصف سكرة . فوقعت ليلتئذ في فمي قطعة . وكنت الى جنبه . فسمع صوتها حين مضغتها . فضرب يده على جنبي . ثم قال : اجرش يا ابا كعب اجرش ! قلت ويلك اما تتقي الله ! كيف اجرش جزء لا يتجزأ ؟



قصة ابن العقدي

كان ابن العقدي ، ربما استزار اصحابه الى البستان . وكنت لا اظنه ممن يحتمل قلبه ذلك على حال . فسألت ذات يوم بعض زواره ، فقلت : احك لي امركم . قال وتستر علي ؟ قلت : نعم ما دمت بالبصره !

قال يشتري لنا ارزا بقشره . ويحمله معه . ليس معه شيء مما خلق الله الا ذلك الارز . فاذا صرنا الى ارضه . كلف اكاره ان يجشه في مجشة له . ثم ذراه ثم غربله ثم جش الواش منه فاذا فرغ من الشراء والحمل. ثم من الجش . ثم من تذريته . ثم من ادارته وغربلته . كلف الاكار ان يطحنه على ثوره . وفي رحاه . فاذا طحنه كلفه ان يغلي له الماء . وان يحتطب لـه ثم يكلفه العجن . لانه بالماء الحار اكثر نزلا ثم كلف الآكار ان يخبزه .

وقبل ذلك ما قد كلفهم ان ينصبوا لـه الشصوص للسمك ويسكروا الدرياجة على صفار السمك لا يدخلوا في السواقي فيدخلوا ايديهم في حجرة الشلابي والرمان فان اصبنا من السمك جعله كبابا على نار الخبز تحت الطابق حتى لا يحتاج من الحطب الى كثير .

فلا نزال منذ غدوة الى الليل في كد وجوع وانتظار ثم لا يكون عشاءنا الا خبز ارز اسود غير منخول . بالشلابي ولو قدر على غير ذلك فعل .

قلت : له فلم لا يتخذ موضع « مذار » من بعض « رقاق » ارضه فيذري لكم الارز . ثم يكون الخيار في يده . ان اراد ان يجعل عليكم الطعام. اطعمكم الفرد او ان احب ان يتأنى ليطعمكم الجوهري .

قال والله لئن سمع هذا وعرفه ليتكلفنه . لله لله فينا ، فانـا قوم مساكين ! ولو قدرنا على شيء لم نحتمل هذا البلاء !

***

حدثني المكي : قال بت عند اسماعيل بن غزوان . وانما بيتني عنده . حين علم اني تعشيت عند مويس . وحملت معي قربة نبيذ . فلما مضى من

الليل اكثره وركبني النوم . جعلت فراشي البساط . ومرفقتي يدي . وليس في البيت الا مصلي له ومرفقة ومخدة . فأخذ المخدة فرمى بها الي فأبيتها ورددتها عليه . وابى وابيت . فقال : سبحان الله يكون ان تتوسد مرفقك . وعندي فضل مخدة . فأخذتها فوضعتها تحت خدي فمنعني من النوم انكاري للموضع ويبس فراشي .

وظن اني قد نمت فجاء قليلا . حتى سل المخدة من تحت راسي ، فلما رايته قد مضى بها ضحكت وقلت : قد كنت عن هذا غنيا . قال انما جئت لاسوي راسك . قلت : اني لم اكلمك حتى وليت بها . قال : كنت لهذا جئت . فلما صارت المخدة بين يدي نسيت ما جئت . والنبيذ — ما علمت — والله يذهب بالحفظ اجمع .

« وحدثني » الحزامي والمكي والعروضي قالوا : سمعنا اسماعيل يقول : اوليس قد اجمعوا على ان البخلاء في الجملة اعقل من الاسخياء في الجملة ؟ ها نحن اولاء عندك جماعة فينا من يزعم الناس انه سخي . وفينا من يزعم الناس انه بخيل ، فانظر اي الفريقين اعقل ؟ ها انا ذا وسهل بن هارون . وخاقان بن صبيح . وجعفر بن سعيد . والحزامي والعروضي . وابو يعقوب الخريمي . فهل معك الا ابو الاسحق ؟

« وحدثني » المكي قال : قلت لاسماعيل مرة ، لم ار احد قط انفق على الناس من ماله ، فلما احتاج اليهم آسوه ، قال : لو كان ما يصنعون لله رضى وللحق موافقا لما جمع الله لهم الغدر واللؤم من اقطار الارض ولو كان هذا الانفاق في حقه لما ابتلاهم الله جل ذكره من جميع خلقه .



« حدثني » تمام بن ابي نعيم قال : كان لنا جار وكان له عروس فجعل طعامه كله فالوذقا فقيل له ان المؤونة تعظم ، قال احتمل ثقل الغرم بتعجيل الراحة ، لعن الله النساء ا ما اشك من طاعهن شر منهن .

وحديث سمعناه على وجه الدهر ، زعموا ان رجلا قد بلغ في البخل غايته ، وصار اماما ، وانه كان اذا صار في يده الدرهم ، خاطبه وناجاه وفداه واستبطنه وكان مما يقول له : كم من ارض قد قطعت ، وكم من كيس قد فارقت ، وكم من خامل رفعت ! ومن رفيع قد اخملت ! لك عندي ان لا تعرى ولا تضحى ، ثم يلقيه في كيسه ويقول له : اسكن على اسم الله ، في مكان لا تهان ولا تذل ولا تزعج منه وانه لم يدخل فيه درهما قط فأخرجه.

وان اهله الحوا عليه في شهوة واكثروا عليه في انفاق درهم ، فدافعهم

ما امكن ذلك ، ثم درهما فقط ، فبينما هو ذاهب ، اذ رأى حواء قد ارسل على نفسه افعى ، لدرهم يأخذه ، فقال في نفسه : اتلف شيئا تبذل فيه النفس بأكلة او شربة ؟ والله ما هذا الا موعظة لي من الله ! فرجع الى اهله ورد الدرهم الى كيسه ، فكان اهله منه في بلاء، وكانوا يتمنون موته والخلاص بالموت والحياة .

فلما مات وظنوا انهم قد استراحوا منه ، قدم ابنه فاستولى على ماله وداره ، ثم قال : ما كان ادم ابي ؟ فان اكثر الفساد انما يكون في الادام . قالوا : كان يتأدم بجبنة عنده . قال : ارونيها فاذا فيها حز كالجدول من اثر مسح اللقمة ! قال ما هذه الحفرة ؟ قالوا كان لا يقطع الجبن وانما كان يمسح على ظهره فيحفر كما ترى ! قال بهذا اهلكني وبهذا اقعدني هذا المقعد لو علمت ذلك ما صليت عليه !

قالوا فانت كيف تريد ان تصنع ؟ قال : اضعها من بعيد فاشير اليها باللقمة !!

ولا يعجبني هذا الحرف الاخير ، لان الافراط لا غاية له . وانما نحكي ما كان في الناس ، وما يجوز ان يكون فيهم مثله ، او حجة او طريقة ، فاما مثل هذا الحرف فليس مما نذكره ، واما سائر حديث هذا الرجل فانه من البابة .

قال ابن جهانة الثقفية عجبت ممن يمنع النبيذ لطالبه ، لان النبيذ انما يطلب ليوم فصد او يوم حجامة ، او يوم زيارة زائر ، او يوم اكل سمك طري ، او يوم شربة دواء ولم نر احدا طلبه وعندم نبيذ ، ولا ليدخره ويحتكره ، ولا ليبيعه ويعتقد منه وهو شيء يحسن طلبه ، وتحسن هبته ، ويحسن موقعه . وهو في الاصل كثير رخيص ، فما وجه منعه ؟ ما يمنعه عندي الا من لاحظ له في اخلاق الكرام ! وعلى اني لست اؤجل بما اهب منه على نبيذي النقصان لاني اذا احتجبت عن ندمائي ، بقدر ما اخرجت نبيذي، رجع الي نبيذي على حاله وكنت قد تحمدت بما لا يضرني ، فمن ترك التحمد بما لا يضره ، كان من التحمد بما يضره ابعد .

فذكر ابن جهانة ما له من الكرم بهبة نبيذه ، ولم يذكر ما عليه من اللوم بحجب ندمائه .

قال الاصمعي او غيره ، جعل بعض الناس مدينيا على برذون فاقامه على الاري فانتبه من نومه فوجده يعتلف فصاح بغلامه : يا ابن ام ، بعه والا فهبه والا فرده والا فاذبحه ! فانام ولا ينام ؟ يذهب بحر مالي ؟ ما اراد الا استئصالي !

قال ابو الحسن المدائني : كان بالمدائن تمار ، وكان غلامه اذا دخل الحانوت يحتال ، فربما احتبس فاتهمه بأكل التمر ، فسأله يوما فأنكر، فدعا بقطنة بيضاء ، ثم قال : امضغها فمضغها ، فلما اخرجها وجد فيها حلاوة وصفرة ، قال : هذا دابك كل يوم ، وانا لا اعلم ؟ اخرج من داري !

وكان عندنا رجل من بني اسد اذا صعد ابن الاكار الى نخلة له ليلقط له رطبا ، ملأ فاه ماء ، فسخروا به ، وقالوا له انه يشربه ويأكل شيئا على النخلة فاذا اراد ان ينزل بال في يده ثم امسكه في فيه « والرطب اهون اولاد الاكرة وعلى اولاد غير الاكرة من ان يحتمل فيه احد شطر هذا المكروه ولا بعضه » قال : فكان بعد يملأ فاه من ماء اصفر او احمر او اخضر ، لكيلا يقدر على مثله في رؤوس النخل .

وحدثني المصري وكان جار الدردريشي ، وماله لا يحصى . قال : انتهر سائلا ذات يوم وانا عنده ، ثم وقف عليه اخر فانتهره ، الا ان ذلك بفيظ وحنق قال : فاقبلت عليه فقلت له : ما ابغض اليك السؤال ! قال اجل عامة من ترى منهم ايسر مني . قال : فقلت ما اظنك ابغضتهم لهذا ، قال كل هؤلاء لو قدروا على داري لهدموها ، وعلى حياتي لنزعوها ! انا لو طاوعتهم فاعطيهم كلما سالوني ، كنت قد صرت مثلهم منذ زمان ! فكيف نظن بفضي ، يكون لمن ارادني على هذا .

وكان اخوه شريكه في كل شيء ، وكان في البخل مثله ، فوضع اخوه في يوم جمعة بين ايدينا ، ونحن على بابه ، طبق رطب يساوي بالبصرة دانقين فبينما نحن ناكل اذ جاء اخوه ، فلم يسلم ولم يتكلم ، حتى دخل الدار . فأنكرنا ذلك . وكان يفرط في اظهار البشر ، ويجعل البشر وقاية دون ماله وكان يعلم انه جمع بين المنع والكبر قتل .

قال ولم نعرف علته ، ولم يعرفها اخوه ، فلما كان الجمعة الاخرى ، دعا ايضا اخوه بطبق رطب ، فبينما نحن نأكل ، اذ خرج من الدار ولم يسلم ولم يقف فأنكرنا ذلك ولم ندر ايضا ما قصته ، فلما كان في الجمعة الثالثة ، ورأى مثل ذلك ، كتب الى اخيه :

يا اخي. كانت الشركة بيني وبينك ، حين لم يكثر الولد ومع الكثرة يقع الاختلاف . ولست آمن ان يخرج ولدي وولدك الى مكروه ، وها هنا اموال باسمي ولك شطرها ، واموال باسمك ولي شطرها ، وصامت في منزلي وصامت في منزلك ، لا نعرف فضل بعض ذلك على بعض ، وان طرقنا امر الله ، ما ركدت الحرب بين هؤلاء الفتية ، وطال الصخب بين هؤلاء النسوة. فالراي ان يتقدم اليوم فيما يحسم منهم هذا السبب .

فلما قرا اخوه كتابه تعاظمه ذلك وهاله ، وقلب الراي ظهرا لبطن ،

فلم يزده التقليب الا جهلا ، فجمع ولده واغلظ عليهم ، وقال : عسى ان يكون احد منكم قد اخطأ بكلمة واحدة ، او يكون هذا البلاء مـن جرائـر للنسـاء .

فلما عرف براءة ساحة القوم ، تمشى حافيا راجلا ، فقال : ما يدعوك الى القسمة والتمييز ؟ ادع صلحاء اهل المسجد الساعة حتى اشهدهم باني وكيل لك في هذه الضياع ؟ وحول كل شيء في منزلي الى منزلك ، وجـرب ذلك مني الساعة . فان وجدتني اروغ واعتل فدونك ، فحاجتي الان ان تخبرني بذنبي . قال : ما لك من ذنب ، وما من القسمة من بد . فأقام عنده يناشده الى نصف النهار . ثم اقام يومه ذلك الـى نصف الليل يناشده ، ويطلب اليه .

فلما طال عليه الامر ، وبلغ منه الجهد : قال : حدثني عن وضعك اطباق الرطب ، وبسطك الحصر في السكك ، واحضارك الماء البارد وجمعك الناس على بابي في كل جمعة ! وكأنك ظننت انا كنا عن هذه المكرمة عميا ! انك اذا اطعمتهم اليوم البرني اطعمتهم غدا السكر ، وبعدا غد الهلياثا ثم يصير ذلـك بعد ايام الجمع ، سائر ايام الاسبوع ، ثم يتحول الرطب الى الغداء ، ثـم يؤدي الى العشاء ثم يصير الى الكساء ، ثم الاجداء ثم الحملان ، ثم اصطناع الصنائع ، والله اني لارثي لبيوت المال ، ولخراج المملكة من هذا ، فكيف بمال تاجر . جمعه من الحبات والقراريط والدوانيق والارباع والأنصاف ؟

قال : جعلت فداك ، تريد ان لا آكل رطبة ابدا ، فضلا عن غير ذلك ؟ فلا والله لا كلمتهم ابدا ! قال اياك ان تخطيء مرتين . مرة في اطماعهم فيك ومرة في اكتساب عداوتهم ، اخرج من هذا الامر على حساب ما دخلت فيه وتسلم تسلم .

★★★

قصة أبي الهذيل

كان ابو الهذيل اهدى الى مويس دجاجة. وكانت دجاجته التي اهداها دون ما كان يتخذ لمويس . ولكنه بكرمه وبحسن خلقــه اظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها . ويعرف بالامساك الشديد . فقال : وكيف رأيك يا ابا عمران تلك الدجاجة ؟ قال : كانت عجبا من العجب ! فيقول : وتدري مـا جنسها ؟ وتدري ما سنها ؟ فان الدجاجة انما تطيـب بالجنس والسن . وتدري بأي شيء كنا نسمنها ؟ فلا يزال في هذا ، والاخر يضحك ضحكـا نعرفه نحن ، ولا يعرفه ابو الهذيل .

وكان ابو الهذيل اسلم الناس صدرا . واوسعهم خلقا . واسهلهـم سهولة . فان ذكروا دجاجة . قال : اين كانت يا ابا عمران من تلك الدجاجة؟ فان ذكروا بطة او عناقا او جزورا او بقرة . قال : فأين كانت هذه الجزور في الجزر . من تلك الدجاجة في الدجاج ؟ وان استسمن ابو الهذيل شيئا من الطير والبهائم . قال : لا والله . ولا تلك الدجاجة ؟ وان ذكـروا عذوبـة الشحم قال : عذوبة الشحم في البقر والبط وبطون السمك والدجاج . ولا سيما ذلك الجنس من الدجاج . وان ذكروا ميلاد شيء او قدوم انسان . قال : كان ذلك بعد ان اهديتها لك بسنة . وما كان بين قدوم فلان وبـين البعثة بتلك الدجاجة الا يوم .

كانت مثلا في كل شيء وتاريخا في كل شيء !

واقبل مرة على محمد بن الجهم . وانا واصحابنا عنده . فقال : اني رجل منخرق الكفين . لا اليق شيئا . ويدي هذه صناع في الكسب . ولكنها في الانفاق خرقاء ! كم تظن من مائة الف درهم قسمتها على الاخوان في مجلس ابو عثمان يعلم ذلك ! اسألك بالله يا ابا عثمان هل تعلم ذلك ؟ فقلت : يـا ابا الهذيل . ما نشك فيما تقول ــ فلم يرض باحتضاري هذا الكـلام حتى استشهدني . ولم يرض باستشهادي حتى استحلفني .

وكان ابو سعيد المدائني اماما في البخل عندنا بالبصرة . وكان من كبار

المفتنين ومياسيرهم . وكان شديد العقل . شديد المعارضة حاضر الحجة. بعيد الرؤية .

وكنت اتعجب من تفسير اصحابنا لقول العرب في لؤم اللئيم الراضع :

قال اصحابنا : كل لئيم بخيل . وليس كل بخيل لئيما ، لان اسم اللئيم يقع على البخل . وعلى قلة الشكر . وعلى مهانة النفس . وعلى ان له في ذلك عرقا متقدما .

قال ابو زيد : هو لئيم ملأم . فاللئيم ما فسرت ، والملأم الذي يقوم بعذر اللئيم . فأما اللئيم الراضع . فالذي لا يحلب في الاناء ، ويرضع الخلف مخافة ان يضيع من اللبن شيء .

قال ثوب بن شحمة العنبري في امرأته الهمدانية :

وحديث لا مجة التي حدثتني   تدع الاناء تشربا للقادم

القادمان : الخلفان المقدمان

فلما بلغه ذلك عنها طلقها . فلما طلقها قيل له : ان البخل انما يعيب الرجال . ومتى عاب سمعت بامراة هجيت في البخل ؟ قال : ليس ذلك بي اخاف ان تلد لي مثلها .

قال رافع بن هريم :

.. .. .. تحلب قاعدا   وتلمح احيانا وقعبك حاضر

يدعو الله عليه ان يجعله صاحب شاء ولا يجعله صاحب ابل . وان يرتضع من صاحب ابل الخلف . وان كان معه اناء . والعربي يماري صاحبه فيقول : ان كنت كاذبا . فاحلبت قاعدا . اي ابدالك الله بكرم الابل لؤم الغنم .

فكيف يتعجب من لؤم الراضع . وصنع ابو سعيد المدائني اعظم من ذلك ؟ اصطبغ من دن خل . وهو قائم حتى فني . ولم يخرج منه قليلا ولا كثيرا .

وكانت له حلقة يقعد فيها اصحاب الغنية والبخلاء الذين يتذاكرون الاصلاح فبلغهم ان ابا سعيد يأتي الحربية في كل يوم ، ليقتضي رجلا هناك خمسة دراهم فضلت عليه ، وقالوا : هذا خطأ عظيم ، وتضييع كثير . وانما الحزم ان يتشدد في غير تضييع . وصاحبنا هذا قد رجع على نفسه بضروب من البلاء .

فاجتمعوا عليه على طريق التفرغ له ، والاستفادة منه . قالوا نراك تصنع شيئا لا نعرفه ، والخطأ منك اعظم منه من غيرك ، قد اشكل علينا هذا الامر ، فأخبرنا عنه ، فقد ضاقت صدورنا به : خبرنا عن مضيك الى الحربية ، لتقتضي خمسة دراهم . فواحدة : انا لا نأمن عليك انتقاض

بدلك ، وقد خلا من سنك ، وان تعتل، فتدع التقاضي الكثير بسبب القليل.
وثانية : انك تنصب هذا النصب ، فلا بد لك من ان تزداد في العشاء ان كنت ممن تتعشى ، او تتعشى ان كنت ممن لا يتعشى وهذا اذا اجتمع كان اكثر من خمسة دراهم .

وبعد ، فانك تحتاج ان تشق وسط السوق وعليك ثيابك ، والحمولة تستقبلك فمن هنا نترة ، ومن ها هنا جذبة ، فاذا الثوب قد اودى . ومن ذلك ان نعلك تنقب وترق ، وساق سراويلك تتسخ وتبلى ، ولعلك ان تعثر في نعلك فتقدها قدا ، ولعلك ان تهرتها هرتا . وبعد ، فاقتضاء القليل ادى بك الى هذا (لو) بلغت منه شيئا ، وانلك افضل ، الا انا نحب انلك تجلي عن الارض بشيء ، فليس كلنا يشق لك بالصواب في كل شيء .

قال ابو سعيد : اما ما ذكرتم من انتقاض البدن ، فان الذي اخاف على بدني من الدعة ومن قلة الحركة اكثر . وما رايت اصح ابدانا من الحمالين والطوافين . والقوم قبل ان يموتوا ، لم يكن لهم تلك عادة . او ليس يقول الناس والله فلان اصح من الجلاوزة ؟ يعني اختلاف الجلاوزة في العدو ، ولربما اقمت في المنزل لبعض الامر ، فأكثر الصعود والنزول خوفا من قلة الحركة .

واما التشاغل بالبعيد عن القريب ، فاني لا اعرض للبعيد ، حتى افرغ من القريب . واما ما ذكرتم من الزيادة في الطعام ، فقد ايقنت نفسي، واطمأن قلبي على انه ليس لنفسي عندي الا ما لها ، وانها حاسبتني ايام النصب ، حاسبتها ايام الراحة ، فستعلم حينئذ اين ايام الحربية من ايام ثقيف ؟

واما ما ذكرتم من تلقي الحمولة ، ومن مزاحمة اهل السوق ، ومن النتر والجذب ، فأنا اقطع عرض السوق من قبل ان يقوم اهل السوق لصلاتهم . ثم يكون رجوعي على ظهر السوق .

واما ما ذكرتم من شأن النعل والسراويل ، فاني من لدن خروجي من منزلي ، الى ان اقرب من باب صاحبي ، فانما نعلي في يدي وسراويلي في كمي ! فاذا صرت اليه لبستهما ! فاذا فصلت من عنده خلعتهما ! فهما في ذلك اليوم اودع ابدانا ، واحسن حالا .

بقي الان لكم مما ذكرتم شيء ؟ قالوا : لا . قال : فها هنا واحدة تفي بجميع ما ذكرتم . قالوا : وما هي ؟ قال : اذا علم القريب الدار ، ومن لي عليه الوف الدنانير ، شدة مطالبتي للبعيد الدار ، ومن ليس لي عليه الا الفلوس ، اتى بحقي ، ولم يطمع نفسه في مالي . وهذا تدبير يجمع لي الى رجوع مالي طول راحة بدني . ثم انا بالخيار في ترك الراحة ، لاني اقسمها على الاشغال حينئذ كيف شئت . واخرى ، ان هذا القليل لو لم يكن فضلة

من كبير ، وموصلا بدين لي مشهور ، لجاز اتجافي عنه فاما ان ادع شيئايطمع في فضول ما يبقى على الغرماء فهذا ما لا يجوز .

فقاموا وقالوا بأجمعهم : لا والله ، لا سألناك عن مشكلة .

حدثني احمد المكي ، اخو محمد المكي — وكان متصلا بأبي سعيد — (نسيت القنية ، ونسيت صنعة المال ، لاعاجيب ابي سعيد وحديثه) ، قال احمد : قلت له مرة : والله انك لكثير المال وانك لتعرف ما نجهل ، وان قميصك وسخ ، فلم لا تأمر بغسله ؟

قال فلو كنت قليل المال ، واجهل ما تعرف ، كيف كان قولك لي ؟ اني قد فكرت في هذا منذ ستة اشهر ، فما وضح لي بعد وجه الامر فيه . اقول مرة : الثوب اذا اتسخ اكل البدن كما يأكل الصدأ الحديد ، والثوب اذا ترادفه العرق وجف ، وتراكم عليه الوسخ ولبد أكل السق واحرق الغزل . هذا مع نتن ريحه وقبح منظره .

وبعد فاني رجل آتي ابواب الغرماء ، وغلمان غرمائي جبابرة . فما ظنك بهم اذا رأوني في اطمار وسخة ، واسمال درنة ، حال حداد ؟ جبهوا مرة ، وحجبوا مرة ، فيرجع ذلك علينا بمضرة . من اصلاح المال ان ينفي كل ما اعان على حبسه ، مع ما يدخل من الغيظ ، ويلقي من كان كذلك من المكـروه .

فاذا اجتمعت هذه الخواطر هممت بغسلها ، فاذا هممت به ، عارضني معارض يوهمني انه اتاني من جهة الحزم ، ومن قبل العقل ، فقال : اول ذلك الغرم الذي يكون ، في الماء والصابون . والجارية اذا ازدادت عناء ، ازدادت اكلا . والصابون نورة ، والنورة تأكل الثوب . واذا تخزق ، لا يزال الثوب على خطر ، حتى يسلم الى العصر والدق . ثم اذا القي على الرسن ، فهو يعرض ولنترة والعلق .

ولا بد من الجلوس يومئذ في البيت . ومتى جلست في البيت ، فتحوا علينا ابوابا من النفقة ، وابوابا من الشهوات . والثياب لا بد لها من دق . فان نحن دققناها في المنزل قطعناها . وان نحن سلمناها الى القصار ، فغرم على غرم . وعلى انه ربما انزل به من المكروه ما هو اشد . وما جلست في المنزل قط الا ارجف بي الغرماء ، وادعوا علي الامراض والاحداث . وفي ذلك لهم فساد والتواء ، وطمع لم يكن عندهم .

فاذا انا لبستها ، وقد ابيضت وحسنت وخفت وطابت ، تبينت عند ذلك وسخ جسدي ، وكثرة شعري ، وقد كان بعض ذلك موصولا ببعض ، نعرفته ، فاستبان لي ما لم يكن يستبين ، واكترثت لما لم اكترث له ، فيصير ذلك مدعاة الى دخول الحمام . فان دخلته فغرم ثقيل ، مع المخاطرة

بالشياب ، ولي امراة جميلة شابة . فاذا راتني قد اطليت وغسلت راسي وبيضت ثوبي ، عارضتني بالتطيب ، وتلبس احسن ثيابها !

مع امور كثيرة ، نسي بعضها احمد ، وبعضها انا .

وكان ابو سعيد هذا مع بخله اشد الناس نفسا ، واحماهم انفا . بلغ من امره في ذلك ، ومن بلوغه فيه ، انه اتى رجلا من ثقيف يقتضيه الف دينار ، وقد حل عليه المال . فكان ربما اطال عنده الجلوس . ويحضر عند الغداء ، فيتغدى معه . وهو في ذلك يقتضيه .

فلما طل عليه المطل ، قال له يوما ، وهو على خوانه : ان لهذا المال زكاة وقد علمنا (انا) حين اخرجنا هذا المال من ايدينا انه معرض للذهاب ، وللمنازعة الطويلة ، لان يقع في الميراث . ثم رضينا منك بالربح اليسير ، بالذي ظنناه بك من حسن القضاء . ولولا ذلك لم نرض بهذا المال . وهذا المال اذا كان شرطه ان يرجع بعد سنة . فرفهت عنك بحسن المطالبة شهرا او شهرين ، ثم مكث عندي الى ان اصبت له مثلك ، شهرا او شهرين ، سحق فضله ، وخرج علينا فضل ومثلك يكتفي بالقليل . وقد طال اقتضائي، وطال تغافلك .

يقول هذا الكلام ، وهو في ذلك لا يقطع الاكل ـ فأقبل عليه رجل من ثقيف ، فرض له بأنه لو اراد التقاضي محضا ، لكان ذلك في المسجد ، ولم يكن في الموضع الذي يحضر فيه الغداء . فقطع الاكل ، ثم نزا في وجهه الدم ، ونظر اليه نظر الجمل الصئول ، ثم كاد يطير !

ثم اقبل عليه فقال : لا ام لك ! انا انما اصطبغت من دن خل حتى فني ، من حسن العقل . واحببت الغنى ، بفضل بغضي للفقر ، وابغضت الفقر ، بفضل انفتي من احتمال الذل . تعرض لي ـ لا ام لك ! ـ بأني ارغب في غدائه ؟. والله ما اكلت معه الا ليستحي من حرمة المؤاكلة، وليصير كرمه سببا لتعجيل الحاجة .

ثم نهض بالصك وعليه طينته . فاعترض بها الحائط حتى كسرها . ثم نقل في الكتاب ، وحلك بعضه ببعض . ثم مزقه ورمى به . ثم قال لكل من شهد المجلس : هذه الف دينار كانت لي على ابي فلان ، إشهدوا جميعا اني قد قبضت منه ، وانه بريء من كل شيء اطالبه . ثم نهض .

فلما صنع ما صنع ، اقبل الغريم على صاحبه فقال : ما دعاك الى هذا الكلام ؟ ثم تقول لهذا الرجل على مائدتي ! وتقدم بهذا الكلام على من لا تعرف كيف موقع الامور منه ؟ وبعد ، فقد والله اردت مطله الى ان ابيع التمر ، ورجونا حلاوته . فقد احسنت اليه ، واسأت الينا ، وعجلت علبة ماله . اذهب يا غلام ، فاضرب بذلك التمر السوق فبعه بما بلغ .

فأخذ ماله كملا . ثم ركب اليه ، فأبى ان يأخذه فلما كثر الامر في ذلك قال : اظن الذي دعا صاحبك الى ما قال انه عربي وانا مولى فان جعلت شفعاءك من الموالي اخذت هذا المال ، وان لم تفعل فاني لا آخذه . فجمع الثقفي كل شعوبي البصرة ، حتى طلبوا اليه ، اخذ المال .

وكان ابو سعيد ينهي خادمه أن تخرج الكساحة من الدار ، وامرها ان تجمعها من دور السكان ، وتلقيها على كساحتهم . فاذا كان في الحين ، جلس وجاءت الخادم ومعها زبيل ، فعزلت بين يديه من الكساحة زبيلا ، ثم فتشت واحدا واحدا . فان اصاب قطع دراهم ، وصرة فيها نفقة ، والدينار ، او قطعة حلي ـ فسبيل ذلك معروف . واما ما وجد فيه من الصوف ، فكان وجهه ان يباع ـ اذا اجتمع ـ من اصحاب البراذع . وكذلك قطع الاكسية. وما كان من خرق الثياب فمن اصحاب الصينيات والصلاحات . وما كان من قشور الرمان فمن الصباغين والدباغين . وما كان من القوارير فمن اصحاب الزجاج . وما كان من نوى التمر فمن اصحاب الحشوف . وما كان من نوى الخوخ فمن اصحاب الفرس . وما كان من المسامير وقطع الحديد فللحدادين وما كان من القراطيس فللطواز . وما كان من الصحق لرؤوس الجرار . وما كان من قطع الخشب فللاكافين . وما كان من قطع العظام فللوقود . وما كان من الخرق فللتنانير الجدد . وما كان من اشكنج فهو مجموع للبناء ، ثم يحرك ويثار ويخلل حتى يجتمع قماشه . ثم يزل للتنور. وما كان من قطع اقار بيع من القيار واذا بقي التراب خالصا ، واراد ان يضرب منه اللبن للبيع وللحاجة اليه ، لم يتكلف الماء ، ولكن يأمر جميع من في الدار الا يتوضئوا ولا يغتسلوا الا عليه . فاذا ابتل ضربه لبنا .

وذهب من ساكن له شيء ، كبعض ما يسرق من البيوت . فقال لهم : اطرحوا الليلة ترابا ، فعسى ان يندم من اخذه فيلقيه في التراب . ولا ينكر مجيئه الى ذلك المكان ، لكثرة من يجيء لذلك . فاتفق ان طرح ذلك الشيء المسروق في التراب ـ وكانوا يطرحونه على كناسته ـ فرآه قبل ان يراه المسروق منه . فأخذ منه كراء الكناسة .

فهذا حديث ابي سعيد .

***

قصة الأصمعي

تمشى قوم الى الاصمعي مع تاجر كان اشترى ثمرته بخسران كان ناله ، وساله حسن النظر والحطيطة . فقال الاصمعي : اسمعتم بالقسمة الضيزى ؟ وهي والله ما تريدون شيخكم عليه ! اشتري منه على ان يكون الخسران علي والربح له ! هذا وابيكم تجارة ابي العنبس ! اذهبوا فاشتروا علي طعام العراق على هذا الشرط ! على اني والله ما ادري اصادق هو ام كاذب .

وها هنا واحدة ، وهي لكم دوني ، ولا بد من ان احتمل لكم ، اذا لم تحتملوا لي والله ما مسيتم معه الا وانتم توجبون حقه ، وتوجبون رفده . لو كنت اوجب له مثل ما توجبون ، لقد كنت اغنيته عنكم . وانا لا اعرفه ، ولا يصرني بحق . فهلموا نتوزع هذه الفضيلة بيننا بالسوية هذا احسن ممن احتمل حقا لا يجب عليه ، في رضا من يجب ذلك عليه .

فقلموا ولم يعودوا . فخرج اليه التاجر من حقه ، وايس مما قبله .

حدثني جعفر بن اخت واصل ، قال : قلت لابي عيينه : قد احسن الذي سال امرأته عن اللحم ، فقالت اكله السنور . فوزن السنور ، ثم قال هذا اللحم ، فاين السنور ؟ قال : كأنك تعرض بي !

قال : قلبت : انك والله اهل ذلك : شيخ قد قارب المائة ، وعليه فاضلة ، وعياله قليل ، ويعطي الاموال على مذاكرة العلم ، والعلم لذاته وصناعته . ثم يرقى الى جوف منزله ! وانت رجل لك في البستان ، ورجل في اصحاب الفسل ، ورجل في السوق ، ورجل في الكلاء : تطلب من هذا وقرجص ، ومن هذا وقر اخر ، ومن هذا قطعة ساج ، ومن هذا هكذا !

ما هذا الحرص ؟ وما هذا الكد ؟ وما هذا الشغل ؟ لو كنت شابا بعيد الامل ، كيف كنت تكون ؟ ولو كنت مدينا كثير العيال ، كيف كنت تكون ؟ وقد رايتك فيما حدث تلبس الاطمار ، وتمشي حافيا نصف النهار ــ قال : ثم اجمجم .

بلغني انك نقدت قطعة بطيخ ، فالححت في المسالة عنها ، فقيل لك : اكلها السنور . فرميت بباقي القطعة قدام السنور ، لتمتحن صدقهم من كذبهم فلما لم يأكله غرمتهم ثمن البطيخة كما هي ! قالوا لك : كان الليل . فان لم تكن التي اكلته من سنانير الجيران كان الذي اكله سنورنا هـذا ، فانك رميت اليه بالقطعة وهو شبعان منه فانظرنا ولا تغرمنا ، نمتحنه في حال غيره هذه : فأبيت الا اغرامهم !

قال ويلك ! اني والله ما اصل الى منعهم من الفساد ، الا ببعض الفساد . وقد قال زياد في خطبته : اني والله ما اصل منكم الى اخذ الحق، حتى اخوض الباطل اليكم خوضا . واما ما لمتني عليه اتفاقا فانما ذهبت الى قوله : لو ان في يدي فسيلة ، ثم قيل لي : ان القيامة تقوم الساعة، لبادرتها فغرستها . وقد قال ابو الدرداء في وجعه الذي مات فيه : زوجوني ، فاني اكره ان القى الله عزبا. والعرب تقول: من غلى دماغه في الصيف ، غلت قدره في الشتاء .. قال مكرز : العجز فراش واطىء ، لا يستوطئه الا الفشل الدثور . وقال عبدالله بن وهب : حب الهوينى يكسب النصب وقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : اياكم والراحة ، فانها غفلة . وقال : لو ان الصبر والشكر بعيران ما باليت ايهما اركب . وقال : تمعددوا واخشوشنوا، واقطعوا الركب ، واركبوا الخيل نزوا . وقال لعمرو بن معد يكرب حين شكا اليه الحفاء : كذبت عليك الظهائر . وقال : احتفوا ، فانكم لا تدرون متى تكون الجفلة . وقال : ان يكن الشغل من المعصية ، ولهي اخوفهما عليك عندي . وقال : احذركم عاقبة الفراغ ، فانه اجمع لابواب المكروه من الشغل . وقال اكثم بن صيفي : ما احب اني مكفي كل امر الدنيا . قالوا : وان اسمنت والبنت ؟ قال : نعم اكره عادة العجز .

افتراني ادع وصايا الانبياء ، وقول الخلفاء ، وتأديب العرب ، وآخذ قولك ؟

وتغدى محمد بن الاشعث عند يحيى بن خالد . فتذاكروا الزيت وفضل ما بينه وبين السمن ، وفضل ما بين الانفاق وزيت الماء . فقال محمد : عندي زيت لم ير الناس مثله . قال يحيى : الا تؤتى منه بشيء ؟ فدعا يحيى غلامه فقال : اذا دخلت فانظر الجرة الرابعة عن يمينك اذا دخلت ، فجئنا منه بشيء .

قال يحيى : ما يعجبني السيد يعرف موضع زيته وزيتونه .

وقرب خباز اسد بن عبدالله اليه ، وهو علي خراسان ، شواء قد انضجه نضجا ، وكان يعجبه ما رطب من الشواء فقال لخبازه : اتظن ان

صنيعك يخفى علي ؟ انك لست تبالغ في انضاجه لتطييبه ، ولكن تستحلب جميع دسمه فتنتفع بذلك منه !

فبلغت اخاه ، فقال : رب جهل خير من علم !

وكان رجل يغشى طعام الجوهري ، وكان يتحرى وقته ولا يخطىء . فاذا دخل والقوم يأكلون ، وحين وضع الخوان ، قال : لمن الله القدرية ! من كان يستطيع ان يصرفني عن اكل هذا الطعام ، وقد كان في اللوح المحفوظ اني سآكله ؟

فلما اكثر من ذلك ، قال له رياح : تعال بالعشي او بالغداة . فان وجدت شيئا فالعن القدرية آباءهم وامهاتهم !

وجاء غلام الى خالد بن صفوان بطبق خوخ ــ اما ان يكون هدية، واما ان غلامه جاء به من البستان ــ فلما وضعه بين يديه قال : لولا اني اعلم انك قد اكلت منه لاطعمتك واحدة !

وقال رمضان : كنت مع شيخ اهوازي في جعفرية وكنت في الذنب ، وكان في الصدر . فلما جاء وقت الغداء ، اخرج من سلة له دجاجة ، وفرخا واحدا مبردا . واقبل يأكل ويتحدث ، ولا يعرض علي وليس في السفينة غيري وغيره ! فرآني انظر اليه مرة ، والى ما بين يديه مرة . فتوهم اني اشتهيه واستبطئه . فقال لي لم تحدق النظر ؟ من كان عنده ، اكل مثلي ، ومن لم عنده نظر مثلك .

قال : ثم نظر الي وانا انظر اليه ، فقال : يا هنـاه ، انا رجل حسن الاكل ، لا آكل الا طيب الطعام . وانا اخاف ان تكون عينك مالحة وعين مثلك سريعة . فاصرف عني وجهك .

قال فوثبت عليه ، فقبضت على لحيته بيدي اليسرى ، ثم تناولت الدجاجة بيدي اليمنى . فما زلت اضرب بها راسه ، حتى تقطعت في يدي !

ثم تحول الى مكاني فمسح وجهه ولحيته . ثم اقبل علي فقال : قد اخبرتك ان عينك مالحة ، وانك ستصيبني بعين ! قلت : وما شبه هذا من العين ؟ قال انما العين مكروه يحدث ، فقد انزلت بنا عينك اعظم المكروه !

فضحكت ضحكا ما ضحكت مثله وتكالمنا حتى كأنه لم يقل قبيحا ، وحتى كأني لم افرط عليه .

وكانت ام زياد عوراء . فكان الناس يقولون : ما راينا تعريضا قط اطيب من تعريضه !.

قالوا : وكان لزياد الحارثي جدي لا يمسه ؟ فعشى في شهر رمضان قوما فيهم اشعب . فعرض اشعب للجدي من بينهم . فقال زياد : اما لاهل السجن امام يصلي بهم ؟ قالوا : لا . قال : فليصل بهم اشعب . فقال

اشعب : او غير هذا ــ اصلح الله الامير ــ قال : وما هــو ؟ قال : احلف بالمحرجات الا آكل لحم جدي ابدا !

قالوا : دعا عبد الملك بن قسيس الذئبي رجلا من اشراف اهل البصرة. وكان عبد الملك بخيلا على الطعام ، جوادا بالدراهم . فاستحصب الرجل ساكنا فلما رآه عبد الملك ضاق به ذرعا . فاقبل عليه فقال له : الف درهم خير لك من احتسابك علينا ! واحتمل غروم الف درهم ، ولم يحتمل اكـل رغيف !

***

وتناول اعرابي من بين يدي سليمان بن عبد الملك دجاجة ، فقال له : يكفيك ما بين يديك وما يليك . قال الاعرابي . ومنهـا شيء حمى ؟ قال : فخذها ، لا بورك لك فيها .

قال : وكان معاوية تعجبه القبة . وتغدى معه ذات يوم صعصعة بن صوحان ، فتناولها من بين يدي معاوية . قال معاوية : انك لبعيد النجعة! قال صعصعة : من اجدب انتجع .

***

وقال : دخل هشام بن عبد الملك حائطا لــه ، فيه فاكهة واشجـار وثمار ، ومعه اصحابه . فجعلوا يأكلون ويدعون بالبركة ! فقال هشام : يا غلام ! اقلع هذا واغرس مكانه الزيتون .

قال : وكان المغيرة بن عبدالله بن ابـي عقيل الثقفي يأكل تمرا هـو واصحابه . فانطفأ السراج . وكانوا يلقون النوى في طست . فسمع نواتين، فقال : من هذا الذي يلعب بكعبين ؟

***

وقالوا : باع حويطب بن العزي دارا من معاوية بخمسة واربعين الف .

هذه ملتقطات احاديث اصحابنا واحاديثنا ، وما رأينا بعيوننا فامـا احاديث الاصمعي وابي عبيدة وابي الحسن ، فاني لم اجد منها مـا يصلح لهذا الموضع ، الا ما قد كتبته في هذا الكتاب ، وهي بضعة عشر حديثا .

قالوا كان للمغيرة بن عبدالله بن ابي عقيل الثقفي وهو على الكوفـة ، جدي يوضع على مائدته بعد الطعام . ولم يكن احد يمسه ، اذ كان هو لا

يمسه ! فاقدم عليه اعرابي يوما ، ولم يعرف سيرة اصحابنا فيه فلم يرض بأكل لحمه ، حتى تعرق عظمه . فقال له المغيرة : يا هذا ! تطالب عظام هذا الجدي بذحل ؟ هل نطحتك امه ؟

قال وكان على شرطته عبد الرحمن بن طارق . فقال لرجل من الشرط ان اندمت على جدي الامير اسقطت عنك نوبة سنة . فبلغه ذلك فشكاه الى الحجاج ، فعزله . وولى مكانه زياد بن جديد . فكان اثقل عليه من عبد الرحمن . ولم يقدر على عزله . اذ كان من قبل الحجاج . فكان المغيرة اذا خطب قال : يا اهل الكوفة ! من بفاكم الغوائل ، وسعى بكم الى اميركم ، فلعنه الله ، ولعن امه العوراء ! دينار . فقيل له : اصبحت كثير المال . قال: وما منفعة خمسة واربعين الفا مع ستة من العيال ؟

***

وقالوا : سأل خالد بن صفوان رجل فاعطاه درهما ، فاستقلهالسائل، فقال : يا احمق ! ان الدرهم عشر العشرة ، وان العشرة عشر المائة ، وان المائة عشر الف وان الالف عشر العشرة الآلاف . اما ترى كيف ارتفع الدرهم الى دية مسلم .

***

قالوا : كان بلال بن ابي بردة قد خاف الخدام ، وهو والي البصرة . فوصفوا له الاستنقاع في السمن . فكان اذا فرغ من الجلوس فيه ، امر ببيعه فاجتنب الناس في تلك السنة اكل السمن .

وكان يفطر الناس في شهر رمضان . فكانوا يجلسون حلقا ، وتوضع لهم الموائد . فاذا اقام المؤذن ، نهض بلال الى الصلاة ، ويستحي الآخرون. فاذا قاموا الى الصلاة ، جاء الخبازون فرفعوا الطعام .

قال : واحتقن عمر بن يزيد الاسدي بحقنة فيها ادهان . فلما حركته بطنه كره ان يأتي الخلاء ، فتذهب تلك الادهان . فكان يجلس في الطست ، ويقول : صفوا هذا ، فانه يصلح للسراج .

قال : وخبرنا جار له قال : رايته يتخلل من الطعام بخلال واحد شهرا ، كلما تغدى حذف من راسه شيئا ثم تخلل به ، ثم وضعه في مجرى دواته .

وقالوا : كان ذراع الذراع مع خالد بن صفوان . فوضعوا بين يديه

دجاجة ، وبين يديه شيء من زيتون . فجعل يلحظ الدجاجة ! فقال : كانك تهم بها ! ومن يمنعني ؟ قال : اذا اصير انا وانت في ماء سواء .

***

قال : ومد يده ابو الاشهب الى شيء بين يدي نميلة بن مرة السعدي، فقال : اذا افردت بشيء فلا تعترض لغيره .

قالوا ومات عليه للدقاق وحده ثمانون الف درهم ، لكثرة طعامه .

***

وقالوا : كان الحكم بن ايوب الثقفي عاملا للحجاج على البصرة ، واستعمل على العرق جرير بن بهيس المازني ، « ولقب جرير العطرق » . فخرج الحكم يتنزه ، وهو باليمامة . فدعا العطرق الى غدائه . فأكل معه ، فتناول دراجة كانت بين يديه . فعزله ، وولى مكانه نويرة المازني ، فقال نويرة ، وهو ابن عم العطرق :

قد كان في العرق صيد لو قنعت به ... فيه غنى لك عن دراجة الحكم
وفي عوارض لا تنفك تأكلها ... لو كان يشفيك لحم الجزر من قرم
وفي وطاب مملاة مثممة ... فيها الصريخ الذي يشفي من القرم

ولما ولي مكانه نويرة ، بلغه انه ابن عم له فعزله . فقال نويرة :

ابا يوسف لو كنت تعرف طاعتي ... ونصحي اذاً ما بعتني بالمحلق
ولا ساق سراق العراقة صالح ... بني ولا كلفت ذنب العطرق

فذهبت مثلا .

***

وتناول رجل من قدام امير كان لنا ، ضخم ، بيضة ، فقال : خذها فانها العقر . فلم يزل محجوبا حتى مات .

واتي ضيعة له يتنزه اليها ، ومعه خمسة رجال من خاصته ، وقد حملوا معه الطعام خمسمائة . وثقل عليه ان يأكلوا معه ، واشتد جوعه ، فجلس على مشارة بقل . فاقبل ينتزع الفجلة فيطوي جزرتها بعرقها ثم يأكلها ، من غير ان تغسل ، من كلب الجوع ، ويقول لواحد منهم كان اقرب الخمسة اليه مجلسا : لو قد ذهب هؤلاء الثقلاء لقد اكلنا .

***

قالوا : واكل عبد الرحمن بن عبد بكرة على خوان معاوية ، فراى لقم عبد الرحمن . فلما كان بالعشي ، وراح اليه ابو بكرة ، قال : ما فعل ابنك من التلقامة ؟ قال : اعتل . قال : مثله لا يعدم العلة .

واكل اعرابي مع ابي الاسود الدؤلي ، فراى له لقما منكرا ، وهاله ما يصنع . قال له : ما اسمك ؟ قال لقمان . قال : صدق اهلك ، انت لقمان .

قالوا : وكان له دكان لا يسع الا مقعده ، وطبيقا يوضع بين يديه ، وجعله مرتفعا ، ولم يجعل له عتبا ، كي لا يرتقي اليه احد . قالوا : فكان اعرابي يتحين وقته ، ويأتيه على فرس ، فيصير كأنه معه على الدكان . فأخذ دبة وجعل فيها حصى ، واتكأ عليها . فاذا راى الاعرابي قد اقبل ، اراه كأنه يحول متكاه . فاذا تعقعت الدبة بالحصى نفر الفرس .

قالوا : فلم يزل الاعرابي يدنيه ، ويقعقع هو به حتى نفر منه فصرعه. **فكان لا يعود بعد ذلك اليه .**

رسالة ابي العاص بن عبد الوهاب
بن عبد المجيد الثقفي
الى الثقفي

بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد فان جلوسك الى الاصمعي ، وعجبك بسهل بن هارون ، واسترجاحك اسماعيل بن غزوان ، وطعنك على مويس بن عمران ، وخلطتك بابن مشارك ، واختلافك الى ابن التوام، واكثارك من ذكر المال واصلاحه، والقيام عليه واصطناعه واطنابك في وصف الترويج والتثمير ، وحسن التعهد والتوفير ــ دليل على خبي سوء ، وشاهد على عيب وادبار ، بعد ان كنت تستثقل ذكرهم ، وتستشنع فعلهم ، وتتعجب من مذهبهم ، وتسرف في ذمهم .

وليس يلهج بذكر الجمع ، الا من قد عزم على الجمع ، ولا يأنس بالبخلاء ، الا المستوحش من الاسخياء .

وفي تحفظك لقول سهل بن هارون : في الاستعداد في حال المهلة ، وفي الاخذ بالثقة ، وان اقبح التقريظ ما جاء مع طول المدة ، وان الحزم كل الحزم ، والصواب كل الصواب ، ان يستظهر على الحدثان ، وان يجعل ما فضل عن قوام الابدان ، رداء دون صروف الزمان ، وانا لا ننسب الى الحكمة ، حتى نحوط اصل النعمة ، بان نجعل دون فضولها جنة ــ شاهد على عجبك بمذهبه ، وبرهان على ميلك الى سبيله .

وفي استحسانك رواية الاصمعي في « ان اكثر اهل النار النساء والفقراء ، وان اكثر اهل الجنة البله والاغبياء ، وان ارباب الدثور ، هم الذين ذهبوا بالاجور » برهان على صحة حكمنا عليك ، ودليل على صواب راينا فيك .

وفي تفضيلك كلام ابن غزوان ، حين قال :

« تنعمتم بالطعام الطيب ، وبالثياب الفاخرة ، وبالشراب الرقيق ، وبالغناء المطرب ، وتنعمنا بعز الثروة ، وبصواب النظر في العاقبة ، وبكثرة المال ، والامن من سوء الحال ، ومن ذل الرغبة الى الرجال ، والعجز عن مصلحة العيال .

فتلك لذتكم ، وهذه لذتنا . وهذا راينا في التسلم من الذم ، وذاك رايهم في التعرض للحمد . وانما ينتفع بالحمد السليم الفارغ البال ، ويسر باللذات الصحيح الصادق الحس . فاما الفقير فما اغناه على الحمد، وافقره الى ما به يجد طعم الحمد ! والطعام الذي اثرتموه يعود رجيعا ، والشراب يصير بولا ، والبناء يعود نقضا . والغناء ريح هابة ، ومسقط للمروءة ، وسخافة تفسد ، ورنة تسير . فلذتكم فيما حوى لكم الفقر ، ونقض المروءة، ولذتنا فيما حوى لنا الغنى ، وبنى المروءة . فنحن في بناء ، وانتم في هدم ، ونحن في ابرام ، وانتم في نقض ، ونحن في التماس العز الدائم ، مع فوت بعض اللذة ، وانتم في التعرض للذل الدائم ، مع فوت كل مروة » .

وقد فهمنا معنى حكايتك ، وما لهجت به من روايتك . والدليل على انتقاض طباعك ، وادبار امرك ، استحسانك ضد ما كنت تستحسن ، وعشقك لما لم تزل تمقت . فبعدا وسحقا ! ولا يبعد الله الا من ظلم .

والشاعر ابصر بكم حيث يقول :

فان سمعت بهلك للبخيل فقل بعدا وسحقا له من هالك مودي !
تراثه جنة للوارثين اذا اودى ، وجثمانه للتراب والدود

وقال آخر :

تبلى محاسن وجهه في قبره والمال بين عدوه مقسوم

والحمدلله الذي لم يمتني حتى ارانيك وكيلا في مالك ، واجيرا .

واما انت فقد تعجلت الفقر قبل اوانه ، وصرت كالمجلو في غير لذة .

وهل تزيد حال من انفق جميع ماله ، وراى المكروه في عياله ، وظهر فقره ، وشمت به عدوه ، على اكثر من انصراف المؤنسين عنه ، وعلى بغض عياله وعلى خشونة الملبس ، وخشونة المأكل ؟ وهذا كله مجتمع في ممسك البخيل ، ومصبوب على هامة الشحيح ، ومعجل للئيم ، وملازم للمنوع ، الا ان المنفق قد ربح المحمدة ، وتمتع بالنعمة ، ولم يعطل المقدرة ، وفي كل خصلة من هذه حقها ، ووفر عليها نصيبها ، والممسك معذب بحصر نفسه، وبالكد لغيره ، مع لزوم الحجة ، وسقوط الهمة ، والتعرض للذم والاهانة، ومع تحكيم المرة السوداء في نفسه ، وتسليطها على عرضه ، وتمكينها من عيشه وسرور قلبه

ولقد سرى اليك عرق ، ولقد دخل اعراقك جور ، ولقد عمل فيها قادح ، ولقد عالها عول ، وما هذا المذهب من اخلاق صميم ثقيف ، ولا من شيم اعرقت فيها قريش ولقد عرض لك اقراف ، ولقد افسدتك هجنة . ولقد قال معاوية : من لم يكن من بني عبد المطلب جودا فهو دخيل ، ومن لم يكن من آل الزبير شجاعا فهو لزيق ومن لم يكن من بني المغيرة تياها فهو سنيد . وقال سلم بن قتيبة : اذا رايت الثقفي يعز من غير طعام ، ويكسب لغير انفاق ، فبهرجه ثم بهرجه ثم بهرجه . وقال بلال بن ابي بردة : لولا شباب ثقيف وسفهاؤهم ما كان لاهل البصرة مال .

ان الله جواد لا يبخل ، وصدوق لا يكذب ، ووفي لا يغدر ، وحليم لا يعجل ، وعدل لا يظلم . وقد امرنا بالجود ، ونهانا عن البخل ، وامرنا بالصدق ، ونهانا عن الكذب ، وامرنا بالحلم ، ونهانا عن العجلة ، وامرنا بالعدل ، ونهانا عن الظلم ، وامرنا بالوفاء ونهانا عن الغدر .

فلم يأمرنا الا بما اختار لنفسه ، ولم يزجرنا الا عما لم يرضه لنفسه. وقد قالوا بأجمعهم : ان الله اجود الاجودين ، وامجد الامجدين ، كما قالوا: ارحم الراحمين ، واحسن الخالقين . وقالوا في التاديب لسائليهم . والتعليم لاجوادهم : لا تجاودوا الله ، – جل ذكره – اجود وامجد . وذكر نفسه – جل جلاله ، وتقدست اسماؤه – فقال : « ذو الفضل العظيم » وذي الطول، لا اله الا هو وقال : ذو الجلال والاكرام .

وذكر النبي « صلى الله عليه وسلم » ، فقالوا : لم يضع درهما على درهم ، ولا لبنة على لبنة . وملك جزيرة العرب ، فقبض الصدقات وجبيت له الاموال ما بين غدران العراق الى شحر عمان ، الى اقصى مخاليف اليمن . ثم توفي وعليه دين ، ودرعه مرهونة . ولم يسأل حاجة قط فقال : لا . وكان اذا سئل اعطي ، واذا وعد او اطمع كان وعده كالعيان ، واطماعه كالانجاز ، ومدحته الشعراء بالجود ، وذكرته الخطباء بالسماح . ولقد كان يهب الرجل الواحد الضاجعة من الشاه ، والعرج من الابل – وكان اكثر ما يهب الملك من العرب مائة بعير ، فيقال : وهب هنيدة . وانما يقال ذلك ، اذا اريد بالقول غاية المدح – ولقد وهب لرجل الف بعير . فلما رآها تزدحم في الهوادي قال : اشهد انك نبي . وما هذا مما تجود به الانفس .

وفخرت هاشم على سائر قريش فقالوا : نحن اطعم للطعام ، واضرب للهام . وذكرها بعض العلماء فقالوا : اجواد امجاد : ذوو السنة حداد . واجمعت الامم كلها بخيلها وسخيها وممزوجها ، على ذم البخل ، وحمد الجود . كما اجمعوا على ذم الكذب وحمد الصدق وقالوا افضل الجود ، الجود بالموجود . وحتى قالوا في جهد المقل ، وفيمن اخرج الجهد واعطي

الكل . وحتى جعلوا لمن جاد بنفسه ، فضيلة على من جاد بماله ، فقال الفرزدق :

على ساعة لو كان في القوم حاتم على جوده ضنت به نفس حاتم

ولم يكن الفرزدق ليضرب المثل في هذا الموضع بكعب بن مامة ، وقد جاد بحوبائه عند المصافنة . فما رأينا عربيا سفه حلم حاتم لجوده بجميع ماله . ولا رأينا احدا منهم سفه حلم كعب على جوده بنفسه ، بل جعلوا ذلك من كعب لأياد مفخرا . وجعلوا ذلك من حاتم طيء مأثرة لقحطان على عدنان ، ثم للعرب على العجم ، ثم لسكان جزيرة العرب ولاهل تلك البرية على سائر الجزائر والترب .

فمن اراد ان يخالف ما وصف الله ــ جل ذكره ــ به نفسه ، وما منح من ذلك نبيه « صلى الله عليه وسلم » ، وما فطر على تفضيله العرب قاطبة . والامم كافة ، لم يكن عندنا فيه الا اكفاره واستسقاطه .

ولم نر الامة ابغضت جوادا قط ، ولا حقرته ، بل احبته واعظمته ، بل احبت عقبه واعظمت من اجله رهط رهطه . ولا وجدناهم ابغضوا جوادا ، لمجاوزته حد الجود الى السرف ، ولا حقرته . بل وجدناهم يتعلمون مناقبه ، ويتدارسون محاسنه . وحتى اضافوا اليه من نوادر الجميل ما لم يفعله ، ونحلوه من غرائب الكرم ما لم يكن يبلغه . ولذلك زعموا ان الثناء في الدنيا يضاعف كما تضاعف الحسنات في الاخرة . نعم ، وحتى اضافوا اليه كل مديح شارد ، وكل معروف مجهول الصاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم للبخيل ، على ضد هذه الصفة ، وعلى خلاف هذا المذهب: وجدناهم يبغضونه مرة ويحقرونه مرة ، ويبغضون بفضل بغضه ولده ، ويحتقرون بفضل احتقارهم له رهطه ، ويضيفون اليه من نوادر اللؤم ما لم يبلغه، ومن غرائب البخل ما لم يفعله . وحتى ضاعفوا عليه من سوء الثناء ، بقدر ما ضاعفوا للجواد من حسن الثناء .

وعلي انا لا نجد الجوائح الى اموال الاسخياء ، اسرع منها الى اموال البخلاء ولا رأينا عدد من افتقر من البخلاء اقل .

والبخيل عند الناس ليس هو الذي يبخل على نفسه فقط ، فقد يستحق عندهم اسم البخيل ، ويستوجب الذم ، من لا يدع لنفسه هوى الا ركبه ، ولا حاجة الا قضاها ولا شهوة الا ركبها وبلغ فيها غايته . وانما يقع عليه اسم البخيل ، اذا كان زاهدا في كل ما اوجب الشكر ، ونوه بالذكر ، وادخر الاجر .

وقد يعلق البخل على نفسه من المؤن . ويلزمها من الكلف . ويتخذ من الجواري والخدم ، ومن الدواب والحشم ، ومن الآنية العجيبة ، ومن

البزة الفاخرة . والشارة الحسنــة ، ما يربي على نفقــة السخي المثري ، ويضعف على جود الجواد الكريم .

فيذهب ماله وهو مذموم ، ويتغير حاله وهو ملوم . وربما غلب عليه حب القيان ، واستهتر بالخصيان . وربما افرط في حب الصيد ، واستولى عليه حب المراكب ، وربما كان اتلافه في العرس والخرس والوليمة، واسرافه في الاعذار وفي العقيقة والوكيرة . وربما ذهبت امواله في الوضائع والودائع.

وربما كان شديد البخل ، شديد الحب للذكر ، ويكون بخله اوشح ، ولؤمه اقبح ، فينفق امواله ويتلف خزائنه ، ولم يخرج كفافا ، ولم ينــج سليما .

كأنك لم تر بخيلا مخدوعا ، وبخيلا مضعوفا ، وبخيلا مضياعا، وبخيلا ذهب ماله في البناء ، وبخيلا ذهب ماله في الكيمياء ، وبخيلا انفق ماله فــي طمع كاذب وعلى امل خائب ، وفي طلب الولايات ، والدخول في القبــالات وكانت فتنته بما يؤمل من الامرة فوق فتنته بما قد حواه ســن الــذهب والفضة .

قد رأيناه ينفق على مائدته وفاكهته الف درهم في كل يوم ، وعنده في كل يوم عرس ، ولان يطعن طاعن في الاسلام ، اهون عليه من ان يطعن طاعن في الرغيف الثاني ، ولشق عصا الدين ، اهون عليه من شق رغيف . لا يعد الثلمة في عرضه ثلمة ، ويعدها في ثريدته من اعظم الثلم .

وانما صارت الآفات الى اموال البخلاء اسرع ، والجوائح عليهم اكلب، لانهم اقل توكلا ، واسوأ بالله ظنا . والجواد اما ان يكون متوكلا ، واما ان يكون احسن بالله ظنا . وهو على كل حال بالمتوكل اشبه ، والى ما اشبهه انزع . وكيفما دار امره ، ورجعت الحال به ، فليس ممن يتكل على حزمه، ويلجأ الى كيسه ، ويرجع الى جودة احتياطه ، وشدة احتراسه .

واعتلال البخيل بالحدثان ، وسوء الظن بتقلب الزمان ، انمــا هــو كناية عن سوء الظن بخالق الحدثان ، وبالذي يحدث الازمان ، واهل الزمان. وهل تجري الاحداث الا على تقدير المحدث لها ؟ وهل تختلف الازمنة الا على تصريف من وبرها ؟ او لسنا وان جهلنا اسبابها ، فقد ايقنا بانها تجري الى غايتها ؟

والدليل على انه ليس بهم خوف الفقر ، وان الجمع والمنع امــا ان يكون عادة منهم ، او طبيعة فيهم ، انك قــد تجد الملك بخيلا ، ومملكتــه اوسع ، وخرجه ادر ، وعدوه اسكن . وتجد احزم منه جودا ، وان كانت مملكته اضيق ، وخرجه اقل ، وعدوه اشد حركة .

وقد علمنا ان الزنج اقصر الناس مرة وروية ، واذهلهم عن معرفــة

العاقبة . فلو كان سخاؤهم انما هو لكلال حدهم ونقص عقولهم ، وقلة معرفتهم ، لكان ينبغي لفارس ان تكون ابخل من الروم ، وتكون الروم ابخل من الصقالبة ، وكان ينبغي في الرجال في الجملة ، ان يكونوا ابخل من النساء في الجملة ، وكان ينبغي للصبيان ان يكون اسخى من النساء ، وكان ينبغي ان يكون اقل البخلاء عقلا ، اعقل من اشد الاجواد عقلا ، وكان ينبغي للكلب — وهو المضروب بالمثل في اللؤم — ان يكون اعرف الامور من الديك، المضروب به المثل في الجود .

قالوا : « هو اسخى من لافظه و « الأم من كلب على جيفه » و الام من كلب على عرق » . وقالوا : « اجع كلبك يتبعك و « نعم كلب في بؤس اهله » و « سمن كلبك يأكلك » .

و « احرص من كلب على عقي صبي » و « اجوع من كلبة حومل ، و « لهو ابذأ من كلب » ، و « حش فلان من جزء الكلب و « اخسأ ! » كما يقال للكلب ، و « كالكلب في الآري : لا هو يعتلف ، ولا يترك الدابة تعتلف » .

وقال الشاعر :

سرت ما سرت من ليلها ثم عرست على رجل بالعرج الام من كلب

وقال الله جل ذكره : (فمثله كمثل الكلب ، ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث) . وكان ينبغي في هذا القياس ان يكون المراوزة اعقل البرية ، واهل خراسان ادرى البرية .

ونحن لا نجد الجواد يفر من اسم السرف الى الجود ، كما نجد البخيل يفر من اسم البخل الى الاقتصاد . ونجد الشجاع يفر من اسم المنهزم . والمستحي يفر من اسم الخجل ، ولو قيل لخطيب ثابت الجنان . وقاح ، لجزع .

لم يكن من فضيلة الجود الا ان جميع المتجاوزين لحدود اصناف الخير يكرهون اسم تلك الفضيلة — الا الجواد ، لقد كان في ذلك ما يبين قدره . ويظهر فضله .

المال فاتن ، والنفس راغبة ، والاموال ممنوعة .

وهي على ما منعت حريصة وللنفوس في المكاثرة علة معروفة ، لان من لا فكرة له ولا روية ، موكل بتعظيم ذي الثروة وان لم تكن منه منالة . وقد قال الاول :

وزادها كلفا بالحب ان منعت احب شيء الى الانسان ما منعا

وفي بعض كتب الفرس : كل عزيز تحت القدرة فهو ذليل . وقالت معاذة العدوية : كل مقدور فمقلي او محقور .

ولو كانوا لاولادهم يجمعون . ولهم يكدون ، من اجلهم يحرصون . لجعلوا كثيرا مما يطلبون ، ولتركوا محاسبتهم في كثير مما يشتهون . وهذا ما بفض بعض المورثين الى الوارثين ، وزهد الاخلاف في طول عمر الاسلاف.

ولو كان لاولادهم يمهدون ، ولهم يجمعون ، لما جمع الخصيان الاموال ، ولما كنز الرهبان الكنوز ، ولا استراح العاقر من ذل الرغبة ؛ ولسلم العقيم من كد الحرص . وكيف ؟ ونحن نجده ان يموت ابنه الذي كان يعتل به والذي من اجله كان يجمع على حاله في الطلب والحرص، وعلى مثل ما كان عليه من الجمع والمنع .

والعلة لم تقصر في الطلب والحكرة ، والبخلاء لم يحدوا شيئا من جهدهم ، ولا اغفوا بعد قدرتهم . ولا قصروا في شيء من الحرص والحصر، لانهم في دار قلعة ، وبعرض نقلة . حتى لو كانوا بالخلود موقنين . لاغفلوا تلك الفضول .

فالبخيل مجتهد ، والعامي غير مقصر . فمن لم يستعن على ما وصفنا بطبيعة قوية ، وبشهوة شديدة ، وبنظر شاف ، كان اما عاميا ، واما بخيلا شقيا — ففيم اعتلالهم بأولادهم ، واحتجاجهم بخوف .

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لوافد كذب عنه كذبة ، وكان جوادا : لولا خصلة ومقك الله عليها ، لشردت بك من وافد قوم . وقيل للنبي (صلى الله عليه وسلم) : هل لك في بيض النساء وادم الابل قال : ومن هم قال : بنو مدلج . قال : يمنعني من ذلك قراهم الضيف ، وصلتهم الرحم . وقال لهم ايضا : اذا نحروا ثجوا ، واذا لبوا عجوا . وقال للانصار من سيدكم ؟ قالوا : الحر بن قيس ، على انه يزن فينا ببخل ، فقال : واي داء ادوا من البخل ؟ ثم جعله من ادواء الداء . وقال للانصار : اما والله ما علمتكم الا لتكثرون عند الفزع . وتقلون عند الطمع . وقال : كفى بالمرء حرصا ركوبه البحر . وقال : لو ان لابن آدم واديين من مال لابتغى ثالثا ، ولا يشبع ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب . وقال : السخاء من الحياء ، والحياء من الايمان . وقال : ان الله جواد يحب الجود . وقال انفق يا بلال ، ولا تخش من العرش اقلالا .

وقال : لا تؤكي فيؤكي عليك . وقال : لا تحص فيحصى عليك . وقالوا : لا ينفعك من زاد ما تبقى .

ولم يسم الذهب والفضة بالحجرين الا هو يريد ان يضع من اقدارهما، ومن فتنة الناس بهما . وقال لقيس بن عاصم : انما لك من مالك ما اكلت فافنيت وما لبست فأبليت ، او اعطيت فامضيت . وما سوى ذلك فللوارث .

وقال النمر بن تولب :

وحنت على جمع ومنـع ونفسها لها في صروف الدهر حق كذوب
وكـائن راينـا مـن كريم مرزاء اخي ثقة طلق اليـدين وهـوب
شهدت وفاتوني. وكنت جسبتني فقيرا الـى ان يشهدوا وتغيبـي
اعاذل ان يصبح صـداي بقفـرة بعيـدا نآني صاحبـي وقريبـي
وذي ابل يسعى ويحسبهـا لـه أفي نصب في رعيهـا ودؤوب
غدت وغدا رب سواه يسوقهـا وبدل احجـارا وجـال قليـب

وقال ايضا :

قامت تباكـي ان سبأت لفتيـة زقـا وخابيـة بعـود مقطـع
وقريت في مقري قـلائص اربعـا وقريت بعـد قري قلائص اربع
اتبكيـا مـن كـل شـيء هـين سفه بكـاء العين مـا لم تدمـع
فاذا اتـاني اخوتـي فدعيهـم يتعللوا بالعيش او يلمـوا معـي
لا تطرديهـم عن فراشي ، انـه لا بد يوما ان سيخلو مضجعـي
هـلا سألت بعاديـاء وبيتـه والخيل والخمـر لـم تمنـع

وقال الحارث بن حلزة :

بينـا الفتى يسعى ويسعى لـه تـاح لـه مـن امـره خـالج
يتـرك ما رقـح مـن عيشـه يعبـث فيـه همـج هـامج
لاتكسـع الشـول بأغبـارهـا أنـك لا تـدري مـن النـاتـج

وقال الهذلي :

ان الكرام مناهبوك المجد كلهم فنـاهب
اخلفذ واتلف ، كل شيء ، زرعته الريح ذاهب

وقالت امراة :

انت وهبت الفتيـة السلاهـب وابـلا يحـار فيهـا الحـالـب
وغنمـا مثـل الجـراد الهارب متـاع أيـام ، وكـل ذاهـب

وقال تميم بن مقبل :

فاخلف واتلف ، وانما المال عارة وكله مع الدهر الذي هو آكلـه

وقال ابو ذر : لك في مالك شريكان : الوارث والحدثان .
وقال الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيـه لا يذهب العرف بين الله والناس

وجاء في الاثر : ان اهل المعروف في الدنيا اهـل المعروف في الآخرة . وفي المثل : اصنع الخير ولو الى كلب : وقال في الحث على القليل ، فضلا عن الكثير قال الله جل ذكره (فمن يعمل مثاقل ذرة خيرا يراه ، ومن يعمل

مثقال ذرة شر يره) . وقالت عائشة في حبة عنب : ان فيها لمثاقيل ذر . ولذلك قالوا في المثل من حقر حرم . وقال سلم بن قتيبة يستحي احدهم من تقريب القليل من الطعام ، ويأبى اعظم منه . وقال : جهد المرء اكثر من عفوه . وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جهد المقل على عفو المكثر، وان كان مبلغ جهده قليلا ، ومبلغ عفو المكثر كثيرا . وقالوا : لا يمنعك من معروف صغره وقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : اتقوا النار ولو بشق تمرة . وقال : لا تردوا السائل ولو بظلف محرق ، وقال : لا تردوه ولو بفرسن شاة وقال : لا تحقروا اللقمة ، فانها تعود كالجبل العظيم ، لقول الله جل ذكره : « يمحق الله الربا ويربي الصدقات » وقال : لا تردوه ولو بصلة حبل .

وقالت العرب : اتاكم اخوكم يستتمكم ، فأتموا له . وقالوا : مانع الاتمام الوم وقالوا : البخيل ان سئل الحق وان سئل سوف . قالوا : مانع سئل جحد ، وان اعطي حقد . وقالوا : يرد قبل ان يسمع ، ويغضب قبل ان يفهم وقالوا : البخيل اذا سئل ارتز ، واذا سئل الجواد اهتز . وقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : ينادي كل يوم مناديان من السماء يقول احدهما : اللهم عجل لمنفق خلفا ويقول الاخر : اللهم عجل لممسك تلفا وقالوا : شر الثلاثة المليم ، يمنع دره ودر غيره : وقال الله جل ذكره : «الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » . وقالوا في المثل ـ ان الجأك الدهر الى بخيل : شر ما الجاك الى مخة عرقوب . وقال النبي «صلى الله عليه وسلم»: انهاكم عن عقوق الامهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات . وقال الله عز وجل : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا » . وقال : «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . وقال « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . وقالوا في الصبر على النائبة ، وفي عاقبة الصبر : عند الصباح يحمد القوم السري وقالوا : الغمرات ثم ينجلين .

وقال الخريمي :

ودون الندى في كل قلب ثنية ... بها مصعد حزن ومنحدر سهل
وود الفتى في كل نيل ينيله ... اذا ما انقضى ـ لو ان ناله جزل

وقالوا : خير الناس ، خير الناس للناس ، وشر الناس ، شر الناس للناس . وقالوا خير مالك ما نفعك . وقالوا : عجبا لفرط الكبرة ، مع شباب الرغبة !

وقال الراجز :

كلنا يأمل مدا في الاجل ... والمنايا هي آفات الامل

وقال عبد الله بن عكراش : زمن خؤون ووارث شفون وكاسب حزون .

فلا تأمن الخئون ، وكن وارث الشفون . وقال : يهرم ابن آدم ويشب معه خصلتان : الحرص والامل .

وكانوا يعيبون من يأكل وحده . وقالوا : ما اكل ابن عمر وحده قط . وقالوا : ما اكل الحسن وحده قط . وسمع مجاشع الربعي قولهم : الشحيح اعذر من الظالم ، فقال : اخزي الله امرين خيرهما الشح . وقال بكر بن عبدالله المزني : لو كان هذا المسجد مفعما بالرجال ، ثم قيل لي : من خيرهم لقلت : خير لهم . قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : الا انبئكم بشراركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من نزل وحده ، ومنع رفده . وجلد عبده . وقالت امراة عند جنازة رجل : اما والله ما كان مالك لبطنك ، ولا امرك لعرسك .

***

فما بلغت الرسالة ابن التوأم ، كره ان يجيب ابا العاص . لما في ذلك من المناقشة والمباينة ، وخاف ان يترقى الامر الى اكثر من ذلك . فكتب هذه وبعث بها الى الثقفي :

بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد ، فقد بلغني ما كان من ذكر ابي العاص لنا ، وتنويهه باسمائنا ، وتشنيعه علينا . وليس يمنعنا من جوابه الا انه ان اجابنا لم يكن جوابنا إياه على قوله الثاني ، احق بالترك من جوابنا له على قوله الاول . فان نحن جعلنا لابتدائه جوابا ، وجعلنا لجوابه الثاني جوابا ، خرجنا الى التهاتر وصرنا الى التخابر . ومن خرج الى ذلك فقد رضي باللجاج حظا ، وبالسخف نصيبا .

وليس يحترس من اسباب اللجاج الا من عرف اسباب البلوى . ومن وقاه الله سوء التكفي وسخفه ، وعصمه من سوء التصميم ونكده ، فقد اعتدلت طباعه ، وتساوت خواطره ومن قامت اخلاطه على الاعتدال ، وتكافأت خواطره في الوزن ، لم يعرف من الاعمال (الا) الاقتصاد ، ولم يجد افعاله ابدا الا بين التقصير والافراط ، لان الموزون لا يولد الا موزونا ، كما ان المختلف لا يولد الا مختلفا .

فالمتتابع لا يثنيه زجر ، وليست له غاية دون التلف . والمتكفي ليس له مأتى ولا جهة ، ولا رقية ، ولا فيه حيلة . وكل متلون في الارض فمنحل العقد ، ميسر لكل ريح .

فدع عنك خلطة الامعة ، فانه حارص لا خير فيه ، واجتنب ركوب الجموح ذي النزوات ، فان غايته القتل ، ولا في الحرون ذي التصميم . والمتلون شر من المصمم ، اذ كنت لا تعرف له حالا يقصد اليها ، ولا جهة يعمل عليها . ولذلك صار العاقل يخدع العاقل ، ولا يخدع الاحمق ، لان ابواب تدبير العاقل وحيله معروفة ، وطرق خواطره مسلوكة ، ومذاهبه محصورة معدودة وليس لتدبير الاحمق وحيله جهة واحدة من اخطأها كذب . والخبر الصادق عن الشيء الواحد لا يحصى له عدد ، ولا يوقف منه على حد . والمصمم قتله بالاجهاز والمتلون قتله بالتعذيب . فان قلنا ، فليس اليه نقصد ، وان احتججنا ، فلسنا عليه نرد . ولكنا اليك نقصد بالقول ، واليك نريد بالمشورة .

وقد قالوا : احفظ سرك ، فان سرك من دمك . وسواء ذهاب نفسك، وذهاب ما به يكون قوام نفسك . قال المنجاب العنبري : « ليس بكبير ما اصلحه المال . وفقد الشيء الذي به تصلح الامور أعظم من الامور . ولهذا قالوا في الابل : « لو لم يكن فيها الا انها رقوء الدم » ــ فالشيء الذي هو ثمن الابل وغير الابل احق بالصون . وقد قضوا بأن حفظ المال اشد من جمعه .

ولذلك قال الشاعر :

وحفظك مالا قد عنيت بجمعه اشد من الجمع الذي انت طالبه

ولذلك قال مشتري الارض لبائعها ، حين قال له البائع : دفعتها اليك بطيئة الاجابة ، عظيمة المؤونة . ــ قال : دفعتها اليك بطيئة الاجتماع ، سريعة التفرق .

والدرهم هو القطب الذي تدور عليه رحى الدنيا . واعلم ان التخلص من نزوات الدرهم وتقلبه ــ من سكر الغني ــ وتفلته شديد . فلو كان اذ تفلت ، كان حارسه صحيح العقل ، سليم الجوارح ، لرده في عقاله، ولشده بوثاق . ولكنا وجدنا ضعفه عن ضبطه ، بقدر قلقه في يده .

ولا تغتر بقولهم : « مال صامت ، فانه انطق من كل خطيب ، وانم من كل نمام . فلا تكترث بقولهم : « هذين الحجرين » فتتوهم جمودهما وسكونهما ، وقلة ظعنهما ، وطول اقامتهما ، فان عملهما ، وهما ساكنان ونقضهما للطبائع ، وهما ثابتان ، اكثر من صنيع السم الناقع ، والسبع

العادي فان كنت لا تكتفي بصنيعه حتى تمده ؛ ولا تحتال فيه حتى يحتال له ، فالقبر خير لك من الفقر . والسجن خير لك من الذل .

وقولي هذا مره يعقب حلاوة الابد . فخذ لنفسك بالثقة . فقولك الماضي ، حلو يعقب مرارة الابد . فخذ لنفسك بالثقة . ولا ترض ان يكون الحرباء الراكب العود احزم منك ، فان الشاعر يقول :

انـي أتيح لها حربـاء تنضبة لا يرسل الساق الا ممسكا ساقا

واحذر ان تخرج من مالك درهما ، حتى ترى مكانه خيرا منه . ولا تنظر الى كثرته ، فان رمل علج لو اخذ منه ولم يرد عليه ، لذهب عن آخره .

ان القوم قد اكثروا في ذكر الجود وتفضيله ، وفي ذكر الكرم وتشريفه، وسموا السرف جودا ، وجعلوه كرما . وكيف يكون كذلك وهو نتاج ما بين الضعف والنفج ؟ وكيف ، والعطاء لا يكون سرفا الا بعد مجاوزة الحق ، وليس وراء الحق الى الباطل كرم .

واذا كان الباطل كرما كان الحق لؤما . والسرف ــ حفظك الله ــ معصية الله كرما ، كانت طاعته لؤما . ولئن جمعهم اسم واحد ، وشملهما حكم واحد ، « ومضادة الحق للباطل ، كمضادة الصدق للكذب ، والوفاء للغدر ، والجور للعدل ، والعلم للجهل ليجمعن هذه الخصال اسم واحد ، وليشملنها حكم واحد .

وقد وجدنا الله عاب السرف ، وعاب الحمية ، وعاب المعصية . ووجدناه قد خص السرف بما لم يخص به الحمية ، لانه ليس حب المرء لرهطه من المعصية ، ولا انفته من الضيم من حمية الجاهلية .

وانما المعصية ما جاوز الحق ، والحمية المعيبة ما تعدى القصد . فوجدنا اسم الانفة قد يقع محمودا ومذموما ، وما وجدنا اسم المعصية، ولا اسم السرف يقع ابدا الا مذموما .

وانما يسر باسم السرف جاهل لا علم له ، او رجل انما يسر به لان احدا لا يسميه مسرفا حتى يكون عنده قد جاوز حد الجود ، وحكم له بالحق ، ثم اردفه بالباطل فان سر من غير هذا الوجه ، فقد شارك المادح في الخطأ ، وشاكله في وضع الشيء في غير موضعه .

وقد اكثروا في ذكر الكرم . وما الكرم الا كبعض الخصال المحمودةالتي لم بعدمها بعض الذم . وليس شيء يخلو من بعض النقص والوهن . وقد زعم الاولون ان الكرم يسبب الغباء ، وان الغباء يسبب البله ، وانه ليس وراء البله الا العته . وقد حكوا عن كسرى انه قال :

« احذروا صولة الكريم اذا جاع ، واللئيم اذا شبع » ــ وسواء جاع

فظلم واحفظ وعسف ، ام جاع وكذب وضرع واسف . وسواء جاع فظلم غيره ، ام جاع فظلم نفسه .

والظلم لؤم . وان كان الظلم ليس بلؤم ، فالانصاف ليس بكرم . وان كان الجود على من لا يستحق الجود كرما ، فالجود لمن وجب له ذلك ليس بكرم . فالجود اذا كان لله كان شكرا له ، والشكر كرم . ولن يكون الجود — اذا كان معصية — كرما . فكيف يتكرم من يتوصل بأياديك الى معصيتك؟ وبنعمك الى سخطك ؟ فليس الكرم الا الطاعة . وليس اللؤم الا المعصية ، وليس بجود ما جاوز الحق ، وليس بكرم ما خالف الشكر . ولئن كان مجاوز الحق كريما ، ليكونن المقصر دونه كريما .

فان قضيتم بقول العامة ، فالعامة ليست بقدوة . وكيف يكون قدوة من لا ينظر ولا يحصل ، ولا يفكر ولا يمثل ؟ وان قضيتم بأقاويل الشعراء ، وما كان عليه اهل الجاهلية الجهلاء ، فما قبحوه مما لا يشك في حسنه ، اكثر من ان نقف عليه ، او نتشاغل باستقصائه .

على انه ليس بجود الا ما اوجب الشكر ، كما انه ليس ببخل الا ما اوجب اللؤم . ولن تكون العطية نعمة على المعطي ، حتى نراود بها نفس ذلك المعطي ولن يجب عليه الشكر الا مع شريطة القصد .

وكل من كان جوده اليه ، ولولا رجوعه اليه لما جاد عليك ، ولو تهيأ له ذلك المعنى في سواك لما قصد اليك — فانما جعلك معبرا لدرك حاجته ، ومركبا لبلوغ محبته . ولولا بعض القول ، لوجب لك عليه حق يجب به الشكر . فليس يجب لمن كان كذلك شكر ، وان انتفعت بذلك منه ، اذ كان لنفسه عمل ، لانه لو تهيأ له ذلك النفع في غيرك ، لما تخطاه اليك .

وانما يوصف بالجود في الحقيقة ، ويشكر على النفع في حجة العقل — الذي ان جاد عليك ، فلك جاد ، ونفعك اراد ، من غير ان يرجع اليه جوده بشيء من المنافع ، على جهة من الجهات ، وهو الله وحده لا شريك له .

فان شكرنا للناس على بعض ما قد جرى لنا على ايديهم ، فانما هو لامرين احدهما التعبد ، وقد نعبد الله بتعظيم الوالدين ، وان كانا شيطانين ، وتعظيم من هو اسن منا ، وان كنا افضل منه . والآخر ، لان النفس ما لم تحصل الامور وتميز المعاني ، فالسابق اليها حب من جرى لها على يده خير ، وان كان لم يردها ، ولم يقصد اليها .

ووجدنا عطية الرجل لصاحبه لا تخلو ان تكون لله ، او لغير الله . فان كانت لله ، فثوابه على الله . وكيف يجب علي في حجة العقل شكره ، وهو لو صادف ابن سبيل غيري لما حملني ولا اعطاني ؟ — واما ان يكون اعطاؤه اياي للذكر . فاذا كان الامر كذلك ، فانما جعلني سلما الى تجارته،

وسببا الى بغيته ، او يكون اعطاؤه اياي من طريق الرحمة والرقة ، ولما يجد في فؤاده الغصة والالم فان كان لذلك اعطى، فانما داوى نفسه من دائـه ، وكان كالذي رفه من خناقه .

وان كان انما اعطاني على طلب المجازاة وحب المكافـأة ، فأمر هـذا معروف . وان كان انما اعطاني من خوف يدي او لساني ، او اجترار معونتي ونصرتي ، فسبيله سبيل جميع ما وصفنا وفصلنا .

فلأسم الجود موضعان :

احدهما حقيقة ، والاخر مجاز . فالحقيقة ما كان من الله ، والمجاز المشتق له من هذا الاسم . وما كان لله كان ممدوحا وكان لله طاعة . فاذا لم تكن العطية على الله ولا لله ، فليس يجوز هذا فيمـا سموه جودا ، فمـا ظنك بما سموه سرفا ؟

افهـم ما انا مورده عليـك ، وواصفـه لك : ان التربـح والتكسب والاستئكال بالخديعة والطعم الخبيثة غالبة ، ومستفيضة ظاهرة . على ان كثيرا ممن يضاف الى النزاهة والتكرم ، والى الصيانة والتوقي ، ليأخذ من ذلك بنصيب وافر ، وبمد واف . فما ظنك بدهماء الناس وجمهورهم ؟ بل ما ظنك بالشعراء والخطباء الذين انما تعلموا المنطق لصناعـة التكسب ؟ وهؤلاء قوم بودهم ان ارباب الاموال قد جاوزوا حد السلامة او الغفلـة ، حتى لا يكون للاموال حارس ، ولا دونها مانع .

فاحذرهم ، ولا تنظر الى بزة احدهم ، فان المسكين اقنع منه . ولا تنظر الى وكبه ، فان السائل اعف منه . واعلم انه في مسك مسكين ، وان كان في ثياب جواد ، وروحه روح نذل ، وان كان في جرم ملك . وكلهم، وان اختلفت وجوه مسألتهم ، واختلفت اقدار مطالبهـم ، فهو مسكين الا ان واحدا يطلب العلق ، وآخر يطلب الخرق ، وآخر يطلب الدوانيق ، وآخر يطلب الالوف . فجهة هذا هي جهة هذا وطعمة هذا هي طعمة هذا .

وانما يختلفون في اقدار ما يطلبون ، على قدر الحذق والسبب .

فاحذروا رقاهم وما نصبوا لك من الشرك، واحرس نعمتك وما دسوا لها من الدواهي . واعمـل على ان سحرهم يسترق الذهـن ، ويختطف البصر . قال رسول الله « صلى الله عليه وسلم » : ان من البيان لسحرا. وسمع عمر بن عبد العزيز رجلا يتكلم في حاجة فقال : هذا والله السحـر الحلال . وقد قال رسول الله « صلى الله عليه وسلم » : لا خلابـة ــ واجذر احتمال مديحهم ، فان محتمل المديح في وجهه ، كمادح نفسـه :

ان مالك لا يسع مريديه ، ولا يبلغ رضا طالبيـه . ولو ارضيتهـم باسخاط مثلهم ، لكان ذلك خسرانا مبينا . فكيف ومـن يسخط اضعـاف

من يرضى ؟ وهجاء الساخط اضر من فقد مديح الراضي . وعلى انهم اذا اعتورك بمشاقصهم ، وتداولوك بسهامهم ، لم تر ممن ارضيته باسخاطهم احدا يناضل عنك ، ولا يهاجي شاعرا دونك . بل يخليك غرضا لسهامهم ودريئة لنبالهم . ثم يقول : وما كان عليه لو ارضاهم ! فكيف يرضيهم ورضا الجميع شيء لا ينال ؟ وقد قال الاول : وكيف يتفق رضا المختلفين ؟ وقالوا : منع الجميع ارضى الجميع .

اني احذرك مصارع المخدوعين ، وارفعك عن مضاجع المغبونين . انك لست كمن لم يزل يقاسي تعذر الامور ، ويتجرع مرارة العيش ، ويتحمل ثقل الكد ويشرب بكأس الذل ، حتى كان يمرن على ذلك جلده ، ويسكن عليه قلبه : وفقر مُثلك مضاعف الالم ، وجزع من لم يعرف الالم اشد ومن لم يزل فقيرا فهو لا يعرف الشامتين ، ولا يدخله المكروه من سرور الحاسدين ، ولا يلام على فقره ، ولا يصير موعظة لغيره ، وحديثا يبقى ذكره ، ويلعنه بعد الممات ولده .

ودعني من حكايات المستأكلين ، ورقى الخادعين فما زال الناس يحفظون اموالهم من مواقع السرف . ويخبؤنها من وجوه التبذير : ودعني مما لا نراه الا في الاشعار المتكلفة ، والاخبار المولدة ، والكتب الموضوعة فقد قال بعض اهل زماننا : ذهبت المكارم الا من الكتب !

فخذ فيما تعلم ، ودع نفسك مما لا تعلم : هل رايت احداقط انفق ماله على قوم كان غناهم سبب فقره انه سلم عليهم حين افتقر . « فردوا عليه » ـ فضلا على غير ذلك ؟ او لست قد رأيتهم بين محمق ، ومحتجب عنه ، وبين من يقول فهلا انزل حاجته بفلان الذي كان يفضله ويقدمه ويؤثره ويخصه ؟ ـ ثم لعل بعضهم ان يتجنى عليه ذنوبا ، ليجعلها عذرا في منعه وسببا الى حرمانه : قال جل ذكره : « يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون .

فانا القائم عليك بالموعظة والزجر ، والامر والنهي ، وانت سالم العقل والعرض ، وافر المال ، حسن الحال . فاتق ان اقوم غدا على راسك بالتقريع والتعبير ، والتوبيخ والتانيب ، وانت عليل القلب ، مختل العرض عديم من المال ، سيء الحال .

ليس جهد البلاء مد الاعناق ، وانتظار وقع السيوف ، لان الوقت قصير ، والحس مغمور ولكن جهد البلاء ان تظهر الخلة وتطول المدة ، وتعجز الحيلة : ثم لا تعدم صديقا مؤنبا ، وابن عم شامتا ، وجارا حاسرا ،

ووليا قد تحول عدوا ، وزوجة مختلعة ، وجارية مستبيمة وعبدا يحقرك « وولدا » ينتهرك .

فانظر أين موقع فوت الثناء ، من موقع ما عددنا عليك من البلاء ؟ على ان الثناء طعم ، ولعلك الا تطعمه ، والحمد ارزاق ، ولعلك الا تحرمه.

وما يضيع من احسان الناس اكثر وعلى ان الحفظ قد ذهب بموت اهله الا ترى ان الشعر لما كسد افحم اهله ، لما دخل النقص على كل شيء اخذ الشعر منه بنصيبه ، ولما تحولت الدولة في العجم ـ والعجم لا تحوط الانساب ولاتحفظ المقامات ـ لان من كان في الريف والكفاية ، وكان مغمورا بسكر الغنى ، كثر نسيانه ، وقلت خواطره . ومن احتاج تحركت همته ، وكثر تنقيره .

وعيب الغنى انه يورث البلادة . وفضيلة الفقر انه يبعث الفكر . وان انت ضحيت الغني باهمال النفس . اسكرك الغنى وسكر الغنى سبة المستأكلين ، وتهمة الخداعين وان كنت لا ترضى بحظ النائم ، وبعيش البهائم . واحببت أن تجمع مع تمام نفس المثري ، ومع عز الغنى وسرور القدرة ، فطنة المخف ، وخواطر المقل ، ومعرفة الهارب واستدلال الطالب اقتصدت في الانفاق ، وكنت معدا للحدثان ، محترسا من كل خداع .

لست تبلغ حيل لصوص النهار ، وحيل اصحاب الكيمياء وحيل التجار في الاسواق ، والصناع جميع الصناعات ، وحيل اصحاب الحروب وحيل المستأكلين والمتكسبين .

ولو جمعت الخبر والسحر والتمائم والسم ، لكانت حيلهم في الناس اشد تغلغلا ، واعرض ، واسرى في عمق البدن ، وادخل الى سويداء القلب ، والى ام الدماغ ، والى صميم الكبد .

ولهي ادق مسلكا ، وابعد غاية من العرق الساري ، والشبه النازع، ولو اتخذت الحيطان الرفيعة الثخينة ، والاقفال المحكمة الوثيقة ، ولو اتخذت المارق والجواسق ، والابواب الشداد ، والحرس المتناوبين باغلظ المؤن . واشد الكلف وتركت التقدم فيما هو احضر ضررا وادوم شرا ، ولا غرم عليك في الحراسة فيه ، ولامشقة عليك في التحفظ منه .

انك ان فتحت لهم على نفسك مثل سم الخياط جعلوا فيه طريقا نهجا ، ولقى رحبا . فاحكم بابك ، بل ادم اصفاقه ، فهو اولى بك . بل ان تدرت على مصمت لا حيلة فيه ، فذلك لمشبه بحزمك .

ولو جعلت الباب مقهما ومقفل مصمتا ، لتسوروا عليك من فوقك . ولو رفعت سمكة الى العيوق لنقبوا عليك من تحتك . قال ابو الدرداء : نعم صومعة المؤمن بيته . وقال ابن سيرين : العزلة عبادة .

وحلاوة حديثهم تدعو الى الاستكثار منهم بل تدعو الى احضار غرائب شهواتهم فمن ذلك قول بعضهم لبعض اصحابه : كل رخلة ، واشسب مشعلا ، ثم تجشأ واحدة ، لو ان عليها رحى لطحنت !

ومن ذلك قول لآخر ، حين دخل على قوم وهم يشربون ، وعندهم قيان ، فقالوا : اقترح اي صوت شئت ، قال : اقترح نشيش مقلى !

ومن ذلك قول المديني : من تصبح بسبع موزات ، وبقدح من لبو الاوراك تجشأ بخور الكعبة .

ومع ذلك قولهم لبعض هؤلاء وقدامهم خبيض : ايهما اطيب ؟ هذا او الفالوذج او اللوزينج ؟ قال : لا اقضي على غائب .

ومن ذلك كلام الجارود بن ابي سبرة ، لبلال بن ابي بردة ، حين قال له : صف لي عبد الاعلى وطعامه . قال : يأتيه الخباز فيمثل بين يديه ، فيقول : ما عندك ؟ فيقول : عندي جدي كذا ، وعناق كذا ـ حتى يأتي على جميع ما عنده . قال : وما يدعوه الى هذا ؟ قال : ليقتصر كل امرىء الاكل ، حتى اذا اتي بالذي يشتهي ، بلغ منه حاجته . قال : ثم ماذا ؟ قال ثم يؤتى بالمائدة فيتضايقون ، حتى يخوي تخوية الظليم . فيجدون فيهزل ، حتى اذا فتروا اكل اكل الجائع المقرور .

وقال آخر : اشتهي ثريدة دكناء من الفلفل ، ورقطاء من الحمص ذات حفافين من اللحم ، لها جناحان من العراق ، اضرب فيها كما يضرب ولي السوء في مال اليتيم .

وسئل بعضهم عن خطوط البلدان في الطعام ، وما قسم لكل قوم منه ، فقال ذهبت الروم بالجشم والحشو وذهبت فارس بالبارد والحلو . وقال عمر : لفارس الشفارج والحموض . فقال دوسر المديني : لنا الهرائس والقلايا ، لاهل البدو اللبأ والسلاء ، والجراد والكوساة، والخبرة في الرائب ، والتمر بالزبد .

وقد قال الشاعر :

الا ليت خبزا قد تسربل رائبا وخيلا من البرني فرسانها الزبد

ولهم البرمة والخلاصة والحيس والوطيئة .

وقال اعرابي : اتينا ببر كأفواه البعران ، فخبزنا منه خبزة زيت في النار ، فجعل الجور يتحدر عنها تحدر الحشو عن البطان ، ثم ثردناها ، فجعل الثريد يجول في الاهالة جولان الضبعان في الضفرة : ثم اتينا بتمر كأعيان الورلان ، يوحل فيه الضرس .

ونعت السويق بأنه من عدد المسافر ، وطعام العجلان ، وغذاء المبكر وبلغة المريض يشد فؤاد الحزين ويرد من نفس المحدود : وحيد في السمين

ومنعوت في الطيب : ثفاره يجلو البلغم ، ومسمونه يصفي الدم ان شئت كان ثريدا ، وان شئت كان خبيصا ، وان شئت كان طعاما ، وان شئت كان شرابا .

وقيل لبعض هؤلاء اللعامظة والمستأكلين والسفافين والمقفعين ورئي سمينا : ما أسمنك ؟ قال : اكلي الحار ، وشربي القار ، والاتكاء على شمالي ، واكلي من غير مالي .

وقد قال الشاعر :

وان امتلاء البطن في حسب الفتى   قليل الغناء وهو في الجسم صالح

وقال الحجاج للغصبان بن القبعثري : ما اسمنك ؟ قال : القيد والرتعة ومن كان في ضيافة الامير سمن .

وقيل لآخر : انك لحسن السمنة . قال : آكل لباب البر ، وصغار المعز ، وادهن بخام البنفسج ، والبس الكتان .

والله لو كان من يسأل يعطي ، لما قام كرم العطية بلؤم المسألة ومدار الصواب على طيب المكسبة ، والاقتصاد في النفقة . وقد قال بعض العرب : اللهم اني اعوذ بك من بعض الرزق ، حين راى نافجة من ماله من صداق امه .

واي سائل كان الحف مسألة من الحطيئة والأم ؟ ومن الأم من جرير ابن الخطفي وابخل ؟ ومن امنع من كثير ؟ واشح بن هرمة ؟ ومن كان يشق غبار ابن ابى حفصة ؟ ومن كان يصطلي بنار ابي العتاهية ؟ ومن كابي نواس في بخله ؟ او كابي يعقوب الخريمي في دقة نظره وكثرة كسبه ؟ ومن كان اكثر نحرا لجزرة لم تخلق من ابن هرمة ، واطعن برمح لم يثبت ، واطعم لطعام لم يزرع من الخريمي ؟ فأين انت عن ابن يسير ؟ واين تذهب عن ابن ابي كريمة ؟ ولم تقصر في ذكر الرقاشي ، ولم تذكر سره ؟

ان الاعرابي شر من الحاضر ، سائل جبار ، وثابة ملاق ، ان مدح كذب وان هجا كذب وان طمع كذب لا يعرفه الا نطف او احمق ولا يعطيه الا من يحبه ولا يحبه الا من هو في طباعه .

ما ابطأ بكم عن البذل في الحق ! واسرعكم الى البذل في الباطل ! فان كنتم الشعراء تفضلون ، والى قولهم ترجعون ، فقد قال الشاعر :

قليل المال تصلحه فيغني   ولا يبقى الكثير على الفساد

وقد قال الشماخ بن ضرار :

لمال المرء يصلحه فيغني   مفاقره اعف من القنوع

وقال احيحة بن الجلاح :

استغن او مت ولا يغررك ذو نسب ... من ابن عم ولا عم ولا خال
اني اكب على الزوراء اعمرها ... ان الكريم على الاقوام ذو المال

وقال ايضا :

استغن عن كل ذي قربى وذي رحم ... ان الغني من استغنى عن الناس
والبس عدوك في رفق وفي دعة ... لباس ذي اربة للدهر لباس
ولا يغرنك اضغان مزملة ... قد يضرب الدبر الدامي باحلاس

وقال سهل بن هارون :

اذا امرؤ ضاق عني لم يضق خلي ... من ان يراني غنيا عنه باليأس
فلا يراني اذا لم يرع آصرتي ... مستمريا دررا منه بأبساس
لا اطلب المال كي اغني بفضله ... ما كان مطلبه فقرا الى الناس

وقال ابو العتاهية :

انت ما استغنيت عن صاحبك الدهر اخوه
فاذا احتجت اليه ساعة مجك فوه

وقال احيحة بن الجلاح :

فلو اني اشاء نعمت بالا ... وباكرني صبوح او نشيل
ولاعبني على الانماط لعس ... على انيابهن الزنجبيل
ولكني خلقت ازاء مال ... فابخل بعد ذلك او انيل

وقال آخر :

ابا مصلح اصلح ولا تك مفسدا ... فان صلاح المال خير من الفقر
الم تر إن المرء يزداد عزة ... على قومه ان يعلموا انه مثري ؟

وقال عروة بن الورد :

ذريني للغنى اسعى فاني ... رايت الناس شرهم الفقير
وابعدهم واهونهم عليهم ... وان امسى له نسب وخير
ويقصي في الندي وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير
ولتقي ذا الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ... ولكن الغنى رب غفور

وقال سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل :

تلك عرساي تنطقان على عمد ... لي اليوم قول زور وهتر
سألتاني الطلاق ان راتا مالي ... قليلا ـ قد جئتماني بنكر
فلعلي ان يكثر المال عندي ... ويعرى من المغارم ظهري
ويرى اعبد لنا وأواق ... وما صيف من خوادم عشر

وتجـر الاذيـال في نعمـة زول تقـولان : ضع عصاك لدهـر
وي كان من يكن له نشب يحبب، ومن يفتقـر يعش عيش ضر
ويجنـب سر النجـي ولكـن اخا الفقـر محضر كـل شـر

وقال الآخر :

وللمـال منـي جـانب لا اضيعه وللهو منـي والبطالـة جـانب

وقيل لآخر : ما اسمنك ؟ قال : قلة الفكرة ، وطول الدعة ، والنوم على الكظة .

وقال الاخنس بن شهاب :

وقد عشتدهرا والغواة صحابتي اولئك اخواني الذين اصاحب
فاديتعني ما استعرت من الصبا وللمال منياليـوم راع وكاسب

وقال ابن اذينه الثقفي :

اطعت العرس في الشهوات حتى اعادتني عسيفا عبـد عبـد
اذا ما جئتها قـد بعـت عتقـا تعانـق او تقبـل او تفـدي
فمن وجد الغنـى فليصطنعـه ذخيرتـه ويجهـد كـل جهـد

وقـال :

مـن يجمع المـال ولا يثبـه ويتـرك العـام لعـام جدبـه
يهن على النـاس هوان كلبـه

وقد قيل في المثل : الكد قبل المد وقـال لقيط : الغزو ادر للقاح . واحد للسلاح .

وقال ابو المعـافي :

وان التوانـي انكـح العجز بنتـه وساق اليهـا جين زوجهـا مهرا
فراشا وطيئا ، ثم قال لها : اتكي فقصركما ــ لا بد ــ ان تلدا الفقرا

وقال عثمان بن ابي العاص : ساعة لدنياك ، وساعة لآخرتك . وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : انهاكم عن قيـل وقـال ، وكثـرة السؤال ، واضاعة المال .

وقال : خير الصدقة ما ابقى غنى ، واليـد العليا خير من السفلى ، وابدا بمن تعول . وقال النبـي (صلى الله عليه وسلم) : « الثلث كثير ، انك ان تدع ولدك اغنياء ، خير من ان يتكففوا الناس » . وقال ابن عباس : وددت ان الناس غضوا من الثلث شيئا ، لقـول النبي (عليـه السلام) : والثلث كثير . وقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : كفى بالمرء اثمـا ان يضيع من يقوت .

وانتم ترون ان المجـد والكرم ان افقر نفسي باغنـاء غـيري ، وان احوط عيال غيري باضاعة عيالي !

وقال في ذلك ابن هرمة :

كتاركة بيضها بالعراء ... وملبسة بيض اخرى جناحا

وقال آخر :

كمفسد دنياه ومصلح غيره ... ولم يأتمر في ذاك امر صلاح

وقال الآخر :

كمرضعة اولاد اخرى وضيعت ... بنيها ولم ترقع بذلك مرقعا

وقال الله تبارك وتعالى : (ولا تبذر تبذيرا ، ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) . وقال : (ويسألونك ماذا ينفقون ، قل العفو) . فاذن في العفو ولم يأذن في الجهد ، واذن في الفضول ولم يأذن في الاصول .

وأراد كعب بن مالك ان يتصدق بماله . فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) امسك عليك مالك . فالنبي (صلى الله عليه وسلم) يمنعه من اخراج ماله في الصدقة ، وانتم تأمرونه في السرف والتبذير ! وخرج غيلان ابن سلمة من جميع ماله ، فأكرهه عمر على الرجوع فيه ، وقال : لو مت لرجمت قبرك كما يرجم قبر ابي رغال .

وقال الله جل وعز : (لينفق ذو سعة من سعته . ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) . وقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : يكفيك ما بلغك المحل . وقال الله : ما قل وكفى ، خير مما كثر والهى . وقال الله تبارك وتعالى : « الذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » . وقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : ان المنبت لا ارضا قطع ، ولا ظهرا ابقى وقال الله جل ذكره : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

ولذلك قالوا : خير مالك ما نفعك ، وخير الامور اواسطها، شر السير الحقحقة ، والحسنة بين السيئتين. وقالوا : دين الله بين المقصر والغالي. وقالوا في المثل : بينهما يرمي الرامي . وقالوا : عليك بالسداد والاقتصاد، ولا وكس ولا شطط. وقالوا : بين المخة والعجفاء. وقالوا: لا تكن حلوا فتبتلع ، ولا مرا فتلفظ . وقالوا في المثل ، ليس الري عن التشاف . وقالوا : يا عاقد اذكر حلا . وقالوا : الرشف انقع للظمآن . وقالوا : القليل الدائم اكثر من الكثير المنقطع . وقال ابن الدرداء : اني المنقطع . وقال ابو الدرداء : اني لاستجم نفسي ببعض الباطل ، كراهة ان احمل عليها من الحق ما يملها .

وقال الشاعر :

واني لحلو تعتريني مرارة ... واني لصعب الراس غير جموح

وقالوا في عدل المصلح ولائمة المقتصد : الشحيح اعذر من الظالم . وقالوا : ليس من العدل سرعة العذل . وقالوا : لعل له عذرا وانت تلوم .

وقالوا رب لائم مليم . وقال الاحنف : رب ملوم لا ذنب له . وقال : اعطاء السائل تضرية ، واعطاء الملحف مشاركة . وقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : لا تصلح المسألة الا في ثلاث : فقر مدقع ، وغرم مفظع ، ودم موجع .

وقال الشاعر :

الحر يلحى والعصا للعبد وليس للملحف غير الرد

وقالوا : اذا وجد السؤال ، جد المنع . وقالوا : احذر اعطاء المخدوعين ، وبذل المغبونين ، فان المغبون لا محمود ولا مأجور . ولذلك قالوا : لا تكن ادنى العيرين الى السهم . (يقول : اذا اعطيت السائلين مالك ، صارت مقاتلك اظهر لاعدائك من مقاتلهم) . وقالوا الفرار بقراب اكيس . وقال ابو الاسود : ليس من العزاق تتعرض للذل ، ولا من الكرم ان تستدعي اللؤم .

ومن اخرج ماله من يده افتقر ، ومن افتقر فلا بد له من أن يضرع والضرع لؤم . وان كان الجود شقيق الكرم ، فالانفة اولى بالكرم . وقد قال الاول : اللهم لا تنزلني ماء سوء ، فأكون امرأ سوء .

وقد قال الشاعر :

واخط مع الدهر اذا ما خطا واجر مع الدهر كما يجري

وقد قال الآخر :

يا ليت لي نعلين من جلد الضبع وشركا من ثفرها لا تنقطع
كل الحذاء يحتذي الحافي الوقع

وقد صدق قول القائل : من احتاج اغتفر ، ومن اقتضى تجوز . وقيل لريسيموس تأكل في السوق ؟ قال : ان جاع « ريسيموس » في السوق اكل في السوق . وقال : من اجدب انتجع ، ومن جاع جشع . وقال : احذروا نفار النعمة ، فانها نوازٍ ، وليس كل شارد بمردود ، ولا كل ناد بمصروف . وقال علي بن ابي طالب : قلما ادبر شيء فأقبل . وقالوا : رب اكلة تمنع اكلات ، ورب عجلة تهب ريثا . وعابوا من قال : اكلة وموتة . وقالوا : لا تطلب اثرا بعد عين . وقالوا : لا تكن كمن تغلبه نفسه على ما يظن ، ولا يغلبها على ما يستيقن فانظر كيف تخرج الدرهم ؟ ولم تخرجه ؟ وقالوا : تبر من المرزئة سوء الخلف .

وقال الشاعر :

ان يكن ما به اصبت جليلا فذهاب العزاء فيه اجل

ولان تفتقر بجائحة نازله ، خير لك من ان تفتقر بجنـاية مكتسبة . ومن كان سببا لذهاب وفره ، لم تعدمه الحسرة من نفسه ، والائمة من غيره ، وقلة الرحمة ، وكثرة الشماتة ، مع الاثم الموبق ، والهوان على الصاحب . وذكر عمر بن الخطاب فتيان قريش . وسرفهم في الانفاق ، ومسابقتهم في التبذير ، فقال : لخرقة احدهم اشد علي من عيلته . « يقول ان اغناء الفقير ، اهون علي من اصلاح الفاسد » .

ولا تكن على نفسك اشأم من حوتمة ، وعلى اهلك اشأم من البسوس، وعلى قومك اشأم من عطر منشم . ومن سلط الشهوات على ماله ، وحكم الهوى في ذات يده ، فبقي حسيرا فلا يلومن الا نفسه . وطوبى لك يوم تقدر على قديم تنتفع به .

وقال بعض الشعراء :

اری کل قـوم يمنعون حريمهم — وليس لاصحاب النبيـذ حريم
اخوهم اذا ما دارت الكأس بينهم — وكلهم رث الوصال سئوم
فهذا بيانـي ، لم اقـل بجهـالة — ولكنني بالفاسقين عليـم

وقد كان هذا المعنى في اصحاب النبيذ اوجد . فأما اليوم فقد استوى الناس . قال الاضبط بن قريع ، لما انتقل في القبائل فأساءوا جواره ، بعد ان تأذى ببني سعد ، بكل واد بنو سعد .

خذ بقولي ، ودع قول ابي العاص . وخذ بقول من قال : عش ولا تفتقر ، وبقول من قال لا تطلب اثرا بعد عين ، وبقول من قال : املأ حبك من اول مطرة ، ودع ما يريبك الى ما لا يريبك . اخوك من صدقك ، ومن اتاك من جهة عقلك ، ولم يأتك من جهة شهوتك ، واخوك من احتمل ثقل نصيحتك في حظك ، ولم تأمن لائمته اياك في غدك .

وقال الآخر :

ان اخاك الصدق من لم يخدعك — ومن يضر نفسه لينفعك

وقال عبيد بن الابرص :

واعلمن علما يقينا انه — ليس يرجى لك من ليس معك

ولا تزال بخير ما كان لك واعظ من نفسك ، وعين من عقلك على طباعك ، او ما كان لك اخ نصيح ، ووزير شفيق . والزوجة الصالحة عون صدق . والسعيد من وعظ بغيره . فان انت لم ترزق من هذه الخصال خصلة واحدة ، فلا بد لك من نكبة موجعة ، يبقى اثرها ، ويلوح لك ذكرها . ولذلك قالوا : خير مالك ما نفعك . ولذلك قالوا : لم يذهب من مالك ما وعظك .

ان المال محروص عليه ، ومطلوب في قعر البحار، وفي رؤوس الجبال.

وفي دغل الغياض ، ومطلوب في الوعورة . كما يطلب في السهولة . وسواء فيها بطون الاودية ، وظهور الطرق . ومشارق الارض ومغاربها . فطلبت بالعز ، وطلبت بالذل وطلبت بالوفاء ، وطلبت بالغدر ، وطلبت بالنسك . كما طلبت بالفتك ، وطلبت بالصدق ، كما طلبت بالبذاء ، وطلبت بالملق ــ فلم تترك فيها حيلة ولا رقية ، حتى طلبت بالكفر بالله، كما طلبت بالايمان. وطلبت بالسخف ، كما طلبت بالنبل . فقد نصبوا الفخاخ بكل موضع ، ونصبوا الشرك بكل ربع . وقد طلبك من لا يقصر دون الظفر . وحسدك من لا ينام دون الشفاء .

وقد يهد الطالب الطوائل ، والمطلوب بذات نفسه ولا يهدأ الحريص. يقال انه ليس الارض بلدة واسطة ، ولا بادية شاسعة . ولا طرف من الاطراف الا وانت واجد بها المديني والبصري والحيري . وقد ترى شنف الفقراء للاغنياء ، وتسرع الرغبة الى الملوك ، وبغض الماشي للراكب ، وعموم الحسد في المتفاوتين .

وان لم تستعمل الحذر، وتأخذ بنصيبك من المداراة، وتتعلم الحزم. وتجالس اصحاب الاقتصاد ، وتعرف الدهور ــ ودهرك خاصة ــ ، وتمثل لنفسك الغير حتى تتوهم نفسك فقيرا ضائعا ، وحتى تتهم شمالك على يمينك ، وسمعك على بصرك ، ولا يكون احد اتهم عند نفسك من ثقتك ، ولا اولى بأخذ الحذر منه من امينك ــ اختطفت اختطافا ، واستلبت استلابا . وذوبوا مالك وتحيفوه ، والزموه السل ولم يداووه . وقد قالوا : يلي المال ربه ، وان كان احمق . فلا تكونن دون تلك الاحمق . وقالوا : لا تعدم صناع ثلة .

فلا تكونن دون تلك الصناع . وقد قال الاول في المال المضيع المسلط عليه شهوات العيال : ليس لها راع ، ولكن حلبة .

وليس مالك المال المعفى من الاضراس ، فيقال فيه : مرعى ولا اكولة. وعشب ولا بعير . فقصاراك مع الاصلاح.ان يقوم ببطنك وبحوائجك وبما ينوبك . ولا بقاء للمال على قلة الرعي ، وكثرة الحلب .

فكر في امرك ، وتقدم في حفظ مالك ، فان من حفظ ماله فقد حفظ الاكرمين . والاكرمان : الدين والعرض . وقد قيل : للرمي يراش السهم ، وعند النطاح تلعب القرناء .

واذا رات العرب مستأكلا وافق غمرا قالت : ليس عليك نسجة ، فاسحب وخرق وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « الناس كلهم سواء كاسنان المشط ، كالمرء كثير باخيه » . ولا خير لك في صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه . فتعرف شأن اصحابك، ومعنى جلسائك.

فان كانوا في هذه الصفة فاستعمل الحزم ، وان كانوا في خلاف ذلك عملت على حسب ذلك .

اني لست آمرك الا بما امرك به القرآن . ولست اوصيك الا بما اوصاك به الرسول . ولا اعظك الا بما وعظ به الصالحون بعضهم بعضا . قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : اعقلها وتوكل . قال مطرف بن الشخير : من نام تحت صدف مائل ، وهو ينوي التوكل ، فليرم بنفسه من طمار ، وهو ينوي التوكل ! فأين التوقي الذي أمر الله به ؟ واين التغرير الذي نهى عنه ؟ ومن طمع في السلامة من غير تسلم فقد وضع الطمع في موضع الاماني .

وانما ينجز الله الطمع ، اذا كان فيما امر به . وانما يحقق من الامل، ما كان هو المتسبب له .

وفر عمر من الطاعون ، فقال له ابو عبيدة : اتفر من قدر الله ؟ قال نعم ، الى قدر الله .

وقيل له هل ينفع الحذر من القدر ؟ فقال : لو كان الحذر لا ينفع، لكان الامر لغوا .

فابلاء العذر هو التوكل . وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لرجل قال في خصومة حسبي الله : ابل الله عذرا ، فاذا اعجزك امر فقل : حسبي الله .

وقال الشاعر :

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا … من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلي عذرا او يبلغ حاجة … ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وقال الآخر :

فان يكن القاضي قضى غير عادل … فبعد امور لا الوم لها نفسي

وقال زهير القابي : ان كان التوكل ان اكون متى اخرجت مالي ايقنت بالخلف ما لا يرجع في كيسي ، ومتى ما لم احفظه ايقنت بأنه محفوظ، فاني اشهدكم اني لم اتوكل قط . انما التوكل ان تعلم انك متى اخذت بأدب الله انك تتقلب في الخير ، فتجزي بذلك اما عاجلا واما آجلا ــ ثم قال : فلم اتجر ابو بكر ؟ ولم اتجر عثمان ؟ ولم اتجر الزبير ؟ ولم اتجر عبد الرحمن ؟ ولم علم عمر الناس كيف يتجرون ، وكيف يشترون ويبيعون ؟ ولم قال عمر : اذا اشتريت جملا فاجعله ضخما ، فان لم يبعه الخبر باعه المنظر ؟ ولم قال عمر : فرقوا بين المنايا واجعلوا الراس راسين . ولم قال عثمان حين سئل عن كثرة ارباحه ، قال : لم ارو من ربح قط . ولم قيل : لا تشتري عيبا ولا شيبا ؟ وهل حجر علي بن ابي طالب على ابن اخيه عبدالله بن جعفر الا في اخراج المال

في غير حقه ، واعطائه في هواه ؟ وهل كان ذلك الا في طلب الذكر والتماس الشكر؟ وهل قال احد ان انفاقه كان في الخمور والقمار ، وفي الفسولة والفجور ؟ وهل كان فيما تسمونه جودا ، وتعدونه كرما ؟ ومن رأى ان يحجر على الكرام لكرمهم ، رأى ان يحجر على الحلماء لحلمهم وأي امام بعد ابي بكر تريدون ؟ وبأي سلف بعد علي تقتدون ؟.

وكيف نرجو الوفاء ، والقيام بالحق ، والصبر على النائبة ، من عند لعموظ متأكل ، ملاق مخادع ، ومنهوم بالطعام شره ، لا يبالي بأي شيء اخذ الدرهم ؟ ومن اي وجه اصاب الدينار ؟ ولا يكترث للمنة ، ولا يبالي ان يكون ابدا منهوما ، منعوما عليه ، وليس يبالي ـ اذا اكل ـ كيف كان ذلك الطعام ؟ وكيف كان سببه ؟ وما حكمه ؟

فان كان مالك قليلا ، فانما هو قوام عيالك ، وان كان كثيرا فاجعل الفاضل لعدة نوائبك . (ولا يأمن الايام الا المضلل) ، ولا يغتر بالسلامة الا المغفل . فاحذر طوارق البلاء ، وخدع رجال الدهاء . سمنك في اديمك ، وغثك خير من سمين غيرك ، لو وجدته ، فكيف ودونه اسل حداد ، وابواب شداد ؟

قالت امرأة لبعض العرب : ان تزوجتني كفيتك . فأنشد يقول :

اذا لم يكن غير مالك ، مسني خصاص ، وبان الحمد مني والاجر
وما خير مال نافع اهله وليس لشيخ الحي في امر امر

وقال المعلوط القريعي :

ابا هانيء لا تسأل الناس والتمس بكفيك ستر الله فالله واسع
فلو تسأل الناس التراب لاوشكوا اذا قلت: هاتوا، ان يملوا فيمنعوا

ثم رجع الحديث الى احاديث البخلاء ، والى طرف معانيهم وكلامهم .

قال ابن حنان : كان عندنا رجل مقل ، وكان له اخ مكثر . وكان مفرط البخل ، شديد النفج . فقال له يوما اخوه : انا فقير معيل ، وانت غني خفيف الظهر ، لا تعينني على الزمان ، ولا تواسيني ببعض مالك ، ولا تتفرج لي عن شيء ! والله ما رأيت قط ولا سمعت ابخل منك ! قال : ويحك ! ليس الامر كما تظن ، ولا المال كما تحسب ، ولا انا كما تقول في البخل ولا في اليسر والله لو ملكت الف الف درهم ، لوهبت لك خمسمائة الف درهم . يا هؤلاء، فرجل يهب في ضربة واحدة خمسمائة الف درهم يقال له بخيل !

واما صاحب الثريدة البلقاء ، فليس عجبي من بلقه ثريدته . وسائر ما كان يظهر على خوانه ، كعجبي من شيء واحد ، وكيف ضبطه وحصره وقوي عليه مع كثرة احاديثه ، وصنوف مذاهبه ؟ ولذلك اني في كثرة ما جالسته ، وفي كثرة ما كان فيه يفنن من الاحاديث ، لم اره خبر ان رجلا وهب لرجل درهما واحدا ! فقد كان يفنن في الحزم والعزم ، وفي الحلم والعلم ، وفي المعاني ،

الا ذكر الجود ، فانني لم اسمع هذا الاسم منه قط : خرج هذا الباب من لسانه كما خرج من قلبه !

ويؤكد ما قلت ما حدثني به طاهر الاسير ، فانه قال : ومما يدل ان الروم ابخل الإمم ، انك لا تجد للجود في لغتهم اسما . (يقول : انما يسمي الناس ما يحتاجون الى استعماله . ومع الاستغناء يسقط التكلف) .

وقد زعم ناس ان مما يدل على غش الفرس ، انه ليس للنصيحة في لغتهم اسم واحد يجمع المعاني التي يقع عليها هذا الاسم . وقول القائل : نصيحة ، ليس يراد به سلامة القلب ، فقد يكون ان يكون الرجل سليم الصدر ، ولم يحدث سبب من اجله يقصد الى المشورة عليك بالذي هو ارد عليك ــ على حسب رايه فيك ــ وجها العك . ففي لغتهم اسم السلامة ، واسم لارادة الخير ، وحسن المشورة ، وحملك بالرأي على الصواب . فللنصيحة عندهم اسماء مختلفة اذا اجتمعت دلت على ما يدل عليه الاسم الواحد في لغة العرب. فمن قضي عليهم بالغش من هذا الوجه فقد ظلم .

***

وحدثني ابراهيم بن عبد العزيز قال : تغديت مع راشد الاعور ، فأتونا بجام فيه بياح سبخي ، فجعلت آخذ الواحدة فاقطع راسها ثم اعزله ، ثم اشقها باثنتين من قبل بطنها ، فآخذ شوكة الصلب والاضلاع فأعزلها ، او ارمي بما في بطنها ، وبطرف الذنب والجناح . ثم اجمعها في لقمة واحدةوآكلها.

وكان راشد يأخذ البياحة ، فيقطعها قطعتين ، فيجعل قطعة في لقمة ، لا يلقي راسا ولا ذنبا ــ فصبر لي على لقم عدة . فلما بلغت المجهود منه قال : اي بني ، اذا اكلت الطعام فكل خيره بشره .

قال : وكان يقول : لم انتفع بأكل التمر الا مع الزنج واهل اصبهان. فاما الزنجي لا يتخير ، وانا اتخير . واما الاصبهاني فانه يقبض القبضة ، ولا يأكل من غيرها ، ولا ينظر الى ما بين يديه ، حتى يفرغ من القبضة .

وهذا عدل . والتخير قرفة وجور . لا جرم ان الذي يبقى من التمر لا ينتفع به العيال ، اذا كان قدام من يتخير .

وكان يقول : ليس من الادب ان تجول يدك في الطبق ، وانما هو تمر وما اصاب .

وزعم سري بن مكرم ، وهو ابن اخي موسى بن جناح قال : كان موسى يأمرنا الا نأكل ما دام احد منا مشغولا بشرب الماء وطلبه . فلما رآنا لا نطاوعه دعا ليلة بالماء ، ثم خط باصبعه خطا في ارزة كانت بين ايدينا ، فقال هذا نصيبي ، لا تعترضوا له حتى انتفع بشرب الماء !

واحاديثه في صدر هذا الكتاب ، وهذا منها .

وقال المكي لبعض من كان يتعشى ويفطر عند الباسياني : ويحكم ! كيف تسيفون طعامه ، وانتم تسمعونه يقول : (انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) .

ثم ترونه لا يقرؤها الا وانتم على العشاء ، ولا يقرأ غير هذه الآية . انتم والله ضد الذي قال :

البان ابل نعلة بن مسافر ما دام يملكها علي حرام
وطعام عمران بن اوفى مثله ما دام يسلك في البطون طعام
ان الذين يسوغ في اعناقهم زاد يمن عليهم للئام

قال : فمتى تعجب اعجب من خمسين رجلا من العرب ، فيهم ابو رافع الكلابي ، وهو شاعر ندي يفطرون عند ابي عثمان الاعور . فافطاري من طعام نصراني اشد من افطاري من طعام مسلم يقرأ القرآن ويقول الحق .

***

وحدثني ابو المنجوف السدوسي قال : كنت مع ابي ومعنا شيخ من موالي الحي . فمررنا بناطور على نهر الابلة ، ونحن تعبون . فجلسنا اليه. فلم يلبث ان جاءنا بطبق عليه رطب سكر وجيسوان اسود فوضعه بين ايدينا . فأكل الشيخ الذي كان معنا . فلما رايت ابي لا يأكل لم آكل. وبي الى ذلك حاجة . فاقبل الناطور على ابي فقال : لم لا تأكل ؟ قال والله اني لاشتهيه . ولكن لا اظن صاحب الارض اباح لك اطعام الناس من الفريب . فلو جئتنا بشيء من السهريز والبرني لاكلنا . فقال مولانا . وهو شيخ كبير السن : ولكني انا لم انظر في شيء من هذا قط .

***

قال المكي : دخل اسماعيل بن غزوان الى بعض المساجد يصلي. فوجد الصف تاما ، فلم يستطع ان يقوم وحده فجذب ثوب شيخ في الصف ليتأخر فيقوم معه . فلما تأخر الشيخ وراى الفرج ، وتقدم فقام في موضع الشيخ، وترك الشيخ قائما خلفه ينظر في قفاه ويدعو الله عليه .

***

وكان ثمامة يحتشم ان يقعد على خوانه من لا يأنس به . ومن رأيه ان

يأكل بعض غلمانه معه . فحبس قاسم الثمار يوما على غدائه بعض مــن يحتشمه . فاحتمل ذلك ثمامة في نفسـه . ثم عاد بعد ذلك الى مثلها، ففعل ذلك مرارا ، حتى ضج ثمامة واستفرغ صبره .

فأقبل عليه فقال : ما يدعوك الى هذا ؟ لو اردتهم لكان لساني مطلقا ، وكان رسولي يؤدي عني . فلم تحبس على طعامي من لا آنس به ؟ قال: انما اريد ان اسخيك ، فانفي عنك التبخيل وسوء الظن .

فلما ان كان بعد ذلك ، اراد بعضهم الانصراف ، قال له قاسم : اين تريد ؟ قال قد تحرك بطني فاريد المنزل . قال : فلم لا تتوضأ ههنا ؟ فــان الكنيف خال نظيف ، والغلام فارغ نشيط ، وليس من (ابي معن) ، حشـمة، ومنزله منزل اخوانه فدخل الرجل فتوضأ . فلما كان بعد حبس آخر. فلما كان بعد ذلك حبس آخر .

فاغتاظ ثمامة ، وبلغ في الغيظ مبلغا لم يكن على مثله قط . ثم قال : هذا يحبسهم على غدائي ، لان يسخيني بحبسهم ، على ان يخرءوا عنــدي آلمه ، لان من لم يخرأ الناس عنده فهو بخيل على الطعام ! وقــد سمعتهم يقولون : فلان يكره ان يؤكل عنده . ولم اسمع احدا قط قال : فلان يكره ان يخرأ عنده .

وكان قاسم شديد الاكل ، شديـد الخبط ، قذر المؤاكلة . وكــان اسخى الناس على طعام غيره ، وابخل الناس على طعام نفسـه . وكان يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط . فكان لا يرضى بسوء ادبه على طعام ثمامة ، حتى يجر معه ابنه ابراهيم . وكــان بينه وبــين ابراهيم ابنه في القذر ما بينه وبين جميع العالمين فكانا اذا تقابلا على خوان ثمامــة ، لم يكن لاحد على ايمانهما وشمائلهما حظ في الطيبات .

فاتوه يوما بقصعة ضخمة فيها ثريدة كهيئة الصومعة مكللة باكليل من عراق ، بأكثر ما يكون من العراق . فاخذ قاسم الذي يستقبله ، ثم اخــذ يمنة ، واخذ ما بين يدي من كان بينه وبين ثمامة ، حتى لم يدع الا عرقــا قدام ثمامة . ثم مال على جانبه الايسر ، فصنع مثل ذلك الصنيع. وعارضه ابنه وحاكاه ! فلما ان نظر ثمامة الى الثريدة مكشوفة القناع مسلوبة عارية، واللحم كله بين يديه وبين يدي ابنه الا قطعــة واحدة بين يديه ، تنــاولها فوضعها قدام ابراهيم ابنه ، ولم يدفعها . واحتسب بها في الكرامة والبر. فقال قاسم لما فرغ من غدائه : اما رايتم اكرام ثمامة لابني ؟ وكيف خصه ؟

فلما حكي هذا لي ، قلت : ويلك اما اظن ان في الارض عرقا اشام على عيالك منه ! هذا احرجه الغيظ لا يتركه حتى يتشفى منك . فان قدر لك على ذنب فقد والله هلكت . وان لم يقدر عليه اقذره لك الغيظ . وابواب

التجني كثيرة . وليس احد الا وفيه ما ان شئت جعلته ذنبا . فكيف وانت ذنوب من قرنك الى قدميك .

وكان ثمامة يفطر ايام كان في اصحاب الفساطيط نـاسا . فكـثروا عليه ، واتوه بالرقاع والشفاعات ، وفي حشوة المتكلمين . اخلاق قبيحـة ، وفيهم على اهل الكلام وعلى ارباب الصناعات محنة عظيمة .

فلما راى ثمامة ما قد دهمه ، اقبل عليهم وهم يتعشون فقال ان الله عز وجل لا يستحي من الحق ، ومن لم تجئنا شفاعته ، فأكرمه كمن تقدمت شفاعته . كما ان لو استطعنا ان نعمكم بالبر ، لم يكن بعضكم احق بذلـك من بعض . فكذلك انتم اذا اعجزنا او بدا لنا ، فليس بعضكم احق بالحرمان من بعض ومتى قربتكم ، وفتحت بابي لكم ، وباعدت من هو اكثر منكم عددا، واغلقت بابي دونهم ، لم يكن في ادخالي اياكم عذر لي ، ولا في منع الاخرين حجة . فانصرفوا ولا تعودوا !.

***

قال ابو محمد العروضي : وقعت بين قوم عربدة ، فقام المغني يحجز بينهم ، وكان شيخا معيلا بخيلا . فمسك رجل بحلـقه فعصره ، فصاح : معيشتي ! معيشتي !. فتبسم وتركه .

***

وحدثني ابن ابي كريمة قال : وهبوا للكناني المغني خابية فارغة . فلما كان عند انصرافه وضعوها له على الباب . ولم يكن عنده كراء حمالهـا . وادركه ما يدرك المغنين من التيه ، فلم يحملها . فكان يركلها ركلة، فتدحرج وتدور بمبلغ حمية الركلة . وتقدم من ناحيـة كي لا يراه انسان ويرى مـا يصنع . ثم يدنو منها ، ثم يركلها اخرى ، فتدحرج وتدور ، ويقف مـن ناحية . فلم يزل يفعل ذلك الى ان بلغ بها المنزل .

***

قالوا : كان عبد النور كاتب ابراهيم بن عبداللـه بن الحسن قـد استخفى بالبصرة في عبد القيس ، من امير المؤمنين ابي جعفر وعماله . وكان في غرفة قدامها جناح . وكان لا يطلع رأسه منها . فلما سكن الطلب شيئا، وثبت عنده حسن جوار القوم ، صار يجلس في الجناح ، يرضى بأن يسمع

الصوت ولا يرى الشخص ، لما في ذلك من الانس عند طول الوحشة . فلما طالت به الايام ، ومرت ايام السلامة ، جعل في الجناح خرقا بقدر عينه . فلما طالت الايام ، صار ينظر من شق باب كان مسمورا . ثم ما زال يفتحه الاول فالاول ، الى ان صار يخرج رأسه ويبدي وجهه . فلما ير شيئا يريبه ، قعد في الدهليز . فلما زاد في الانس ، جلس على باب الدار !

ثم صلى في مصلاهم ودخل . ثم صلى بعد ذلك وجلس . والقوم عرب . وكانوا يفيضون في الحديث ، ويذكرون من الشعر الشاهد والمثل . ومن الخبر الايام والمقامات وهو في ذلك ساكت ، اذ اقبل عليه ذات يوم فتى منهم ، خرج عن أدبهم ، واغفل بعض ما راضوه به من سيرتهم ، فقال له يا شيخ ، انا قوم نخوض في ضروب ، فربما تكلمنا بالمثلبة ، وانشدنا الهجاء كلها ، واخبار المثالب باسرها ، لم نأمن ان يكون ثناؤنا ومديحنا لبعض العرب مما يسوءك . فلو عرفتنا نسبك ، كفيناك سماع ما يسوءك من هجاء قومك ، ومن مديح عدوك .

فلطمه شيخ منهم ، وقال : لا ام لك ! محنة كمحنة الخوارج ، وتنقير كتنقير العيابين ؟ ولم لا تدع ما يريبك الى ما لا يريبك ؟ فتسكت الا عما توقن بانه يسره .

قال : وقال عبد النور : ثم ان موضعي نبابي لبعض الامر . فتحولت الى شق بني تميم فنزلت برجل فاخذته بالثقة ، واكمنت نفسي الى ان اعرف سبيل القوم . وكان للرجل كنيف الى جانب داره ، يشرع في طريق لا ينفذ . الا ان من مر في الشارع راى مسقط الغائط من خلاء ذلك الجناح . وكان صاحب الدار ضيق العيش ، فاتسع بنزولي عليه . فكان القوم اذا مروا به ينظرون الى موضع الزبل والغائط ، فلا يذهب قلبي الى شيء مما كانوا يذهبون اليه .

فبينما انا جالس ذات يوم اذا انا باصوات ملتفة على الباب ، واذا صاحبي ينتفي ويعتذر ، واذا الجيران قد اجتمعوا اليه وقالوا : ما هذا الثلط الذي يسقط من جناحك ، بعد ان كنا لا نرى الا شيئا كالبعر ، من يبس الكعك ؟ وهذا ثلط يعبر عن اكل غض ! ولولا انك انتجعت على بعض من تستر وتواري لاظهرته . وقد قال الاول :

السـتـر دون الفـاحشـات   يلقـاك دون الخـير مـن سـتـر

ولولا ان هذا طلبة السلطان ، لما توارى . فلسنا نأمن من ان يجر على الحي بلية . ولست تبالي . اذا حسنت حالك في عاجل ايامك ــ الام يفضي بك الحال ، وما تلقى عشيرتك . فأما ان تخرجه الينا ، واما ان تخرجه عنا . قال عبد النور : فقلت : هذه والله القيافة ، ولا قيافة بني مدلج !

انا لله ! خرجت من الجنة الى النار ! وقلت : هذا وعيد . وقد اعذر من انذر . فلم اظن ان اللؤم يبلغ ما رايت من اولئك !

★★★

شهدت الاصمعي يوما ، واقبل على جلسائه يسالهم عن عيشهم، وعما يأكلون ويشربون . فاقبل على الذين عن يمينه فقال ! آبا فلان ، ما ادمك ؟ قال اللحم . قال : اكل يوم لحم ؟ قال : نعم . قال : وفيه الصفراء والبيضاء، والحمراء والكدراء ، والحامضة والحلوة والمرة ؟ قال : نعم . قال . بئس العيش هذا ! ليس هذا عيش آل الخطاب . كان عمر بن الخطاب (رحمة الله عليه ورضوانه) يضرب على هذا . وكان يقول : مدمن اللحم ، كمدمن الخمر .

ثم سأل الذي يليه قال : ابا فلان ، ما ادمك قال : الآدام الكثيرة ، والالوان الطيبة . قال : افي آدامك سمن ؟ قال : نعم . قال : فتجمع السمن والسمين على مائدة ؟ قال : نعم . قال : ليس هذا عيش آل الخطاب. كان ابن الخطاب (رحمة الله عليه ورضوانه) يضرب على هذا . وكان اذا وجد القدور المختلفة الطعوم كدرها في قدر واحدة ، وقال : ان العرب لو اكلت هذا لقتل بعضها بعضا .

ثم يقبل على الاخر فيقول : ابا فلان ، اما ادمك ؟ قال : اللحم السمين، والجداء الرضع . قال : فتأكله بالحواري ؟ قال : نعم . قال : ليس هذا عيش آل الخطاب . كان ابن الخطاب يضرب على هذا . او ما سمعته يقول: اتروني لا اعرف الطعام الطيب ؟ لباب البر بصغار المعزي . الا تراه كيف ينتفي من اكلة وينتحل معرفته .

ثم يقبل على الذي يليه فيقول : ابا فلان ، ما ادمك ؟ فيقول : اكثر ما نأكل لحوم الجزور ، ونتخذ منها القلايا ، ونجعل بعضها شواء . قال : افتأكل من اكبادها واسمنتها ، وتتخذ لك الصباغ ؟ قال : نعم . قال: ليس هذا عيش آل الخطاب . كان ابن الخطاب يضرب على هذا . او ما سمعته يقول : اسروني لا اقدر اتخذ اكبادا وافلاذا وصلائق وصنابا ؟ الا تراه كيف ينكر اكله ، ويستحسن معرفته ؟

ثم يقول للذي يليه : ابا فلان ، ما ادمك ؟ فيقول : الشبارقات والاخبصة والفالوذجات . قال : طعام العجم ، وعيش كسرى ، ولباب البر بلعاب النحل بخالص السمن — حتى اتى على اخرهم . كل ذلك يقول : بئس العيش هذا ! ليس هذا عيش آل الخطاب . كان ابن الخطاب يضرب على هذا .

فلما انقضى كلامه ، اقبل عليه بعضهم فقال : يا ابا سعيد ، ما ادمك؟ قال : يوما لبن ، ويوما زيت ، ويوما سمن ، ويوما تمر ، ويوما جبن، ويوما بقفار ويوما لحم . عيش آل الخطاب .

ثم قال : ابو الاشهب : كان الحسن يشتري لاهله كل يوم بنصف درهم لحما . فان غلا ، فبدرهم . فلما حبس عطاؤه كانت مرقته بشحم .

ونبئت عن رجل من قريش انه كان يقول : من لم يحسن يمنع ، لم يحسن يعطي ، وانه قال لابنه : اي بني ، انك ان اعطيت في غير موضع الاعطاء ، اوشك ان تستعطي الناس فلا تعطي .

ثم اقبل علينا فقال : هل علمتم ان اليأس اقل من القناعة واعز . ان الطمع لا يزال طمعا ، وصاحب الطمع لا ينتظر الاسباب ، ولا يعرف الطمع الكاذب من الصادق . والعيال عيالان : شهوة مفسدة ، وضرس طحون . واكل الشهوة اثقل من اكل الضرس . وقد زعموا ان العيال سوس المال ، وانه لا مال لذي عيال . وانا اقول : ان الشهوة ما لا يبلغ السوس ، وتأتي على ما يقصر دونه العيال . وقد قال الحسن : ما عال احد قط عن قصد . وقيل لشيخ من اهل البصرة : مالك لا ينمي لك مال ؟ قال : (لاني اتخذت العيال قبل المال ، واتخذ الناس المال قبل العيال) . وقد رأيت من تقدم عياله ماله ، فجبره الاصلاح ، ورفده الاقتصاد ، واعانه حسن التدبير ولم ار لشهواني تدبير ، ولا لشره صبرا . وقال اياس بن معاوية : ان الرجل يكون عليه الف ، فينفق الفا ، فيصلح ، فتصلح له الغلة . ويكون عليه الفان فينفق الفين فيصلح ، فتصلح له الغلة . ويكون عليه الفان ، فينفق ثلاثة آلاف ، فيبيع العقار في فضل النفقة .

وذكر الحديث عن ابي لينة قال : كنت ارى زيادا وهو امير ، يمر بنا على بغلة في عنقها حبل من ليف مدرج على عنقها .

وكان سلم بن قتيبة يركب بغلة وحده ، ومعه اربعة آلاف رابطة . ورآه الفضل بن عيسى على حمار وهو امير ، فقال : بذلة نبي وقعود جبار.

ولو شاء ابو سيارة ان يدفع بالعرب على جمل مهري او فرس عتيق لفعل . ولكنه اراد هدى الصالحين .

وحمل عمر علي برذون ، فهملج تحته . فنزل عنه . فقال لاصحابه : جنبوني هذا الشيطان . ثم قال : لاصحابه لا تطلبوا العز بغير ما اعزكم الله به .

قد كنت اعجب من بعض السلف حيث قال : ما اعرف شيئا مما كان الناس عليه الا الآذان وانا اقول ذلك . ولم يزل الناس . هبوط ما ترفعوا بالاسراف ، وما رفعوا البنيان للمطاولة . وان من اعجب ما رأيت في هذا

الزمان ، او سمعت ، مفاخرة مويس بن عمران لابي عبيدالله بن سليمان . ايهما كان اسبق الى ركوب البراذين ! وما للتاجر للبرذون ؟ وما ركوب التاجر للبراذين الا كركوب العرب للبقر !

ولو كانوا اذا جلسوا في الخيوش واتخذوا الحمامات الدور ، واقاموا وظائف الثلج والريحان ، واتخذوا القيان والخصيان ، استرد الناس ودائعهم ، واسترجعت القضاة أموال الايتام والحشرية منهم ، لعادوا الى دينهم وعيشهم واقتصادهم . واذا رآهم اصحاب الفلات ، واهل الشرف والبيوتات ، انفوا ان يكونوا دونهم في البزة والهيئة . فهلكوا واهلكوا .

***

زعم ابو يعقوب الخريمي ان جعفر بن يحيى اراد يوما حاجة كان طريقه اليها على باب الاصمعي ، وانه دفع الى خادم له كيسا فيه الف دينار، وقال له : سانزل في رجعتي الى الاصمعي . وسيحدثني ويضحكني . فاذا رأيتني قد ضحكت فضع الكيس بين يديه .

فلما دخل فراى حبا مقطوع الراس ، وجرة مكسورة العروة ، وقصعة مشعبة ، وجفنة اعشارا ، ورآه على مصلى بال ، وعليه بركان اجرد ــ غمز غلامه بعينه ألا يضع الكيس بين يديه ، ولا يدفع اليه شيئا .

فلم يدع الاصمعي شيئا مما يضحك الثكلان والغضبان الا اورده عليه، فما تبسم . فقال له انسان : ما ادري من اي امريك عجب ؟ أمن صبرك على الضحك ، وقد اورد عليك ما لا يصبر على مثله ، أم من تركك اعطاءه ، وقد كنت عزمت على اعطائه ؟ وهذا خلاف ما اعرفك به .

قال : ويلك من استرعى الذئب فقد ظلم . ومن زرع سبخة حصد الفقر . اني والله لو علمت انه يكتم المعروف بالفعل ، لما ارتفقت بنشره له اللسان . واين يقع مديح اللسان ، من مديح اثار الغني على الانسان ؟ فاللسان قد يكذب والحال لا تكذب . لله در نصيب حيث يقول :

فعاجوا فاثنوا بالذي انت اهله ولو سكتوا اثنت عليك الحقائب

اعلمت ان ناووس ابرويز امدح له من شعر زهير لآل سنان بن ابي حارثة لان الشاعر يكذب ويصدق ، وبنيان المراتب لا يكذب مرة ويصدق مرة . فلست بعائد الى هذا بمعروف ابدا .

كان الاصمعي يتعوذ بالله من الاستقراض والاستقراض . فانعم الله عليه ، حتى صار هو المستقرض منه ، والمستقرض ما عنده . فاتفق ان اتاه في يوم واحد رجلان . وكان احدهما يطلب القرض والاخر يطلب القرض، هجما عليه معا ، فاثقله ذلك وملأ صدره !

ثم اقبل على صاحب السلف فقال : « تتبدل الافعال ، بتبدل الحال. ولكل زمان تدبير ، ولكل مقدار ، ولله كل يوم فيه شأن . كان الفقيه ، يمر باللقطة ، فيتجاوزها ولا يتناولها ، كي يمتحن بحفظها سواه ، اذ كان جل الناس في ذلك الدهر يريدون الامانة ، ويحوطون اللقطة . فلما تبدلوا وفسدوا ، وجب على الفقيه احرازها والحفظ لها ، وان يصبر على ما نابه من المحنة ، واختبر به من الكلفة .

« وقد بلغني ان رجلا اتى صديقا له يستقرض منه مالا ، فتركه بالباب . ثم خرج اليه مؤتزرا . فقال له : مالك ؟ قال : جئت للقتال واللطام، والخصومة والصخب . قال : ولم ؟ قال : لانك في اخذ مالي بين حالين: اما ان تذهب ، واما ان تمطلني به . فلو اخذته على طريق البر والصلة . لاعتددت عليك بحق ، ولوجب عليك به شكر . واذا اخذته من السلف ، كانت العادة في الديون ، والسيرة في الاسلاف ، الرد او التقاضي . واذا تقاضيتك اغضبتك واسمعتني ما اكره ، فتجمع على المطل وسوء اللفظ ، والوحشة وافساد اليد في الاسلاف ، وانت اظلم ، فاغضب كما غضبت . فاذا نقلتني الى حالك فعلت فعلك وصرت انا وانت كما قال العربي : انا تئق وصاحبي مئق ـ فما ظنك بمئق من الغيظ ، ومملوء من الغضب ، لاقي متأقا من الموق ، مملوءا من الكفران ؟ ـ ولكني ادخل الى المنزل ، فاخرج اليك مؤتزرا ، فأعجل لك اليوم ما اخرته الى غد . وقد علمت ان ضرب الموعظة ، دون ضرب الحقد والخيمة ، فتربح صرف ما بين الالمين ، وفضل ما بين الشتمين » .

« وبعد فأنا اضن بصداقتي لك ، واشح على نصيبي منك ، من ان اعرضه للفساد ، وان اعينك على القطيعة . فلا تلمني على ان كنت عندي واحدا من اهل عصرك . فان كنت عند نفسك فوقهم ، وبعيدا من مذهبهم، فلا تكلف الناس علم الغيب فتظلمهم » .

ثم قال : « وما زالت العارية مؤادة ، والوديعة محفوظة . فلما قالوا: احق الخيل بالركض المعار ، بعد ان كان يقال : احق الخيل بالصون المعار، وبعد ان قيل لبعضهم : ارفق به ، قال : انه ، عارية ، وقال الاخر : فاقتل ـ فسدت العارية ، واسند هذا الباب . ولما قالوا :

شمر قميصك واستعد لنابل | واحكك جبينك للقضاء بثوم
واخفض جناحك ان مشيت تخشعا | حتى تصيب وديعة ليتيم

« وحين اكلت الامانات الامناء والاوصياء ، ورتع فيها المعدلون والصرافون وجب حفظها ودفنها ، وكان اكل الارض لها خيرا من اكل

الخئون الفاجر ، واللئيم الغادر . وهذا مع قول اكثم بن صيفي في ذلك الدهر : لو سئلت العارية : اين تذهبين ، قالت : اكسب اهلي ذما .

« وانا اليوم انهي عن العارية والوديعة ، وعن القرض والفرض، واكره ان يخلف قولي فعلي . اما القرض فما انبأتك ، واما الفرض فليس يسعه الا بيت المال . ولو وهبت لك درهما واحدا ، لفتحت على مالي بابا لا تسده الجبال والرمال ، ولو استطعت ان اجعل دونه ردما كردم يأجوج ومأجوج».

« ان الناس فاغرة افواههم نحو من عنده دراهم ، فليس يمنعهم من التهس الا اليأس . وان طمعوا لم تبق راغية ولا ثاغية ، ولا سبد ولا لبد ، ولا صامت ولا ناطق ، الا ابتلعوه والتهموه ! أتدري ما نريد بشيخك ؟ انما تريد ان تفقره .. فاذا افقرته قتلته . وقد تعلم ما جاء في قتل النفس المؤمنة » !



فلم اشبه قول الاصمعي لهذا الرجل ، حين قال : انا اضن بك ، واشح على نصيبي منك من ان اعرضه للفساد » ، الا يقول ثمامة ، حين قال لابن سافري : « بالنظر مني اقول لك ، والشفقة مني اسبك » . وذلك انه ندم ، فرأى ان هذا القول يجعل ذلك منه يدا ونعمة .



وشهدت ثمامة (وقد) اتاه رجل ، قال اليك حاجة ، فقال ثمامة : ولي اليك ايضا حاجة . قال : وما حاجتك ؟ قال : لست اذكرها لك ، حتى تضمن لي قضاءها . قال : نعم قال : فحاجتي الا تسألني هذه الحاجة . قال : انك لا تدري ما هي ؟ قال : بلى ، قد دريت . قال : فما هي ؟ قال : هي حاجة . وليس يكون الشيء حاجة ، الا وهي تخرج الى شيء من الكلفة . قال : فقد رجعت عما اعطيتك . قال : لكني لا اريد ما اخذت .

فاقبل عليه آخر فقال : لي حاجة الى منصور بن النعمان . قال : قل لي حاجة الى ثمامة بن اشرس ، لاني انا الذي اقضي لك الحاجة ، ومنصور يقضيها لي . فالحاجة انا اقضيها لك ، وغيري يقضيها لي .

ثم قال : فأنا لا اتكلم في الولايات ، ولا اتكلم في الدراهم ، لان الدراهم من قلوب الناس ، ولان الحوائج تنقض . فمن سألته اليوم ان يعطيك ، سألني غدا ان اعطي غيرك . فتعجيلي تلك العطية لك اروح لي ليس عندي

دراهم ، ولو كان عندي دراهم لكانت توائبي القائمة الساعة تستغرقهـا ولكني اؤنب لكم من شئتم . علي لكم من التأنيب كل ما تريدون !

قلت له : فاذا اتيت رجلا في امر لم تتقدم فيه بمسالة ، كيف يكـون جوابه لك ؟ فضحك حتى استند الى الحائط .

★★★

وجاء مرة ابو همام المنسوط ، يكلمه في مكرمة داره التـي تطوع ببنائها في رباط عبادان ، فقال : ذكرتني الطعن وكنت ناسيا ، قد كنت عزمت على هدمها ، حين بلغني ان الجبرية قد نزلتها . قـال : سبحان الله ! تهـدم مكرمة ودارا قد وقفتها للسبيل ؟ قال : فتعجب من ذا ؟ قد اردت ان اهدم المسجد الذي كنت بنيته ليزيد بن هاشم ، حين ترك ان يبنيه في الشارع ، وبناه في الرائغ ، وحين بلغني انه يخلط في الكلام ، ويعين البشريـة عـلى المعتزلة . فلو اراده ابو همام ، وجد من ثمامة مربدا جميع مساحةالارض.

وكان حين يسوي لك اللفظ ، لا ينظر في صلاح المعاني من فسادها .

★★★

وتمشى رجل الى الغاضري ، وقال : ان صديقك القادمي قد قطـع عليه الطريق ، قال : فاي شيء تريد ؟ قال : ان تخلف عليه ، قال : فليس عليه قطع الطريق ، بل علي قطع .

★★★

واتى ابن سكاب الصيرفي صديق له يستلف منه مالا ، فقال : لـو شئت ان اقول لقلت ، او اعتل اعتللت ، وان استعير بعض الكلام من يستلف منه اخوانه فعلت ، وليس ارى شيئا خيرا من التصحيح وقشر العصا وليس افعل ، فان التمست لي عذرا ، فهو اروح لقلبك ، وان لم تفعل ، فهو شر لـك .

★★★

وضاق الفيض بن يزيد ضيقا شديدا ، فقال : والله ما عندنا من شيء نعول عليه ، وقد بلغ السكين العظم ، والبيع لا يكون الا مع طول المـدة والراي ان ننزل هذه النائبة بمحمد بن عباد ، فانه يعرف الحال ، وصحة

المعاملة ، وحسن القضاء ، وما لنا من السبب المنتظر ، فلو كتبت اليه كتاباً لسره ذلك ، ولسد منا هذه الخلة القائمة الساعة .

فتناول القلم والقرطاس ليكتب اليه كتاب الواثق المدل ، لا يشك انه سيتلقى حاجته ، بمثل ما كان المتلقي لها منه ـ ومضى بعض من كان في المجلس الى محمد بن عباد ، ليبشره بسرعة ورود حاجة الفيض اليه. فأتاه امر لا يقوم به ، فأمر بالكتابة اليه ليشغله بحاجته اليه ، عن طريق حاجته اليه .

مالي يضعف ، والدخل قليل ، والعيال كثير ، والسعر غال، وارزاقنا من الديوان قد احتبست . وقد تفتحت علينا من ابواب النوائب في هذه الايام ، ما لم يكن لنا في حساب ، فان رايت ان تبعث الي بما امكنك فعجل به ، فان بنا اليه اعظم الحاجة .

فورد الكتاب على الفيض قبل نفوذ كتابه اليه . فلما قراه استرجع وكتب اليه :

يا اخي تضاعفت علي المصيبة ، حتى جمعت خلة عيالك الى خلة عيالي . وقد كنت على الاحتيال لهم . وسأضطرب في وجوه الحيل غير هذا الاضطراب . وسأتحرك في بيع ما عندي ، ولو ببعض الطرح .

فلما رجع الكتاب الى ابن عباد سكن ، والقى صاحبه في اشد الحركة واتعب التعب .

***

وكان رجل من ابناء الحربية ، له سخاء واريحية . وكان يكثر من استزارة ابن عباد ، ويتلف عليه من الاموال ، من طريق الرغبة في الادباء ، وفي مشايخ الظرفاء . وكان يظن بكرمه ان زيارته ابن عباد في منزله زيادة في المؤانسة . وقد كان بلغه امساكه ، ولكنه لم يظن انه لا حيلة له في بسببه .

فأتاه يوماً متطرئا ، وقال : جئتك من غير دعاء . وقد رضيت بما حضر . قال : فليس يحضر شيء ، وقولك : « بما حضر » ، لا بد من ان يقع علي شيء ! قال فقطعة مالح ، قال : وقطعة مالح ليس هي شيء ؟ قال بلى . فنحن نشرب على الريق ؟ قال : لو كان عندنا نبيذ كنا في عرس . قال: فانا ابعث الى نبيذ ، قال : فاذا صرت الى تحويل النبيذ ، فحول ايضا ما يصلح للنبيذ ! قال : ليس يمنعني من ذلك ، ومن احضار النقل والريحان، الا ان احتسب لك هذه الزورة بدعوة ، وليس يجوز ذلك الا بان يكون لك فيها اثر .

فقال محمد ، فقد انفتح لي باب لكم فيه صلاح ، وليس علي فيه فساد

في هذه النخلة زوج ورشان . ولهما فرخان مدركان . فان نحن وجدنا انسانا يصعدها فانها سحيقة منجردة — ولم يطيرا — فانهما قد صارا ناهضين — جعلنا الواحد طباهجة والاخر جردناجا فانه يوم جردناج .

فطلبوا في الجيران انسانا يصعد تلك النخلة ، فلم يقدروا عليه ، فدلوهم على اكار لبعض اهل الحربية ، فما زال الرسول يطلبه حتى وقع عليه . فلما جاء ونظر الى النخلة قال : هذه لا تصعد ولا يرتقى عليها الا بالتبليط والبربند ، فكيف اورمها انا بلا سبب ؟ فسألوه أن يلتمس لهم ذلك. فذهب فغبر مليا ، ثم اتاه به ، فلما صار في أعلاها ، طار احدهما . وانزل الآخر ، فكان هو الطباهج والجردناج ، وهو الغداء ، وهو العشاء .



وكتب ابراهيم بن سيابة إلى صديق له يساويه في الادب . ويرتفع عليه في الحال — وكان كثير المال ، كثير الصامت — يستسلف منه بعض ما يرتفق به ، الى ان يأتيه بعض ما يؤمل ؛ فكتب اليه صديقه هذا يعتذر ويقول :

ان المال مكذوب عليه ، والناس يضيفون الى الناس في هذا الباب ما ليس عندهم . وانا اليوم مضيق ، وليست الحال كما نحب . واحق من عذر ، الصديق العاقل .

فلما ورد كتابه على ابن سيابة ، كتب اليه :

والختان وليمة ، والعرس معروف ، الا ان المفضل الضبي زعم ان هذا الاسم مأخوذ من قولهم : لا عطر بعد عرس

وكان الاصمعي يجعل العروس رجلا بعينه ، كان بني على اهله فلم تتعطر له فسمي بعد ذلك كل بان على اهله بذلك الاسم . ومثل هذا لا يثبت الا بأن يستفيض في الشعر ، ويظهر في الخبر .

واما الخرس فالطعام الذي يتخذ صبيحة الولادة للرجال والنساء . وزعموا ان اصل ذلك مأخوذ من الخرسة ، والخرسة طعام النفساء ، قالت جارية ولدت حين لم يكن لها من يخدمها ويمارس لها ما يمارس للنفساء : تخرسي ، لا مخرسة لك .

وفي الخرسة يقول مساور الوراق :

اذا اسدية ولدت غلاما   فبشرها بلؤم في الغلام
تخرسها نساء بني دبير   بأخبث ما يجدن من الطعام

وقال ابن قيمئة :

شركة حاضر وخيركم در خروس من الارالب بكسر .
ان كنت كاذبا ، فجعلك الله صادقا ، وان كنت ملوما ، فجعلك الله معذورا .



قال عمرو الجاحظ : احتجنا عند التطويل ، وحين صار الكتاب كبيرا، الى ان يكون قد دخل فيه من علم العرب وطعامهم ، وما يتمادحون به، وما يتهاجون به ، شيء وان قل ، ليكون الكتاب قد انتظم جمل هذا البـاب . ولولا ان يخرجون من مقدار شهوة الناس ، لكان الخبر عن العرب والاعراب، اكثر من جميع هذا الكتاب .

الطعام ضروب ، والدعوة اسم جائع ، وكذلك الزلة ، ثم منه العرس والخرس والاعذار والوكيرة والنقيعة . والمأدبة اسم لكل طعام دعيت اليـه الجمـاعات .

قال الشاعر :

نحـن في المشاة نـدعو الجفلـى لا تـرى الادب فينـا ينتقـر

وجاء في الحديث : القرآن مأدبة الله ، وقد زعم ناس ان العرس هو الوليمة ، لقول النبي (صلى الله عليه وسلم) لعبد الرحمن : اولم ولـو بشاة ، وكان ابن عوف والاصمعي من بعده يذمان عمرو بن عبيد ، ويقولان لا ،جيب الولائم ، يجعلان طعام الاملاك والاعراس والسبوع .

فالخروس هي صاحبة الخرسة .

والاعذار طعام الختان ، يقال صبي معذور ، وصبي معذر ، جميعـا وقال بعض اصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وهو يريد تقاربهم في الاسنان : كنا اعذار عام واحد .

فنكحن ابكـارا وهـن بـأمة اعجلتهـن مظنـة الاعـذار

فزعموا انهم سموا طعام الاعذار ، للملابسة والمجاورة .

كان الاصمعي يقول : قد كان للعرب كلام على معان . فاذا ابتـدلت تلك المعاني ، لم تتكلم بذلك الكلام ، فمن ذلك قول الناس اليوم : ساق اليها صداقها . وانما كان هذا يقال حين كان الصداق ابلا وغنما ، وفي قيـاس قول الاصمعي .

ان اصحاب التمر الذين كان التمر دياتهم ومهورهم ، كانوا لا يقولون: ساق فلان صداقه ، قال : ومن ذلك قول الناس اليوم : « قد بني فـلان البارحة على اهله » ، وانما كان هذا القول لمن كان يضرب على اهله في تلـك الليلة قبته وخيمته . وذلك هو بناؤه .

ولذلك قال الاول :

لو نـزل الغيث ابنـين امـــرا   كانت له قبــة ، سحق بجـاد

وكان الاصمعي يعد من هذا اشياء ليس لذكرها ها هنا وجه .

***

ومن طعامهم الوكيرة ، وهو طعام البناء ، كان الرجل يطعم من يبني له . واذا فرغ من بنائه تبرك باطعام اصحابه ودعائهم .

خـير طعـام شهـد العشيرة   العـرس والاعـذار والوكـيرة

ويسمون ما ينحرون من الابل والجزر من عرض المغنم النقيعة .

قال الشاعر :

انـا لنضرب بالسيـوف رؤوسهم   ضرب القدار نقيعـة القدام

والعقيقة دعوة على لحم الكبش الذي يعق عن الصبي . والعقيقة اسم للشعر نفسه ، والاشعار هي العقائق ، وقولهم : عقوا عنه ، اي احلقـوا عقيقته . ويقولون : عق عنه ، وعق عليه ، فسمي الكبش ـ لقرب الجوار وسبب المتلبس ـ عقيقة . ثم سموا ذلك الطعام باسم الكبش .

وكان الاصمعي يقول : لا يقول احدكم : اكلت ملة ، بل يقول : اكلت خبزة . وانما الملة موضع الخبزة ، وكذلك يقول في الرواية والمزادة ، يقول الرواية هو الجمل ، وزعموا انهم اشتقوا الرواية للشعر من ذلك .

فاما الدعاء الى هـذه الاصناف ، فمنه المذموم ، ومنـه المدوح . فالمذموم النقري ، والمدوح الجفلي وذلك ان صاحب المادبة وولي الدعوة، اذا جاء رسوله ، والقوم في احويتهـم وانديتهم فقال : اجيبوا الى طعـام فلان . فجعلهم جفلة واحدة ، وهي الجفالة ، فذلك هو المحمود . واذا انتقر فقال : قم انت يا فلان ، وقم انت يا فلان ، فدعا بعضا وترك بعضا ، فقـد انتقـر .

قال الهذلي :

وليلة يصطلي بـالفرث جازرهـا   يخص بالنقري المثرين داعيها

يقول : لا يدعوا فيها الا اصحاب الثروة واهل المكافاة . وهذا قبيح .

وقال في ذلك بعض ظرفائنـا :

آثـر بالجـدي وبالمـائدة   من كان يرجـو عنـده الفـائـدة

لـو كـان مكوكـان في كنه   مـن خردل مـا سقطـت واحده

وقال طرفة بن العبد :

نحن في المشتـاة نـدعو الجفلـى   لا تـرى الآداب فينـا ينتقر

ولما غزا بسطام بن قيس الشيباني مالك بن المنتفق الضبي ، واثبته عاصم بن خليفة الضبي . شد عليه فطعنه وهو يقول :

* هذا وفي الجفلة لا يدعوني *

ويروى : في الحفلة لا يدعوني . كانه حقد عليه ، حين كان يدعو اهل المجلس ويدعه .

والطعام المذموم عندهم ضربات : احدهما طعام المجاوع والحطيمات والضرائك والسباريت ، واللئام والجبناء ، والفقراء والضعفاء ، من ذلك :

الفت والدعاع والهبيد والقرامة والعسوم منقع البرم والقصيد والقد والحيات .

فاما الفظ فانه وان كان شرابا كريها ، فليس يدخل في هذا الباب . وكذلك المجدوح .

فأما الفظ ، فانه عصارة الفرث ، اذا اصابهم العطش في المفاوز . واما المجدوح ، فانهم اذا بلغ العطش منهم المجهود ، نحروا الابل ، وتلقوا البابها بالجفان ، كي لا يضيع من دمائها شيء . فاذا برد الدم ضربوه بأيديهم ، وجدحوه بالعيدان جدحا ، حتى ينقطع ، فيعزل ماؤه من ثقله ، كما يخلص الزبد بالمخيض والجبن بالانفحة فيتصافنون ذلك الماء، ويتبلغون به ، حتى يخرجوا من المفازة .

وقال الشاعر :

لم تأكل الفت والدعاع ولم تجن هبيدا يجنيه مهتبد

وقال امية بن ابي الصلت :

ولا يتنازعون عنان شرك ولا اقوات اهلهم العسوم
ولا قرن يقزز من طعام ولا نصب ولا مولى عديم

وقال معاوية بن ابي زبيعة الجرمي في القرة ، وهو يعير بني اسد وناسا من هوازن ، وهما ابنا القملية :

الم تر جرما امجدت وابوكم مع الشعر في قص المليد شارع
اذا قرة جاءت يقول : اصب بها سوى القمل ، اني من هوازن ضارع .

والقرامة نحاتة القرون والاظلاف والمناسم وبرادتها والعلهز القردان، ترض وتعجن بالدم . والقرة الدقيق المختلط بالشعر . كان الرجل منهم لا يحلق راسه الا وعلى راسه قبضة من دقيق ، للاكل . فهو معيب .

فاياكم والريف لا تقربنه فان لديه الحيف والموت قاضيا
وهم طردوكم عن بلاد ابيكم وانتم حلول تشتوون الافاعيا

وقال القطامي في آكلهم القد :

تضيف في طل وريح تلفني ... وفي طرمساء غير ذات كواكب
الى حيزبون توقد النار بعدما ... تلفعت الظلماء من كل جانب
فسلمت ، والتسليم ليس يسرها ... ولكنه حق على كل جانب
فلما تنازعنا الحديث سألتها : ... من ؟ قالت : معشر من محارب
من المشترين القد في كل شتوة ... وان كان رأيف الناس ليس بناضب

وقال الراعي :

بكى منذر من أن يضاف وطارق ... يشد من الجوع الازار على الحشا
الى ضوء نار يشتوي القد اهلها ... وقد تكرم الاضياف والقد يشتوى

وقد يضيقون في شراب غير المجدوح والفظ ، في المغازي والاسفار ، فيمدحون من آثر صاحبه ، ولا يذمون من اخذ حقه منه . وهو ماء المصافنة . والمصافنة مقاسمة هذا الماء بعينه . وذلك ان الماء اذا نقص عن الري ، اقتسموه بالسواء . ولم يكن للرئيس ولا لصاحب المرباع والصفي وفضول المقاسم فضل على أخس القوم . وهذا خلق عام ومكرمة عامة في الرؤساء .

فلما تصافنا الادارة اجهشت ... الي غضون العنبري الحراضم
على ساعة لو ان في القوم حاتما ... على جوده ضنت به نفس حاتم

وبذلك المذهب من الاثرة ، مدح الشاعر كعب بن مامة ، حين آثر بنصيبه رفيقه النمري ، فقال :

ما كان من سوقة أسقي على ظمأ ... خمرا بماء اذا ناجودها بردا
من ابن مامة كعب ، ثم عي به ... زو المنية ، الا حسرة وقدي
اوفى على الماء كعب ، ثم قيل له : ... رد كعب ، انك وراد ، فما وردا

وفي المصافنة يقول الاسدي :

كأن اطيطا بابنة القوم لم ينح ... قلائص يحكيها الحني المنقح
ولم يسق قوما فارسي على الحصى ... صباب الاداوي المطيات جنح

ويزعموا ان الحصاة التي ان غمرها الماء في الاناء كانت نصيب احدهم ، تسمى المقلة وهذا الحرف سمعته من البغداديين . ولم اسمعه من اصحابنا وقد برئت اليك منه .

وقال ابن جحوش في المصافنة :

ولما تعاورنا الادارة اجهشت ... الى الماء نفس العنبري الحراضم
وآثرته لما رايت الذي به ... على النفس اخشى لاحقات اللاوم
فجاء بجلمود له مثل راسه ... ليشرب حظ القوم بين الصرائم

***

وقد اصيب القوم في باديتهم ومواضعهم ، من الجهد ما لم يسمع به في امة من الامم ولا في ناحية من النواحي . وان احدهم ليجوع حتى يشد على بطنه الحجارة ، وحتى يعتصم بشدة معاقد الازار ، وينزع عمامته من راسه ، فيشد بها بطنه ، وانما عمامته تاجه . والاعرابي يجد في راسه من

البرد اذا كان حاسرا ما لا يجده احد لطول ملازمته العمامة ولكثرة طيها وتضاعف اثنائها . ولربما اعتم بعمامتين . ولربما كانت على قلنسوة حدرية.

وقال مصعب بن عمير الليثي :

سيروا فقد جن الظلام عليكم فبأس امرىءيرجو القرىعندعاصم
دفعنا اليه وهو كالذبيح خاطيا نشد على اكبادنا بالعمائم

وقال الراعي في ذلك :

يسب لركب منهم من ورائهم فكلهم امسى الى ضوئها ترى
الى ضوء نار يشتوي القد اهلها وقد تكرم الاضياف والقد يشتوي
فلما اناخوا واشتكينا اليهم بكوا وكلا الخصمين مما به بكى
بكى منذر من ان يضاف وطارق يشد من الجوع الازار على الحشا

ومما يدل على ما هم فيه من الجهد ؛ وعلى امتداحهم بالاثرة قول الغنوي :

لقد علمت قيس بن عيلان اننا نضار . وانا حيث ركب عودها
اذا الماء بعد اليوم يمدق بعضه ببعض؛ ويبهل شح نفس وجودها
وانا مغار حين يبتكر الغضى اذا الارض امست وهي جدب جنودها

وقال في ذلك العجير السلولي :

من المهديات الماء بالماء بعدما رمى بالمقاري كل قار ومعتم

وقال اخر في مثل هذا :

لنا ابل يروين يوما عيالنا ثلاث . فان يكثرن يوما فأربع
تمدهم بالماء لا من هوائهم ولكن اذا ما قل شيء يوسع
على انها يغشى اولئك بيتها على اللحم حتى يذهب الشراجمع

وقال ابو سعيد الخدري : اخذت حجرا فعصبته على بطني من الجوع ، واتيت للنبي « صلى الله عليه وسلم » اسأله ، فلما سمعته وهو يخطب : من يستعف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله : رجعت ولم اسأله.

قال اعرابي : جعت حتى سمعت من مسامعي دويا ، فخرجت اريغ الصيد ، فاذا بمغارة ، واذا هو جرو ذئب : فذبحته واكلته ، وادهنت واحتذيت .

ولما قدم المغيرة القادسية على سعد بسبعين من الظهر ؛ وعند سعد ضيق شديد من الحال ، نحروها واكلوا لحومها ، وادهنوا بشحومها ، واحتذوا جلودها .

وذكر الاصمعي عن عثمان الشحام ؛ عن ابي رجا العطاردي ، وقال : لما بلغنا ان النبي « صلى الله عليه وسلم » ، قد اخذ في القتل ، هربنا فاستوينا فخذ ارنب دفينا ، والقينا عليها جمالنا . فلا انسى تلك الاكلة !

وكان الاصمعي اذا حدث بهذا الحديث قال : نعم الادام الجوع ونعم شعار المسلمين التخفيف .

وذكروا عن عبد الملك بن عمير ، عن رجل من بني عذرة ، قال خرجت زائرا لاخوان لي بهجر . فاذا هم في برث احمر باقصى هجر ، في طلوع القمر . فذكروا انا اتانا تعتاد نخلة ، فترتفع يديها ، وتعطو بفيها ، وتأخذ الحلقان والمنسبتة والمنصفة والمعوة .

فتنكبت قوسي ، وتقلدت جفيري . فاذا هي قد اقبلت . فرميتها ، فخرت لفيها . فأدركت ، فقورت سرتها ومعرفتها . فقدحت ناري، وجمعت حطبي ، ثم دفنتها . ثم ادركني ما يدرك الشباب من النوم . فما استيقظت الا بحر الشمس في ظهري . ثم كشفت عنها . فاذا لها غطيط من الودك كتداعي طيء وغطيف وغطفان . ثم قمت الى الرطب وقد ضربه برد السحر فجنيت المعوة والحلقان . فجعلت اضع الشحمة بين الرطبتين ، والرطبة بين الشحمتين ، فأظن الشحمة سمنة ثم سلاءة ، واحسبها من حلاوتها شهدة احدها من الطور .

★★★

وانا اتهم هذا الحديث ، لان فيه ما لا يجوز ان يتكلم به عربي يعرف مذاهب العرب . وهو من احاديث الهيثم .

وقال مديني لاعرابي : اي شيء تدعون ، واي شيء تأكلون ؟ قال نأكل مادب ودرج ، الا ام حبين . فقال المديني : لتهن ام حبين العافية .

وقال الاصمعي : تعرق اعرابي عظما . فلما اراد ان يلقيه — وله بنون ثلاثة — قال له احدهم : اعطنيه ، قال : وما تصنع به ؟ قال : اتعرقه حتى لا تجد فيه ذرة مقيلا . قال : ما قلت شيئا ! قال الثاني : اعطنيه ، قال : وما تصنع به ، قال اتعرقه حتى لا تدري العامة ذلك هو ام للعام الذي قبله ، قال : ما قلت شيئا ! قال الثالث : اعطنيه قال : ما تصنع به ؟ قال : اجعله مخة أدام ، قال : انت له !

فانك لم تشبه لقيطا وفعله وان كنت اطعمت الارز مع التمر

وقال آخر :

اذا انفاض منها بعضها لم تجد لها دويا لما قد كان منها مدانيا

وان حاولوا ان يشبعوها رأيتها على الشعب لا تزداد الا تداعيا

معوذة الارحال لم توف مرتبا ولم تمتط الجون الثلاث الاثافيا

ولا اجتزعت من نحو مكة شقة الينا ولا جازت بها العيس واديا

ولكنها في اصلها موصلية مجاورة فيضا من البحر جاريا

اتتنا تزجيها ، المجاذيف نحونا وتعقب فيما بين ذاك المراديا

فقلت : لمن هذي القدور التي ارى تهيل عليها الريح تربا وسافيا

فقالوا : وهل يخفى على كل ناظر قدور رقاش ، ان تأمل رائيا ؟

فقلت : متى باللحم عهد قدوركم ؟ فقالوا : اذا ما لم يكن عواريا

من اضحى الى الاضحى، والا فانها تكون بنسج العنكبوت كما هي

فلما استبان الجهد لي في وجوههم وشكواهم ادخلتهم في عياليا
فكنت اذا ما استشرفوني مقبلا اشاروا جميعا لجة وتداعيا

★ ★ ★

مما قالوا في صفة قدورهم وجفانهم وطعامهم ما انا كاتبه لك . وهم وان كانوا في بلاد جدب ، فانهم احسن الناس حالا في الخصب . فلا تظنن ان كل ما يصفون به قدورهم وجفانهم وثريدهم وحيسهم باطل .

وحدثني الاصمعي قال : سألت المنتجع بن نبهان عن خصب البادية، فقال : ربما رأيت الكلب يتخطى الخلاصة — وهي له معرضة لـ شبعا

وقال الافوه الازدي :

تهنأ لثعلبة بن قيس جفنة يأوي اليها في الشتاء الجوع
ومدانب لا تستعار وخيمة سوداء عيب نسيجها لا يرفع
وكأنما فيها المذانب حلقة ودم الدلاء على دلوج ينزع

وقال معن بن اوس ، وهو يذكر قدر سعيد بن العاص ، في بعض ما يمدحه :

اخو شتوات لا تزال قدوره تحل على اجائها ثم ترحل
اذا ما امتطاها الموقدون رأيتها لوشك قراها وهي بالجزل تشعل
سمعت لها لغطا اذا ما تغطمطت كهدر الجمال الرزم حين تجفل
ترى البازل الكوماء فيها بأسرها مقضبة في قعرها ما تجلجل
كأن الكهول الشهب في حجراتها تغطرش في تيارها حين يحفل
اذا التطمت امواجها فكأنها غوائب دهم في المحلة قبل
اذا احتدمت امواجها فكأنما يزعزعها من شدة الغلي افكل
تظل رواسيها ركودا مقيمة لمن نابه فيها معاش ومأكل

وضاف الفرزدق ابا السمحاء سحيم بن عامر ، احد بني عمرو بن مرثد ، فأحمده ، وذكر في احماده قدر ، فقال :

سألنا عن ابي السمحاء حتى اتينا خير مطروق لساري
فقلنا يا ابا السمحاء انا وجدنا الازد ابعد من نزار
فقام يجر من عجل الينا اسابي العناس مع الازرار
وقام الى سلافة مسلحب رثيم الانف مربوب بقار
تدور عليهم والقدر تغلي بأبيض من سديف الكوم واري
كأن تطلع الترعيب فيها عذارى يطلعن الى عذاري

وقال الكميت في صفة القدر :

اوز تغمس في لجة تغيب مرارا وتطفو مرارا
كأنما الغطامط من غليها اراجيز اسلم تهجو غفارا

واما ما ذكروا من صفات القدور من تغيير بعضهم بعضا ، فهو كما انشدني محمد بن يسير ، قال : لما قال الاول .

ان لنا قدورا ذراعان عرضها وللطول منها اذرع ، وشبار

قال الآخر : وما هذه ؟ اخذى الله هذه قدرا ! ولكني اقول :

بوات قدري للورى فوضعتها برابية من بين ميث واجرع
جعلت لهم هضب الرحيم وطخفة وغولا اثافي دونها لم تنزع
بقدر كأن الليل شحنة قعرها ترى الفيل فيها طافيا لم يقطع
يعجل للاضياف واري سديفها ومن يأتيها من سائر الناس يشبع

فقال ابو عبيدة : ولما قال الفرزدق :

وقدر كحيزوم النعامة احمشت باجذال خشب زال عنها هشيمها

قال ميسرة ابو الدرداء : وما حيزوم النعامة ؟ والله ما تشبع هذه الفرزدق : ولكني اقول :

وقدر كجوف الليل احمشت غليها ترى الفيل فيها طافيا لم يفصل

وقال عبد الله بن الزبير يمدح اسماء بن خارجة :

الم تر ان المجد ارسل يبتغي حليف صفاء قابلا لا يزايله
تخير اسماء بن حصن فبطنت بفعل العلا ايمانه وشمائله

ومما يجوز في هذا الباب ، وان لم يكن فيه صفة قدر ، قول الفرزدق في الغذافر بن زيد ، احد بني تيم اللات بن ثعلبة :

لعمرك ما الارزاق يوم اكتيالها بأكثر خيرا من خوان الغذافر
لو ضافه الدجال يلتمس القرى وحل على خبازه بالعساكر
بعدة يأجوج ومأجوج جوعا لاشبعهم شهرا غداء الغذافر

قال ابن عبدل في بشر بن مروان بن الحكم :

ولو شاء بشر من دون بابه طماطم سوداء او صقالبة حمر
ولكن بشرا اسهل الباب للتي يكون لبشر عندها الحمد والاجر
بعيد مراد العين ما رد طرفه حذار الغواشي باب دار ولا ستر

وقالوا في مناقضات اشعارهم في القدور ، قال الرقاشي :

لنا من عطاء الله دهماء جونة تناول بعد الاقربين الاقاصيا
جعلنا الالا والرجام وطخفة لها فاستلقت فوقهن اثافيا
مؤدية عنا حقوق محمد اذا ما اتانا بائس الحال طاويا
اتى ابن يسير كي ينفس كربه اذا بروح وافى مع الصبح غاديا

فأجابه ابن يسير فقال :

وترى ثلماء النواحي ولا يرى بها احد عيبا سوى ذاك باديا
ينادي ببعض بعضهم عند طلعتي الا ابشروا هذا اليسيري جائيا

وقال ابن يسير في ذلك :

قدر الرقاشي لم تنقر بمنقار مثل القدور ولم تفتض من غار
لكن قدر ابي حفص اذا نسبت يوما ربيبة آجام وانهار

فاعترض بينهما ابو نواس الحسن بن هانيء الحكمي ، يذكر قدر الرقاشي بالهجاء ايضا ، فقال :

ودهماء تثفيها رقاش اذا شتت | مركبة الاذان أم عيال
يغص بحيزوم البعوضة صدرها | وتنزلها عفوا بغير جمال
ولو جئتها ملأى عبيطا مجزلا | لاخرجت ما فيها بعود خلال
هي القدر قدر الشيخ بكر بن وائل | ربيع اليتامى عام كل هزال

وقال فيها ايضا :

رأيت قدور الناس سودا من الصلى | وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر
ولو جئتها ملأى عبيطا مجزلا | لاخرجت ما فيها على طرف الظفر
يثبتها المعتفى بفنائهم | ثلاث كحظ الثاء من نقط الحبر
تبين في محراثها ان عوده | سليم صحيح لم يصبه اذى الجمر
تروح على حي الرباب ودارم | وسعد وتعروها قراضبة الفزر
وللحي عمرو نفحة من سجالها | وتغلب والبيض اللهاميم من بكر
اذا ما تنادوا بالرحيل سعى بها | امامهم الحولي من ولد الذر

وقال بعض التميميين وهو يهجو ابن جبار :

لو ان قدرا بكت من طول ما حبست | على الحفوف بكت قدر ابن جبار
ما مسها دسم مذ فض معدنها | ولا رأت بعد نار القين من نار

والشعوبية والآزاد مردية ، المبغضون لآل النبي « صلى الله عليه وسلم » واصحابه ، ممن فتح الفتوح ، وقتل المجوس ، وجاء بالاسلام ، تزيد في خشونة عيشهم ، وخشونة ملبسهم ، وتنقض من نعيمهم ، ورفاغة عيشهم . وهم احسن الامم حالا مع الغيث ، واسوئهم حالا اذا خفت السحاب . حتى وبما طبق الغيث الارض بالكلاء والماء فعند ذلك يقول المصرم والمقتر : مرعى ولا اكولة ، وعشب ولا بعير ، وكلأ تبجع له كبد المصرم .

ولذلك قال شاعرهم :

فجنبك الجيوس ابا زينب | وجاد على مسارحك السحاب

واذا نظرت في اشعارهم ، علمت انهم قد اكلوا الطيب وعرفوه ، لان الناعم من الطعام لا يكون الا عند اهل الثراء واصحاب العيش . فقال زياد بن فياض يذكر قيس الدرمك ، وهو الحواري :

ولاقت فتى قيس بن عيلان ماجدا | اذا الحرب هرتها الكماة الفوارس
فقام الى البرك الهجان بسيفه | وطارت حذار السيف دهم قناعس
فصادف حد السيف قباء جلعدا | فكاست ، وفيها ذو غرارين نائس
فأطعمها شحما ولحما ودرمكا | ولم يثننا عنه النميم الحنادس

وقال :

تظل في درمك وفاكهة | وفي شواء ما شئت او مرقه

وقال جرير :

تكلفني معيشة آل زيد ومن لي بالمرقق والصناب

وقال النمر بن تولب :

ما تشتهي . عسل مصفى وان شاءت فحواري بسمن

ومن اشرف ما عرفوه من الطعام — ولم يطعم الناس احد منهم ذلك الطعام الا عبد الله بن جدعان — وهو الفالوذق . مدحه بذلك امية بن ابي الصلت ، فقال :

الى ردح من الشيزى عليها لباب البر يلبك بالشهاد

ولهم الثريد . وهو في اشرافهم عام . وغلب على هاشم حين هشم الخبز لقومه . وقد مدح به في شعر مشهور ، وهو يقله :

عمرو العلا هشم الثرى لقومه ورجال مكة مسنون عجاف

ومن الطعام الممدوح الحسيس . وتزعم مخزوم ان اول من حساس الحسيس سويد بن هرمي . وقال الشاعر :

واذا تكون شديدة ادعى لها واذا يحاس الحيس يدعى جندب

والخبز عندهم ممدوح . وكان عبدالله بن حبيب العنبري احد بني سمرة ، يقال له آكل الخبز ، لانه كان لا يأكل التمر ، ولايرغب في اللبن . وكان سيد بني العنبر في زمانه . وهم اذا فخروا قالوا : منا آكل الخبز ، ومنا مجير الطير ، يعني ثول بن شمحة العنبري .

وهم يقدمون اللحم على التمر ، ان تراه يقول :

فرتني عبيد تمرها وقرينها سنام مصراة قليل ركوبها

فهل يستوي شحم السنام اذا شتا وتمر جواثى حين يلقى عسبها

وليس يكون فوق عقر الابل واطعام السنام شيء. والعقر هو النجدة، واللبن هو الرسل .

وقال الهذلي :

لو ان عندي من قريم رجلا لمنعوني نجدة ورسلا

الا ان خير الناس نجدة ورسلا

وقال المرار بن سعيد الفقعسي :

لهم ابل لا من ديات ولم تكن مهورا ولا من مكسب غير طائل

ولكن حماها من شماطيط غارة خلال العوالي فارس غير مائل

مخيسة في كل رسل نجدة ومعروفة الوانها في المعاقل

وقد وصفوا الثريد ، فقال الراعي :

فباتت تعد النجم في مستحيرة سريع على ايدي الرجال جمودها

وقال آخر :

ثريد كأن السمن في حجراته نجوم الثريا او عيون الضياون

وقال ابن هرمة :

الى ان اتاهم بشيزية تعد كواكبها الشبك

وقال كامل بن عكرمة :

فقرب بينهم خبزا ركودا كساها الشحم ينهمر انهمارا
يدف بها غلاماه جميعا تردهما الى الارض انهصارا
فاصبح سورهم فيها وعلمي لو ان العلم صنفها شيارا

فهذا في صفة الثريد .

وقال بشر بن ابي خازم :

ترى ودك السديف على لحاهم كلون الرار لبده الصقيع

وقال الآخر :

جلا الاذفر الاحوى من المسك فرقه وطيب الدهان راسه فهو انزع
اذا النفر السود اليمانون حاولوا له حوك برديه ارقوا واوسعوا

وقال الزبير بن عبد المطلب :

فانا قد خلقنا اذا خلقنا لنا الحبرات والمسك الفتيت
ولولا الحمس لم يلبس رجال ثيابا غرة حتى يموتوا
ثيابهم شمال او عباء بها دنس كما دنس الحميت

وقال الاعشى :

المشرف العود فأكنافه ما بين حمران فينصوب
خير لها ان خشيت حجرة من ربها زيد بن ايوب
متكئا تقرع ابوابه يسعى عليه العبد بالكوب

وقال ابو الصلت بن ربيعة :

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا في راس غمران دار منك محلالا

وليس هذا من باب الافراط . وباب الافراط كقول حران العود حين وصف نفسه وعشيقته فقال :

فاصبح من حيث التقينا غنيمة سوار وخلخال ومرط ومطرف
ومنقطعات من عقود تركتها كجمر الفضى في بعض ما تتخطرف

ومن ذلك قول عدي بن زيد :

يا لبيني اوقدي النارا ان من تهوين قد حارا
رب نار بت ارقبها تقضم الهندي والغارا

وقال الآخر :

ارى في الهوى نارا لظبية اوقدت يشب ويذكي بعد وهن وقودها
تشب بعيدان اليلنجوج موهنا وبالرند احيانا ، فذاك وقودها

* * *

فقد ذكرنا الطعام الممدوح ما هو ، وذكرنا احد صنفي الطعام المذموم . والصنف الآخر الخزيرة ، التي تعاب بها مجاشع بن دارم وكنحو السخينة التي تعاب بها قريش .

قال خداش بن زهير :

شدة ما شددنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم

وقال عبد الله بن همام :

اذا لضربتهم حتى يعودوا بمكة يلقنون بهنا للسخينا

وقال جرير :

وضع الخزير فقيل : اين مجاشع فشحا جحافله هجف هبلع

والخزير لم يكن من طعامهم . وله حديث . والسخينة كانت من طعام قريش . وتهجى الانصار وعبد القيس وعذرة ، وكل من كان بقرب النخل بأكل التمر :

فقال الفرزدق :

لست بسعدي على فيه حبرة ولست بعبدي حقيبته التمر

وتهجى اسد باكل الكلاب ، وبأكل لحوم الناس والعرب اذا وجدت رجلا من القبيلة قد اتى قبيحا ، الزمت ذلك القبيلة كلها كما تمدح القبيلة بفعل الجميل ، وان لم يكن ذلك الا بواحد منها : فتهجو قريشا بالسخينة، وعبد القيس بالتمر ، وذلك عام في الحيين جميعا . وهما من صالح الاغذية والاقوات . كما تهجو اسد باكل الكلاب والناس، وان كان ذلك انما كان من رجل واحد ، فلعلك اذا اردت التحصيل تجده معذورا . قال الشاعر :

يا فقعسي لم اكلته لمه لو خافك الله عليه حرمه

فما اكلت لحمه ولا دمه

وقال في ذلك مساور بن هند :

اذا اسدية ولدت غلاما فبشرها بلؤم في الغلام
تخرسها نساء بني دبير باخبث ما يجدن من الطعام
ترى اظفار اعقد ملقيات براثنها على وضم الثمام

وقال :

بني اسد ان يمحل العام فقعس فهذا اذا دهر الكلاب وعامها

وقال الفرزدق :

اذا اسدي جاع يوما ببلدة وكان سمينا كلبه فهو آكله

وتهجى اسد وهذيل والعنبر وباهلة باكل لحوم الناس .

قال الشاعر في هذيل :

وانتم اكلتم سحفة ابن مخدم زمانا فما يامنكم احد بعد
تداعوا له من بين خمس واربع وقد نصل الاظفار وانسبا الجلد

وقال حسان فيهم :

ان سرك الغدر لا مزاج له فأنت الرجيع وسل عن دار لحيان
قوم تواصوا باكل الجار بينهم فالشاة والكلب والانسان سيان

وهجا شاعر بالعنبر ، وهو يريد ثوب بن شحمة ، وفيه حديث :

غبجلتم ما صدكم علاجي من العنوق ومن النعاج
حتى اكلتم طفلة كالعاج

ولما عير ثوب بن شحمة بأكل الفتى لحم المرأة الى ان نزل هو من الجبل فقال :

يا بنت عمي ما ادراك ما حسبي اذ لا تجن حبيت الزاد اضلاع
اني للو مرة تخشى بوادره عند الصباح بنصل السيف قراع

فهجا ثوب بن شحمة بأكل لحوم امراة ، وكان ثوب هذا اكرم نفسا عندهم من ان يطعم طعاما خبيثا ، ولو مات عندهم جوعا ، وله قصص ولقد اسر حاتما الطائي ، وظل عنده زمانا .

وقال الشاعر يهجو باهله بمثل ذلك :

ان عفافا أكلته باهله فمشوا عظامه وكاهله
واصبحت ام عفاف ثاكلة

وهجيت بذلك اسد جميعا ، بسبب زملة بنت فائد بن حبيب بن خالد بن نضلة ، حين أكلها زوجها واخوها ابو ارب . وقد زعموا أن ذاك انما كان منهما من طريق الغيظ والغيرة .

فقال ابن دارة ينعي ذلك عليهم :

أفي ان رويتم واحتلبتم شكيكم فحرتم، وفيم الفقعسي من الفخر
ورملة كانت زوجة لفريقكم واخت نريق وهي مخزية الذكر
ابا ارب كيف القرابة بينكم واخوانكم من لحم اكفالها العجر

وقال :

عدمت نساء بعد رملة فائد ـ بني ـ فقعس ـ تاتيكم بأمان
وباتت عروسا ثم اصبح لحمها جلا في قدور بينكم وجفان

وقال البراء بن ربعي ، أخو مضرس بن ربعي يعير صلتا ـ وهو أخوه ـ فقال :

يا صلت ان محل بيتك منتن فارحل فان العود غير صليب
واذا دعاك الى المعاقل فائد فاذكر مكان صدارها المسلوب
والآن فادع ابا رجال ، انها شنعاء لاحقة بأم حبيب

وابو رجال هذا عمها :

وقال في ذلك معروف الدبيري :

اذا ما ضفت ليلا فقعيسا فلا تطعم له ابدا طعاما
فان اللحم انسان فدعه وخير الزاد ما منع الحراما

★ ★ ★

وهذا الباب يكثر ويطول . وفيما ذكرنا دليل على ما قصدنا اليه من تصنيف الحالات فان أردته مجموعا فاطلبه في « كتاب الشعوبية » ، فانه هناك مستقصى .

والاعرابي اذا اراد القرى ولم ير النار نبح ، فيجاوبه الكلب ، فيتبع صوته . ولذلك قال الشاعر :

ومستنبح اهل الشراء يطلب القرى الينا وممساه من الارض نازح

وقال الآخر :

عوى حدس والليل مستحلس الندى لمستنبح بين الرميثة والحصر

ويدلك على انه ينبح وهو على راحلته لينبحه الكلب ، قول خميسة الارقط :

وما وعوى والليل مستحلس الندى وقد زحفت للغور تالية النجم

فمنهم من يبرز كلبه ليجيب ، ومنهم من يمنعه ذلك . قال زياد الأعجم، وهو يهجو بني عجل :

وتمنع كلب الحي من خشية القرى وقدرك كالعذراء من دونها ستر

وقال آخر :

نزلنا بعمار فاشلى كلابه علينا فكدنا بين بيته نؤكل
فقلت لاصحابي اسر اليهم : اذا اليوم ام يوم القيامة اطول

وقال آخر :

اعددت للضيفان كلبا ضاريا عندي وفضل هراوة من ارزن

وقال اعشى بني تغلب :

اذا حلت معاوية بن عمرو على الاطواء خنقت الكلابا

وانشدني ابن الاعرابي ، وزعم انه قول المجنون :

ونار قد رفعت لغير خير رجاه لمن تأوبني الرجيا
تأوبني طويل الشخص منهم يجر لقاله يرجو العشيا
فكان عشاءه عندي خزير بتمر مهينة فيه النوى

وقال في خلاف ذلك حسان بن ثابت :

اولاد جفنة حول قبر ابيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسالون عن السواد المقبل

وقال المرار الحماني في كلبه :

الف الناس فما ينبحهم من اسيف يبتغي الخير وحر

وقال عمران بن عصام :

لعبد العزيز على قومه وغيرهم منن غامره
وكلبك آنس بالمعتفين من الام بابنتها الزائره
وكفك حين ترى السائلين اندى من الليلة الماطره
فمنك العطاء ومنا الثناء بكل محبرة سائره

وفي انس الكلاب بالناس لطول الرؤية لهم شعر كثير :

هذا البيت يدخل في هذا الباب :

يا ام عمرو نجزي الموعودا وارعي بناك امانة وعهودا
ولقد طرقت كلاب اهلك بالضحا حتى تركت عقورهن رقودا
يضربن بالاذناب من فرح بنا متوسدات اذرعا وخدودا

وقـال ذو الرمـة :

وانني كـلاب الحـي الفتنـي ومدت نسوج المنكبوت على رحيلي

وقـال الآخـر :

بات الحويرث والكلاب تشمـه وسرت بابيض كالهلال على الطوى

هذا البيت يدخل في هذا الباب :

وقـال الآخـر :

لو كنت احمل خمرا يوم زرتكم لم ينكر الكلب اني صاحب الدار
لكن اتيت وريـح المسك تفعمنـي والعنبر الـورد اذكيه على النار
فانكر الكلب ريحي حـين ابصرني وكان يعرف ريـح الزق والقـار

وقال هلال بن خثعم :

اني لعف عـن زيـارة جـارتي واني لمشنـوء الـي اغتيابهـا
اذا غـاب عنها بعلها لم اكن لهـا زؤوراً ولـم تانس الـي كلابهـا
وما انا بالداري احاديث بيتهـا ولا عـالم في اي حـوك ثيابهـا

وقال ابن هرمة في فرح الكلب بالضيف لعادة النحر :

وفرحـة من كـلاب الحي يتبعها محض يزف به الراعـي وترعيب

وقال ابن هرمـة :

ومستنبح نبهت كلبـي لصوتـه فقلت له : قم باليفاع فجـاوب
فجاء خفي الشخص قد رامه الطوى بضربة مسنون الغرارين قـاضب
فرحبت واستبشرت حين رأيتـه وتلك التي القـى بها كل ثائـب

وفي منع الكلب من النباح يقول الراعي في الحطيئة :

الا قبـح اللـه الحطيئـة انـه على كل ضيف ضافه فهو سالح
دفعت اليه وهو يخنـق كلبـه الا كل كلـب ـ لا ابالك ! نابـح
بكيت على مذق خبيث قريتـه الا كـل عبسي على الزاد نائـح

* * *

وقد قالوا في صفة ابواب اهل المقدرة والثروة ، اذا كانـوا يقومـون بحق النعمة قال الراجز :

ان الندى حيث ترى الضغاطـا

وقـال الآخـر :

يزدحـم النـاس علـى بابـه والشرع السهـل كثـير الزحـام

وقـال الآخـر :

واذا افتقرت رايت بابك خاليـا وبيت الغنـى يهدى لـه ويـزار

وليس هذا من الاول ، انما هذا مثل قوله :

الم تر بيت الفقـر يهجـر اهلـه وبيت الغني يهـدى له ويـزار

وهذا مثل قولـه :

اذا ما قـل مالـك كنت فـردا واي النـاس زوار المقـل

* * *

والعرب تفضل الرجل الكسوب، والفو الطلوب، ويذمون المقيم الفشل، والدثر والكسلان. ولذلك قال شاعرهم وهو يمدح رجلا :

شتى مطالبه، بعيد همه جواب أودية، برود المضجع

ومدح آخر نفسه فقال :

فان بأتياني في الشتاء وللصبا مكان فراشي فهو بالليل بارد

وقال الآخر :

الى ملك لا يتقص التامي عزمه خروج تروك للفراش الممهد

وقال الآخر :

فذاك قصير الهم يملأ عومه من النوم اذ ملقى فراشك بارد

وقال الآخر :

ابيض بسام برود مضجعه اللقمة الفرد مرارا تشبعه



وهم يمدحون اصحاب النيران، ويذمون اصحاب الإخماد ،

قال الشاعر :

له نار تشب بكل ريع اذا الظلماء جللت اليفاعا
وما ان كان اكثرهم سواما ولكن كان ارحبهم ذراعا

وقال مزرد بن ضرار :

فابصر ناري وهي شقراء اوقدت بعلياء تشز للعيون النواظر

جعلها شقراء، ليكون اضوأ لها. وكذلك النار اذا كان حطبها يابسا كان اشد لحمرة ناره. واذا كثر دخانه قل ضوءه.

وقال الآخر :

ونار كسجر العود يرفع ضوءها مع الليل هبات الرياح الصوارد

وكلما كان موضع النار اشد ارتفاعا، كان صاحبها اجود وامجد لكثرة من يراها من البعد، الا ترى النابغة الجعدي حين يقول :

منع الغدر فلم اهمم به واخو الغدر اذا هم فعل
خشية الله واني رجل انما ذكري كنار بقبل

وقالت خنساء السلمية :

وان صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار



وليس يمنعني من تفسير كل ما يمر الا اتكالي على معرفتك . وليس هذا الكتاب نفعه الا لمن روى الشعر والكلام، وفهم مذاهب القوم، أو تكون قد شدا منه شدوا حسنا .

ومما يدل على كرم القوم أيمانهم الكريمة، واقسامهم الشريفة . قال معدان بن حواس الكندي :

ان كان ما بلغت عني فلامني صديقي وحزت من يدي الانامل
وكفنت وحدي منذرا في ردائه وصادف حوطا من اعادي قاتل

وقال الاشتر ، مالك بن الحارث في مثل ذلك ايضا :

بقيت وحدي وانحرفت عن العلا ولقيت اضيافي بوجه عبوس
ان لم اشن على ابن حرب غارة لم تخل يوما من نهاب نفوس
خيلا كامثال السعالى شذبا تغدو ببيض في الكريهة شوس
حمي الحديد عليهم فكانه لمعان برق او شعاع شموس

وقال ابن سيحان :

حرام كنتي مني بسوء واذكر صاحبي ابدا يذام
لقد احرمت ود بني مطيع حرام الدهن للرجل الحرام
وحرهم الذي قد ستروه ومجلسهم بمعتلج الظلام
وان جنف الزمان مددت حبلا متينا من حبال بني هشام
وريق عودهم ابدآ رطيب اذا ما اغبر عيدان اللئام

الفهرس

